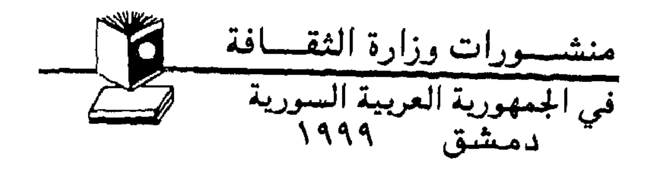
وزارة الثقافة
إحياء التراث العربي
(١٠٨)

رسالة الأديب

بقلم
الدكتور زكي مبارك

إعداد وتقديم
كريمة زكي مبارك

أشرفت على طبع الكتاب ووضعت فهارسه
رباب عدنان درويش



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

رسالة الأديب / بقلم زكي مبارك ؛ اعداد وتقديم كريمة زكي مبارك ؛ أشرفت على طبع الكتاب ووضعت فهارسه رباب عدنان درويش . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٩ . - ٤١٦ص ؛ ٢٤ سم . - (إحياء التراث العربي ؛ ١٠٨) .
بآخره فهارس متنوعة .

١ - ٨١٤ م ب ا ر ٢- العنوان ٣- مبارك ٤- مبارك
٥- درويش ٦- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع-٢٢٧١/ ١٢/ ١٩٩٩



تَكَلَّمَ في السّياسَةِ كلُّ شَخْصٍ أكُلُّ النّاسِ عندَهُم عقُولُ؟
وكَيْفَ يَصِحُّ إصلاحٌ لقَوْمٍ وكُلُّ سِلاحِهِمْ قَالٌ وقيلُ؟
إذا سَمِعوا كَلاماً صَدَّقوه كأنَّ القَوْلَ جاءَ به رَسُولُ!

زكي مبارك
١٩٥١/٩/٣

«إن الأدب شريعة ربانية لا يصلح لها غير المصطفين من أرباب القلوب .

الأدب إيمان وثيق لا يعرف الأشخاص ولا الأزمان ولا الظروف ، فليس بأديب من يفرح لأن صدرا احتضنه بلؤم أو بشوق ليجعل أنامله أداة يلتقط بها الأشواك .

الأدب قوة ذاتية يتوحد بها صاحبها توحد الليث ، فليس منا من يرى الحياة أو الجاه من التشرف بخدمة هذا المخلوق أو ذاك .

الأدبُ الحق منحة ربانية يجود بها الله على أرباب القلوب» .

زكي مبارك
١٩٤٢

تمهيد

بقلم :
كريمة زكي مبارك

«أنا أعرف السر في انهيار دولة الأدب في جميع الأجيال، فقد كان الأدباء يخافون الله ويصافون الناس.

فيا أيها المبدع الأول والأخير لأنوار القلوب وأضواء العقول تفضل فاجذبنا إليك حتى لا نرى روعاً سواك، ولا نشهد إلا إياك، ولا نستجير بغير حماك، ولا نعتمد إلا عليك؛ فما يعتمد على الخلائق غيرُ الأذلاء.

الأدب خير ما أبدعت ... فهو منك وإليك ... فلك الحمد وعليك الثناء».

زكي مبارك

١٩٤٢

عزيزي القارىء:

ليس لي فضل في اسم هذا الكتاب؛ فهو عنوان مقالة نشرها الأديب الدكتور زكي مبارك على صفحات مجلة الرسالة لصاحبها الأستاذ أحمد حسن الزيات في الأول من مارس سنة ١٩٤٣.

وبادىء ذي بدء قد يكون من الأفضل قبل الحديث عن رسالة الأديب أن نُعرِّف الأديب؟ فمن هو الأديب؟

الأديب عند الدكتور زكي مبارك يجب أن يكون أولاً وقبل كل شيء إنساناً ... إنساناً تعنيه الوشائج الإنسانية، وأن يكون وطنياً صادقاً، أبياً، حراً، لا يدين بفضل إلا لمن علموه وأرشدوه، ولا يبيع قلمه ولا لسانه لحاكم ولا لحزب ولا لصاحب جاه.

ولقد كان زكي مبارك إنساناً قبل آن يكون أديباً أو شاعراً أو ناقداً أو فيلسوفاً أو صحفيا أو ... أو ... الخ.

والإنسان الإنسان يجب أن يكون ويكون ...
الإنسان الحق يجب أن يكون ويكون ويكون ...
وهناك صفات كثيرة يجب أن يتحلى بها الإنسان الحق ... ومن بين هذه الصفات أن يكون الإنسان :
صريحاً، صادقاً، مخلصاً، وفياً، عفيفاً وشريفاً، نزيها وأميناً، خيراً وكريماً، رحيماً وحليماً، حراً، شجاعاً وجريئاً، لا ينافق، مناضلاً وطنياً، نبيلاً، عنيفاً في الحق، صاحب مبدإ وله رأي، غيوراً على دينه، قدوة صالحة، وصاحب رسالة.
الإنسان الحق يجب أيضاً أن يكون محباً لوالديه، محبا للعلم، مهتما بترشيد الاستهلاك.
ولقد كان زكي مبارك إنساناً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ...
كان إنساناً عربياً مصرياً تعنيه الوشائج الإنسانية ... وعربيا مصريا تعنيه الأواصر العربية المصرية.
إنه كان إنساناً مسلماً عربياً مصرياً ... وكان صاحب رسالة ...
يقول عن نفسه وعن مؤلفاته :
«اسم المؤلف محمد زكي عبد السلام مبارك، وكان فيما سمعت يحاول الوصول إلى الحق، وطريق الحق كثير الأشواك والعقبات، فلم يصل إلا بعد أن أدمى قدميه إن صح أن الله أراد أن يكون من الواصلين».
وفي يقيني أنه قد وصل، فلقد كان صاحب رسالة ... وصاحب فكر ثاقب ... وصاحب رأي حر ... وصاحب قلم بليغ.
كان إنساناً مسلماً عربياً مصرياً كاتباً صادقاً ... طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه.
يقول الأديب الناقد الأستاذ فتحي رضوان في كتابه (أفكار الكبار) الذي صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨ على الصفحات : ٥٥، ٦٦، ٦٧، ١٠٦.

«حرص زكي مبارك على أن يبقى في الجوهر مصرياً عربياً مسلماً حراً لا يدين بفضل إلا لمن علموه وأرشدوه، لا يبيع قلمه ولا لسانه لحاكم ولا لحزب ولا لصاحب جاه».

ويرى الأستاذ فتحي رضوان أنه كان ظاهرة من ظواهر الحياة الأدبية الوطنية، وأن ظاهرة الأزهري المجدِّد الذي طلب العلم الحديث في مصر وأوربا أو فيهما معاً كانت أكثر لفتا للنظر وأعظم خيراً على مصر من ظواهر أخرى في حياتنا الاجتماعية.

يقول فتحي رضوان: «ولم أكن في حاجة لأعرف سر ظاهرة زكي مبارك؛ فزكي مبارك ممن نأوا بأنفسهم عن السلطة، وممن حرصوا على خصائص المصري الأزهري الريفي الفقير».

ثم يقول فتحي رضوان: «وتعجب كيف أفلت صاحب قلم كزكي مبارك من شباك الأحزاب التي كانت تجزل العطاء لمن يروج لمذهبها ويحارب بسيفها، ولو فعل زكي مبارك ما فعل زملاؤه وأنداده من أهل عصره لتغير الأمر معه تماما، فاسمه كان سيزداد ذيوعاً ورزقه كان سيزداد اتساعاً، ومقامه من صاحب السلطة كان سيزداد ارتفاعاً».

ثم يقول: «ولكن المرائين والمدارين والمتجرين بالأقلام والمروجين للأوهام والمتخذين أعداء الوطن نجحوا في جعل أخريات أيامه صابا وعلقما، حتى أطبقت عليه غربته بين أهله، ووحشته في وطنه؛ وهذا شرف يزينه، وإكليل غار يتألق فوق مفرقه حينما يُروى التاريخ الصحيح بعد أن يسقط البهرج الزائف ويختفي الضلال المتأله».

كان زكي مبارك -كما قلت - صاحب رسالة، وكان غيوراً على الإسلام، وفي يقيني أنه لم يشأ أن يخرج كتاباً واحداً ليتكلم عن الإسلام لأن زكي مبارك كان يرى الدين الإسلامي هو الدنيا والآخرة ...

فالإسلام هو الحياة الدنيا والحياة الآخرة ... ولذلك فحتى حين أخرج بعض الكتب التي تضم بين حناياها الدين الإسلامي السمح ككتبه: (اللغة والدين والتقاليد)، (الأخلاق عند الغزالي)، (التصوف الإسلامي)، (النثر الفني في القرن

الرابع الهجري) و (المدائح النبوية) فإنه لم يشأ أن يخصص فصلاً واحداً منها عن الدين الإسلامي الحنيف، وعن النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه ...

ويرى أن الإسلام ليس ملكا للمسلمين ... وإنما هو ملك للإنسانية جمعاء.

فزكي مبارك كان غيوراً على دينه في كل كتاباته ... وحتى حين كتب عن الحب كانت له غاية من ذلك وهي تحبيب الشباب في اللغة العربية ... لغة القرآن ... لقد كان رغم كثرة كتاباته عن الحب عفيفاً شريفاً يقول:

«أحب أن أعرف نفسي[1]، فهل أستطيع أن أعرف نفسي؟ هيهات هيهات، لو كنت رجلاً فاسقاً لعرفت الحدود وانتهيت ولكني رجل عفيف، وهنا تظهر دقة الإشكال، ومن الذي يصدق أنني رجل عفيف وقد ملأت الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات.

ويستطرد زكي مبارك قائلاً: «ولكن الذي يطمع في معرفة النفس البشرية لا يبخل بوضع نفسه على المشرحة ليسهل عليه وعلى غيره التحليل، ومثله مثل الطبيب المخلص لعمله لا يبخل بتضحية نفسه وهو يبحث صرعى السل والتيفوس».

ولقد سئل مرة: ما هو قولك يوم الحساب فأجاب: «سأقدم إلى الله مقالاتي وبها خدمت لغة القرآن».

وفي طفولتي لا أستطيع أن أنسى هذا المنظر أبداً...

زكي مبارك قادم علينا ونحن في دارنا في سنتريس منوفية، وكان عندنا «شغّالة» في العشرين من عمرها، قالت الشغالة: جاء منذ قليل الشيخ مصطفى يسأل عنك يا سيدي.

فإذا بصوته يرتفع وهو يقول حانقاً:

«أنا لست سيدك ... سيدك هو الله ... أنا الدكتور زكي مبارك».

* * *

---

١ - من كتاب «ليلى المريضة في العراق» للدكتور زكي مبارك، طبع ونشر وتوزيع مكتبة مصر بالفجالة.

وكان مناضلاً وطنياً يعرف حقوق الوطن ... شارك في ثورة (١٩١٩)، وكان من خطباء الثورة المصرية واكتوى بنارها شهوراً طوالاً ... وكان يخطب ضد الاحتلال باللغتين العربية والفرنسية حتى اعتقله الإنجليز وصيروه «أسير حرب»، يقول[١]:

«لقد فكر القوم في مساومتي لأول لحظة وطئت فيها ثكنة قصر النيل ولكني أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء في سبيل البلاد، وأقسم لو سلم المصريون جميعاً وخرج مصطفى كامل من قبره ليصافح الإنجليز لما كان في ذلك ما يزحزحني قيد أنملة عن معاداتهم حتى يكون الجلاء».

ويرى أن الدعوات الوطنية لم تنجح إلا بفضل تحريض الأدباء والكتّاب والشعراء؛ يقول[٢]:

«ما شرّق مشرق أو غرب مغرب في دعوة وطنية أو اجتماعية إلا على هَدْيٍ من وحي الأدب، ولا استبسل جبان أو استقتل شجاع إلا بتحريض من عبارة فاه بها شاعر أو كاتب أو خطيب».

كان صادق الإيمان بالعروبة، بالقومية العربية، باللغة العربية ... وكان فهمه لكل ذلك عميقاً مقرونا بعاطفة الصدق والإيمان.

ولقد طالب بضرورة الوحدة العربية قائلاً[٣]:

«الأمة العربية لا خلاص لها إلا باتحادها، واتحاد المشاعر والأذواق والعواطف له أثر في إعداد هذه الشعوب لمستقبلها المأمول».

ثم يهتف[٤] «إلى اللقاء القريب يوم تزول الحواجز الجمركية بين البلدان العربية ...

إلى اللقاء القريب يوم تتوحد بيننا المذاهب التعليمية والاجتماعية

---

١ – من كتاب: «سيرة زكي مبارك بقلم زكي مبارك» كريمة زكي مبارك مكتبة مصر بالفجالة.

٢ – من كتاب: «زكي مبارك» تأليف أنور الجندي توزيع الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة.

٣ – من كتاب «ليلى المريضة في العراق» تأليف زكي مبارك طبع ونشر وتوزيع مكتبة مصر بالفجالة بالقاهرة.

٤ – نفس المرجع السابق.

والاقتصادية، يوم لا تكون الفوارق الجغرافية إلا نعمة ندرك بها كيف شاء الله أن ينوع الخيرات والبركات...

إلى اللقاء القريب يوم يصبح الوجود العربي جسماً واحداً إذا تألم منه عضو توجع له سائر الأعضاء».

ويقول فيما يقول مدافعا عن اللغة العربية[1]:

«إن حفظ اللغة هو الأساس في حفظ الاستقلال، وإن للغة العربية خصائص ذاتية تستحق الدرس، وإن العرب مقبلون على تاريخ جديد لا تنهض قواعده بغير الإخاء الصحيح، ومن أجل ذلك تبذل الملايين من الدنانير الأجنبية لتمزيق ذلك الإخاء وقتله في المهد».

ثم يقول[2]: «أستطيع أن أؤكد أن كثيراً من الأصنام التي تعبد في مصر والشرق ستتحطم عما قريب، وسينشأ في مصر والشرق جيل يبني أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات... وستهدم صروح العظمة التي تبنى على أساس التوقر والتحفظ... متى أشهد مصرعك يا عصر النفاق».

ويؤكد أن غايته ليست هي الانتفاع المادي في حمل رسالة القلم قائلاً:

«لو كان غايتي هي الانتفاع المادي لسلكت سبيلاً غير هذا السبيل فللأقلام ميادين تصل بأصحابها إلى الثراء العريض».

* * *

وكان -رحمه الله- صريحا والصراحة هي أساس الرجولة والنبل، ولقد وصف زكي مبارك نفسه بأنه الكاتب الوحيد الذي يخجل من أن يقول في السر ما يعجز عن قوله علانية.

يقول الأديب الكبير والناقد الأستاذ عبد المنعم شميس على صفحات جريدة البلاغ القاهرية في السادس والعشرين من يناير سنة (١٩٥٢) تحت عنوان «أديب لا يجود بمثله الزمان» يقول:

«كان زكي مبارك منطلقاً يقول ما يريد ويكتب ما يريد في حرية لا يخشى

---

١ -من كتاب «ليلى المريضة في العراق».
٢ - نفس المرجع السابق.

صولة أحد فكان يهاجم الوزراء في صراحة لا مواربة فيها، وكان يقف أمام المتعنتين في صلابة لا خَشية منها، بل كان يعلم أن رزقه سوف يقطع إذا ما استمر في هجومه ولكنه لا يكف عن الهجوم لأنه رجل».

وقال الأديب الكبير دريني خشبة على صفحات مجلة الرسالة في العدد ٥٢٨ في أغسطس سنة (١٩٤٣): «إن زكي مبارك أجرأ كاتب في الشرق».

كان إنساناً شجاعاً صاحب مروءة طول حياته... يقول على صفحات جريدة البلاغ في الثلاثين من يناير سنة (١٩٥٠): «كنت أدير الساقية على بحر سنتريس منوفية فجاء شابان لزيارتي وكانا ضيفين لجدي لأمي، وطاب لهما أن يستحما، ولكن محمد أفندي عبده صاح (الحقني يازكي... الحقني) فخلعت ثوبي ونزلت لأنقذه من الغرق فكاد يغرقني، ولكني كنت أغطس فيتركني، ومضينا على هذه الحالة ساعة إلى أن وصلنا إلى «الفرعونية» وهي قرية على الرياح المنوفي... ثم مددت يدي إلى شجرة وأمسكت بها وصعدت وأصعدت محمد أفندي وما كنت أصدق أننا سننجو... وصلت الأخبار إلى أبي فحضر وعنفني على ما فعلت فقلت: المروءة أوجبت ذلك، فقال أبي: «هذه المروءة هي السبب في نجاتك».

وأذكر أيضاً على سبيل المثال لا الحصر أنه في سنة (١٩٢٦) وعندما أخرج الدكتور طه حسين كتابه «الشعر الجاهلي» وتحدى فيه الرأي العام؛ أذكر أنه لم يقف بجوار الدكتور طه حسين في محنته إلا الدكتور زكي مبارك... يقول زكي مبارك:

«لقد دافعت عنه دفاعا ما كان ينتظره... ولعله قد دهش منه، وكنت في محضره ومغيبه من المدافعين عنه... لأن المروءة كانت تطالبني بذلك».

ويطول بنا الحديث لو تكلمت عن جوانب شخصية زكي مبارك ولاحتجت لمجلدات ولهذا أقدم فقط إشارات تفيد البحث لمن يريد التعمق في ناحية من النواحي.

* * *

ولقد برأ نفسه من المجاملة والرياء والنفاق المصنوع، وترك لعقله الحرية رغبة في تخليص الأدب من براثن الرياء وقيود الهوى... يقول:

«وفي يقيني أنني سأحول النقد الأدبي في مصر تحولاً جدياً وسأعلم القراء كيف يبحثون عن الحجج والبراهين قبل أن يغرموا بتلمس النزوات الصغيرة التي يلقي بها الكاتب هنا وهناك وهم يتجادلون ويتحاورون ... الناقد كالقاضي ، فكما يجب على الحكَم أن ينزه نفسه عن جميع الأغراض حين يتقدم للحكم بين الناس ، كذلك يجب على الناقد أن يبرىء نفسه من جميع الأغراض» .

* * *

وهو أديب الأمة العربية صاحب مذهب الصراحة ومجافاة النفاق في الكتابة ، ولهذا فصل من عمله عدة مرات ؛ فلقد كان يعمل بعقد حتى وهو مفتش بوزارة المعارف أي وزارة التربية والتعليم ... يقول :

«إن الذخيرة الباقية في حياتي هي أنني أعيش بروحي وقلمي ... إنه روح لطيف وقلم نظيف ... فما استطاعت حكومة مصرية أو غير مصرية أن تستأجر قلمي» .

ويقول أيضاً : «كان يجب أن يكون في مصر كاتب مفكر ، متحرر من العبودية لمن في أيديهم الرفع والخفض ، وأنا ذلك الكاتب» .

ويعلق المؤرخ أنور الجندي على ذلك في كتابه الذي صدر عن الدار القومية للطباعة والنشر بعنوان «زكي مبارك» يعلق على صفحة ٦٤ قائلاً :

«كان زكي مبارك إنساناً خيراً ، وكاتباً يذكر الفضل لأهل الفضل ولكنه كان يرى أن كلمة الخير موضع كراهية من الناس ، يقول زكي مبارك :

«ما ذكرت إنساناً بالخير في حديث أو مقال أو كتاب إلا كان ذلك كافياً لقيام ثورة عنيفة لتصحيح ما أخطأت فيه ، وما ذكرت إنساناً بالشر في حديث أو مقال أو كتاب إلا رأيت من يثني على أدبي ويصفني بالجرأة والشجاعة والعبقرية» .

* * *

وكان إنساناً واقعياً يواجه الحياة مواجهة عملية ، فهو يقول : «الرحمة شيء جميل ولكن دنيانا لم يقم فيها بناء واحد على أساس الرحمة ، والطبيعة نفسها لم

يتسق فيها وضع واحد على أساس الإشفاق وإنما قام كل شيء في الوجود على أساس القهر والغلبة وسيطرة القوي على الضعيف».

ويرى أن الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق، فهو يعلن في كل وقت: أنه من الضالين المضللين، ولو كشف كل إنسان عن سريرته كما كشف الشيطان لأصبحنا جميعا من الملائكة لا من الشياطين.

وكان صاحب مبدأ، ولكن المبدأ عنده لا يكون بأن نتمسك بأي شيء قلته حتى ولو ثبت خطؤه، بل المبدأ أن تتحرى الصدق فيما قلت وفيما تقول... المبدأ ألا تجافي الحقيقة... المبدأ أن تقول ما تراه صدقا اليوم حتى ولو قلت عكسه من قبل.

ويرى أن على الإنسان أن يعدل آراءه ويطورها مع الزمن بحيث لا تجمد ولا تتعارض في الحياة في تطورها، ويرى أنه ليس في ذلك عار أو خطأ، يقول:

«يجب أن تنظر إلى آرائك كما تنظر إلى أثوابك... فالآراء تبلى كما تبلى الأثواب... والذي يعيش على رأي واحد قد يكون أجهل من الذي يعيش بثوب واحد، فاحذر من العيش وأنت بالي الآراء، وقد يعيرك الغافلون بالتنقل من رأي إلى رأي، مع أنهم لا يعيرون من يلبس ثوبا بعد ثوب...

وإنما كان ذلك لأنهم يجهلون أن الآراء من صور الحيوية، ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأي الواحد من شواهد اليقين، ولو عقلوا لأدركوا أن العين التي تنظر بأسلوب واحد هي عين بليدة لا تدرك الفروق بين دقائق المرئيات، وكذلك يكون العقل البليد، وهو الذي لا يدرك الفروق بين المعنويات والمعقولات، والأمر الهام أن تكون أنت أنت، في تحولك وقرارك، فلا ينبغي أن تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك، أو أن تكون ظلا لعظيم من العظماء أو حزب من الأحزاب».

يقول المؤرخ الأستاذ أنور الجندي في كتابه «زكي مبارك» صفحة ٢٣: «هذا هو زكي مبارك سنة (١٩١٩) وهو زكي مبارك إلى آخر الزمن... لم يتغير... لم يجامل... لم يتملّق ولم يصانع السلطان ولذلك عاش حياته غريباً لم يتقلد مكانه الحق في الحياة».

كان إذن قدوة في أقواله وأعماله ... فلقد تعب حتى استطاع أن يقنع و
المعارف سنة (١٩٤٠) بافتتاح مدرسة ابتدائية في بلدته سنتريس منوفية، تح
سنتريس وعشرين بلدا حولها، وفعلاً تم افتتاح المدرسة سنة (١٩٤٣)، وفي ح
الافتتاح ألقى مراقب التعليم بمنطقة شبين الكوم كلمة ختامية قال فيها ما ن
بالحرف الواحد:

«أرجو يا أبنائي أن تجعلوا الدكتور زكي مبارك قدوة لكم، فقد رفع سنتر
ورفع عشرين بلداً تجاور سنتريس، ولو خدم كل رجل بلده. كما خدم الدكتور ز
مبارك بلده لارتفعت جميع البلاد».

* * *

وزكي مبارك الإنسان والكاتب سبق عصرنا في المطالبة بترشيد الاستهلا
فكان يتحدث مع المدرسين مثلاً عن مزية الادخار ويخاطب المدرس بما معناه: من
يجد نفقات بقية شهره فكيف له أن يجد عقله أثناء الدرس. حتى إنه أعلن ء
كتاب سيقدمه للقراء تحت عنوان: (أدب المعاش)[1] ولكن الأيام كانت أسبق منـ
وقد قمت بجمع الكتاب. وبهذه المناسبة أذكر أن له ما يزيد عن خمسين كتابا
زالت حتى الآن في بطون الجرائد والمجلات لم تجمع بعد ... فيا حبذا لو وجد
جمعية زكي مبارك الأدبية المساهمة المادية من عشاق ومحبي أدبه في مصر وف
جميع أنحاء العالم الإسلامي والعربي لجمع هذا التراث الضخم.

* * *

أحب -رحمه الله- والديه ... أحب أباه وكان موضع فخره واعتزازه. يقو
الأديب الناقد والصحفي الأستاذ محمد محمود رضوان في كتابه «صفحا
مجهولة من حياة زكي مبارك» الذي صدر في كتاب الهلال في سنة (١٩٧٤).

«إن زكي مبارك كان ابنا باراً بأبيه غاية البر ويتمثل ذلك في صورة من أرو
صور الوفاء: «كنت أخفي عنه همومي وأحزاني فما بات ليلة وهو مهموم بسبب
ولا وصل إليه حزن عن طريقي».

١ - كتاب: «أدب المعاش» تحت الطبع الآن.

وأيضاً في كتاب «سيرة زكي مبارك» بقلمه إعداد وتقديم كريمة زكي مبارك وطبع وتوزيع مكتبة مصر بالفجالة.

يقول -رحمه الله-: «لم أوجب عليه أن يسهر ليلة واحدة من أجلي، فقد كنت مثال الطالب المجتهد الذي يقذي عينيه تحت أضواء المصابيح فلم يمت إلا بعد أن عرف أني مزود ومؤهل بالألقاب العالية من الجامعة المصرية وجامعة باريس».

وأحب أمه، يقول الأديب الصحفي محمد محمود رضوان في كتابه «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك» «عندما ماتت أمه سنة (١٩١٧) وكان يومئذ طالبا في الجامعة المصرية القديمة بكلية الآداب في أولى سنوات الدراسة أصيب بصدمة عنيفة زلزلت كيانه وهزته من أعماقه هزا عنيفا؛ فقد طلبت أمه بإلحاح أن تراه وهي على فراش المرض قبل أن تموت، ولكن أباه أخذ يسوف لأنه كان يعرف أن ابنه يؤدي أول امتحان له في الجامعة المصرية. وماتت أمه ودفنت وهو غائب في القاهرة، فشعر زكي مبارك بالمرارة والحزن العميق».

ويقول زكي مبارك نفسه: «هل كان أبي يعرف أن توديع أمي في لحظاتها الأخيرة أحب إلي من جميع المغانم العلمية؟ لو عرف لأعفاني من لوعة سأعاني من نيرانها إلى أواخر أيامي».

* * *

وكان محبا للعلم، بدأ حياته في الكُتّاب (برفع الكاف وتشديد التاء)، وحصل على الدكتوراه الأولى سنة (١٩٢٤) عن اطروحته «الأخلاق عند الغزالي»، ولكنه لم يكتف بذلك بل سافر إلى باريس على نفقته الخاصة ودرس حتى حصل على الدكتوراه الثانية سنة (١٩٣١) عن كتابه: «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» ولما عاد إلى مصر حَنّ إلى الدراسة مرة أخرى فتقدم برسالته «التصوّف الإسلامي» ونال شهادة الدكتوراة الثالثة سنة (١٩٣٧)، وعاد مرة رابعة سنة (١٩٤٩) وقيد اسمه لنيل شهادة الدكتوراة الرابعة، وكان موضوعها «عبقرية الشريف المرتضى»، ولكنه رحل إلى عالم البقاء قبل أن يتقدم ببحثه عن الشريف المرتضى.

* * *

كان زكي مبارك الإنسان أزرق العينين ولكنه كان دائماً يذكر أنه أخضر العينين والسبب أنه كان يشبّه المستعمر بأزرق العين، وكان طويل القامة ولكنه لم يكن عملاقا؛ كان عملاقاً في أفعاله وأقواله وأعماله وكتاباته.

كان وفياً مخلصاً صادقاً، يقول الكاتب الكبير الراحل محمد عبد القادر حمزة على صفحات جريدة البلاغ في السادس والعشرين من يناير سنة (١٩٥٢): «كان زكي مبارك خير من أرسلتهم مصر إلى العراق، وهناك بدت خلة الوفاء في أسمى معانيها ومداركها إذ كان الفقيد الكريم في هذا القطر قطعة من النبوغ المصري الوقاد لم يلبث أن جعل له ولبلاده في العراق من نباهة الذكر ومن بعد الصيت ما لا أظن أن العراقيين سينسونه أبداً».

وفوق هذا وذاك كان موهوباً ككاتب وأديب وشاعر وخطيب وفيلسوف وناقد ومحقق ومؤرخ ... وصحفي ... الخ.

قال الكاتب الصحفي الأستاذ محمد عبد القادر حمزة على صفحات جريدة البلاغ بعد رحيله: «يعز على هذه الصفحة ألا يتوجها الكلام الذي كانت تسطره يد زكي مبارك في كل أسبوع، وأن ينقطع هذا المعين الطيب عن ذهن كان عبقريا في إنتاجه بل كان معلماً حتى للعلماء».

ويقول الأديب العربي المصري الدكتور عبد العزيز شرف في الكتاب الذي صدر في احتفال مصر بذكرى مولد زكي مبارك تحت عنوان: «الذكرى المئوية لميلاد الدكتور زكي مبارك ١٨٩١ ... ١٩٩١» يقول في دراسة له تحت عنوان: «فَنّ اليوميات الصحفية في أدب زكي مبارك».

«في أدب زكي مبارك تتعرف على فَنّ مقالي جديد كان من أهم رواده في الصحافة المصرية والعربية، ونعني به «فَنّ اليوميات الصحفية» أو «فن المقال الاعترافي» الذي انتقل به من حيز المقالة الذاتية إلى فَنّ مقالي جديد يخدم أغراض الاتصال الصحفي بالجماهير.

وهو الفن الذي مهد لفن السيرة الذاتية في أدبنا الحديث، ووصله بتراثنا في أدبنا القديم، تأسيساً على أن «السيرة الإنسانية» لا تقتصر على النشاط الذهني والنشاط العملي بل هي تستند أساسا إلى النشاط اللغوي باعتبارها فناً أدبيا».

ثم يقول الدكتور شرَف : «وضع زكي مبارك بذور فَنّ اليوميات في أدبه في المقالات التي نشرها في جريدة الأفكار منذ سنة (١٩١٤) تحت مسمى «البدائع»، وكان أسلوبه يقوم على أصلين هما السر في نجاحه : «الصدق والوضوح» يضاف إلى هاتين الميزتين ميزة ثالثة هي الحيوية العنيفة في نقد الآراء».

* * *

إن زكي مبارك الإنسان كان رجلاً عظيماً بدليل أنه يعيش للآن على ألسنة الناس في المشرقين والمغربين ... وهو الذي كان يقول : «الأدب خليق بأن يكون له شهداء وأنا ذلك الشهيد».

كان يؤمن بقدرة القلم ويراه في يد الكاتب مثل المشرط في يد الطبيب، ويقول : إنه اتخذ من القلم مشرطا يعالج به أمراض القلوب، وإن الذي يطمع في معرفة النفس البشرية لا يبخل بوضع نفسه على المشرحة ليسهل عليه وعلى غيره التحليل، ومثله مثل الطبيب المخلص لعمله لا يبخل بتضحية نفسه وهو يبحث صرعى السل والتيفوس.

ويرى أن رجال القلم هم أطباء النفوس والقلوب والعقول، والطبيب بلا مرضى كالمحامي بلا قضايا أو المدرس بلا تلاميذ.

ويرى أن للنبوغ والعبقرية غاية إنسانية لا غاية محلية، **وأن على الكاتب ألا يكون الكاتب الأول بل يكون الانسانَ الأول**، ويقول على صفحات مجلة الرسالة في السادس عشر من فبراير سنة (١٩٤٢) :

«إن جاز في وهمنا أن الألقاب الجامعية تغني عن الجهاد الموصول في سبيل المجد فقد ضللنا سواء السبيل.

هل تفهمون كلمة «ليسانس» وهي أول درجة من الدرجات الجامعية؟

الليسانس كلمة فرنسية معناها الحرية، وحرية الجسم لا تتم إلا بسلامة جميع الأعضاء، وكذلك حرية العقل وحرية الروح، فلا حرية لعقل تعوزه المواهب، ولا حرية لروح يعوزه الصفاء.

وأشرح كلمة «الليسانس» مرة ثانية فأقول :

الغرض من هذه الكلمة هو إعطاء الطالب راية الحرية من جميع ما قرأ وما سمع ليكون من المبدعين، فأين حملة الليسانس من هذا الغرض؟

إن أعفتهم الدولة من تحقيق هذا الغرض فلن يُعفيهم الوطن ولن يرحمهم الله الذي علم آدم في الفردوس ليكون رسوله إلى ممالك الأرض».

ويقول: «إن الأمم لا تسبق الحكومات إلا حين تكتمل فيها الحيوية الروحية والعقلية ... فيجب أن نخلق شواغل جدية بعد أن طال عهدنا باستصغار قيمة الوقت».

* * *

عزيزي القارىء:

إن المعارك الأدبية أيام زكي مبارك ومعاصريه كانت مساجلات عميقة تقوم معظمها على البحث الهادىء والمنطق العميق والمعارضة الذهنية كما كانت توضح لشبابنا أن لنا أدبا يشرفنا بين العالمين ... وأن أسلافنا جديرون بالإعزاز والتمجيد.

وهذه (رسالة الأديب) غيض من فيض عطائه الزخار في الأدب، والنقد، والسياسة، والاجتماع، وكل ما يتصل بالعلاقات الإنسانية وما يبدعه الإنسان تضمها مقالات وأبحاث كانت نشرت في أعداد من جريدة البلاغ ومجلة الرسالة المصريتين، ثم فصول مستلة من بعض كتب كان صنفها المرحوم الدكتور مبارك في (ليلى المريضة في العراق، والبدائع، ووحي بغداد، وأدب المعاش، وذكريات باريس، وجناية أحمد أمين على الأدب العربي، وسيرة زكي مبارك بقلمه) ثم من كتب أخرى وضعها عنه بعض النقاد أمثال كتاب (زكي مبارك) للكاتب الأديب أنور الجندي. وتتناول هذه المقالات وتلك الأبحاث موضوعات شتى: أدبية ونقدية، وسياسية، واجتماعية، وعمرانية، وفي الوصف ونحو ذلك.



واصطفيت هذه المقالات وتلك الأبحاث وجعلتها في (رسالة الأديب) زمراً في فصول عشرة هي :

١ - القلم البليغ .

٢ - الأدب والوطنية .

٣ - الأدب السياسي .

٤ - الأدب في الحرب والسلام .

٥ - الأدب في الدين واللغة .

٦ - الأدب والشباب .

٧ - الأدب بين التصريح والتلميح .

٨ - أدب المعاش .

٩ - أدب الشواطىء .

١٠ - من أقوال زكي مبارك .

وذلك ليسهل على القارىء الاهتداء إلى بغيته من موضوعات مقالاته وإلى مظانها حين يريد ، والله الموفق .

كريمة زكي مبارك

الفصل الأول

القلم البليغ

القلم البليغ

يرى الأديب العربي المصري الدكتور زكي مبارك أن رجال القلم أعرف خلق الله بما يشتجر في الصدور من آلام وآمال ... وأن الأدباءهم أقدر الناس على عصيان الأهواء ويقول: «ألا ترون كيف نحارب منافعنا في سبيل النزاهة الأدبية؟

نحن نبخل بالحكم على لقطة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجهد المستطاب، مع أن الحكم على قطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر في سياسة البلاد... إن الأمور لن تنصلح إلا يوم تصبح المقاليد بأيدي رجال القلم البليغ ... ورسالة القلم البليغ هي خَلق ذوق الحياة».

ويرى أن على صاحب القلم أن يحرر عقله وقلبه وروحه من جميع الأوهام والأباطيل؛ ومعنى ذلك أنه يجب أن ينظر في جميع المعاني نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوه ولو كانوا من أعاظم الرجال.

وعلى صاحب القلم توطين النفس على الغربة الأبدية ... والخلوة إلى القلب، وهذه الخلوة هي السبب في تفوق الأدباء القدماء ... وهل ننسى أن الأنبياء لم يتلقوا الوحي إلا في أعقاب الخلوات إلى القلوب؟

يقول:

«لقد خرج المتنبي هاربا من مصر في ليلة عيد، فكم ألوف من الدنانير أنفقت في مصر في تعليم أبنائها حكمة المتنبي ؟

ومات محمد عبدة بعلة أورثته إياها عقوق معاصريه، فكم ألوف من النفوس حاولت التشرف بأنها رآته قبل أن يموت».

ويعلي من مكانة الأديب في الجهاد ويرى أن الفضل يرجع إلى الأدب العربي في تأريث البطولة العربية، وكذلك حظ جميع الآداب في الشعوب العربية. ويستشهد برأيه في أنه حين تزاور الرؤساء الإنجليز والأمريكان بعد انتصار الحلفاء في الحرب الماضية لم يجدوا عبارة تفصح عن الألفة بين الأمتين أفضل من العبارة التي تقول بأن لغة شكسبير هي الرباط الوثيق بين الإنجليز والأمريكان.

ويرى أن على القلم البليغ أن يكتب دائماً ولا ينقطع عن الكتابة في السلم أو الحرب. وعلى صاحب القلم أن يقبل الاحتراق باللهب المقدس؛ لهب الأدب ويقول:

«نحن وحدنا الأحياء، ونحن وحدنا الخالدون».

«إن كلمة تُضم إلى كلمة في ذكاء ولوذعية أشرف وأعظم وأنفع من كنوز تضاف إلى كنوز، وأن جود الله بالفكر والروح على من يصطفيهم من عباده لهو أطيب الهبات وأكرم الأرزاق... أقسم الله بالقلم ولم يقسم بالمال، ونحن بالله مؤمنون».

ويرى أنه لا حياة للأدب إن لم تكن لأهله عقيدة أدبية يرحب صاحبها بجميع المتاعب في سبيل الأدب الصحيح، وأن على الكاتب أن ينظر في جميع الأشياء، وجميع المعاني نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقونا.

ومع اهتمامه بأهمية الدراسة فإنه يطالبنا بفتح ما أغلق من القلوب والنفوس، وأن على الأديب أن يكون صادقا لأن الأدب الصادق هو الذي يحمي صاحبه من بريق الزيف والبهرج ويقنعه بأن المجد الحق لا يكون إلا في ظلال الشهامة والصدق وشرف القول والفعل، وطهارة القلب والوجدان.

ويرى زكي مبارك أن الأدب يستفيد من الخير والشر على السواء، كما يستفيد من السلم والحرب...

ويقول أيضاً: «إن الحياة هي كتاب الأديب؛ فالأدب يجب أن يكون من وحي الحياة، وإنه من الضروري أن نعيش الحياة حتى نكتب آيات الوجود، لا أن نترك الحقيقة ونبحث عنها في الخيال، ونهرب من العالم ونلجأ إلى القلم ...»

ويقول: «إن الأديب الذي يتهيب الحياة ويخاف مجاهلها هو أديب رخو ليس أهلاً لمجد القلم ولا شرف البيان ... وإن الألم أساس النفع وأساس النجاح ومصدر العظمة بشرط ألا يكون نوعا من القلق العليل».

ويكرر القول في كتاباته: إن رسالة الأديب هي خلق ذوق الحياة ... ويقول: «لكل وطن روح ... وروح هذا الوطن هو رسالة القلم البليغ».

والآن مع زكي مبارك والقلم البليغ.

* * *

الحديد في دم الأديب(١)

في أخبار الأدب الفرنسي أن أديبا كان يكتب كل يوم قصة ويرسلها إلى إحدى الجرائد، وكان يتمنى في كل صباح أن تنشر له قصة فيأخذ عليها أجراً ينتفع به في معاشه، ولكن الجريدة التي كان يرسل إليها أقاصيصه لم تنشر له شيئاً، وكذلك كان يستقبل كل صباح بأمل خائب وإحساس مطعون(*).

واتفق له يوماً أن يتأمل أحوال البيت الذي يعيش فيه فوقف على أخبار طفل يتيم دمعت له عيناه؛ فكتب فيه أقصوصة سماها «اليتيم» وأرسلها إلى تلك الجريدة التي أهملت كل ما كتب، وكان يخشى أن تنال تلك الأقصوصة ما نالت أخواتها السوالف من الإهمال، ثم فوجىء بظهور تلك الأقصوصة في صباح اليوم التالي، وما كاد ينتهي من مراجعة الجريدة حتى جاءه خطاب فيه صك بمبلغ من المال مكافأة على قصته، وفي الخطاب فوق هذا كلمات من طيب الثناء، وأراد ذلك الأديب أن يحاسب نفسه وأن يقارن بين ما كتب بالأمس وما كتب اليوم، فرأى أن أقاصيص الأمس كانت من وحي الخيال، أما قصة اليوم فكانت من وحي الحياة، وهذا هو السر فيما ظفرت به من كريم القبول(**).

ولكم بعد هذا أن تراجعوا حظوظ من عرفتم من الأدباء، فسترون أن أبلغهم أثراً في أنفس الجماهير، وأقدرهم على أسر القلوب وغزو العقول، وامتلاك النفوس، هم الأدباء الذين ابتلتهم الحياة بصنوف الأرزاء، وعرفوا كيف تقسو الدنيا وكيف تلين، أولئك هم الذين يكتبون وفي كل حرف سر ظاهر أو غرض دفين.

---

١ - فصل من كتاب: أكواب الشهد والعلقم.

* - لم ينشر هذا الكتاب للآن وهو يعد حاليا للطبع.

** - نشرت هذه الكلمة في كتاب البدائع الجزء الثاني صفحة ٢٠٥.

أما الأدباء المدللون الذين حبتهم الدنيا بألوان من الترف والنعيم فهم ينظمون ويكتبون وكأنهم يلعبون، وليس للألاعيب في عالم الأدب بقاء.

الحياة هي كتاب الأديب، ومن حظه أن يعرف البؤس والشقاء وأن يدرك كيف يكون الضجر والاكتئاب، وأن يشهد بعينيه كيف يرتفع السفلة والأغبياء، وكيف يطيش الحظ الأهوج فيظلل بجناحيه رؤوس الممرورين من أهل الجاه المزيف والمجد المكذوب.

إن أراجيف المرجفين، وأكاذيب المضللين، وتنسك الماجنين وتعالم الجاهلين، واستنسار البغاث، واستذآب الكلاب، واستبسال الجبناء، كل أولئك مما يؤرث نيران الحقد في صدر الأديب الموهوب ويحوله إلى طاغية غشوم يبطش بأهل الكذب والرياء والنفاق.

والأديب الذي يتهيب الحياة ويخاف مجاهلها هو أديب رخو ضعيف ليس أهلاً لمجد القلم ولا شرف البيان.

الأدب الصادق ليس إلا حومة قتال، ولكن أي قتال؟ قتال في سبيل الحق والخير والجمال. والحياة لم تكن يوماً دار سلام، إنما السلام في المقابر، فمن شاء أن يستريح فليمت، أما الأحياء فقد كتب عليهم أن يناضلوا ويقاتلوا ويصاولوا ما بقي فيهم عرق ينبض وقلب يثور، فإن جنحوا للسلم فقد استسلموا إلى سكرات الموت، وبئس المصير!

أتفهمون هذا يا طلاب الأدب الفحل الذي يحطم الأسداد ويهدم الحصون؟

خذوا وحيكم من الحياة يا طلاب الأدب، وتذكروا دائماً أن وقود عقولكم وقلوبكم لا يكون إلا من الألم ومن الصدق، فإن أعوزكم هذان العنصران فلن تصلوا إلى شيء، وهل يصل الوادعون والكاذبون إلى حظ أفضل من حظ السيد فلان؟ إنه حظ لا أشتريه بخمسة قروش وإن بهركم ما يملك من الجاه ومن المال!

الأدب الصادق هو الذي يحمي صاحبه من بريق الزيف والبهرج، ويصونه من الخضوع لأرباب الألقاب؛ ويقنعه بأن المجد الحق لا يكون إلا في ظلال الشهامة والصدق، وشرف القول والفعل، وطهارة القلب والوجدان؛ وأديب واحد بهذه

الخلال أنفع لأمته ووطنه من آلوف العبيد الذين يلبسون ثياب السادة وهم أذلاء، ويتشدقون بأخبار الفضائل وهم في أنفسهم من أهل البغي والفسوق.

إن الأديب الحق هو الذي ينقل قراءه من ضلال إلى هدى؛ أو من هدى إلى ضلال هو الذي يبدد ما في أنفس قرائه من الأمن والسكون، ويشغلهم بعواطفهم ونوازعهم وأهوائهم، ويقيم الحرب بينهم وبين ما في قلوبهم من أصول الشر والخير والغدر والوفاء، لأن الأمن والسكون لم يكونا إلا من صور الجمود، ولو شئت لقلت من صور الموت، وإن غضب الفيلسوف فلان.

أكتب هذا وقد سئل فلان عني: فشاء له أدبه أن يقول: «إن مذهب زكي مبارك في الأدب سيفسد عشرة أجيال» وأنت يا هذا ما شأنك حتى تعاديني في سبيل ما سأفسد من الأجيال؟ إنك لرجل ميت، والعداوة بيني وبينك هي العداوة بين الموت والحياة، إن كان يستطيع الموت أن يعادي الحياة.

أنا الذي سيفسد عشرة أجيال؟ إذن ما بالكم تسرقون كل ما أكتب وكل ما أقول، إنكم لتنهبون مني كل شيء حتى الألفاظ والتعابير، ولو شئت لدللت الناس على آثاري فيما تكتبون وما تقولون وسترون إن امتدت الخصومة بيني وبينكم كيف أسقيكم كأس الهلاك وكيف أوردكم موارد الحتف وإن اعتصمتم بشاهقات البروج.

إن الذين يعادونني لا يعرفون عواقب ما يصنعون، إنهم لا يعرفون أن العداوات تمد دمي بفيض من قسوة الحديد، إنهم يجهلون أن الهدوء يفسد أمعائي ويحوجني إلى زيارة الطبيب، فأوغلوا ما شئتم في البغضاء فإن لي في ذلك مغانم كثيرة تصل على أيديكم بلا جزاء ولا ثواب.

وأنتم، ياقرائي؛ ما رأيكم؟ أترونني من الأشرار؟ وكيف وما كنت في حياتي باغيا ولا عاديا، لقد ابتدأت حياتي الأدبية بأناشيد الحب والجمال، ولو خلاني الناس وشأني لعشت بلبلا وديعاً لا يسمعون منه غير أنغام الحنين، ولكن لؤم اللئام حولني إلى إعصار عاصف يمحق ما يصادف من اليابس والأخضر. والطير والحيوان، ولا أذكر الإنسان فما سمعت بأخباره في هذا الزمان!

أما بعد فَلِلَّه نعمة في كل شيء، ومن أجل نعمه على الأديب أن يخلق له من المكاره ما يوقظ حسه، ويرهف وجدانه، ويقهره على حمل السيف. وقد جربت ذلك في نفسي وفي قلمي، وهل من القليل أن يشعر الرجل بأن حياته هول يقاسيه الخصوم في اليقظة والمنام؟

انظروا فسترون أن «فلانا» الذي ذكرته في هذا المقال سيفزع من أجله ألف فلان، فليس لي عدو واحد وإنما هم ألوف، وقد يكون أبعدهم عن البال هو الذي سيعاني أخطر الأهوال بعد قراءة هذا المقال فلا تجزع يا فلان فلست أعنيك، إنما أعني رجلاً غيرك يتجلد ويتصبر في بعض الأحيان.

فإن لم يكن بد من التخصيص - لتهدئة الرأي العام في صفوف الأعداء - فأنا أصرح بأنني لا أعني إلا ذلك الرجل الجليل الذي زعم لمحدثيه أن مذهب زكي مبارك في الأدب سيفسد عشرة أجيال، فإن لم ينزجر فسنرجع إليه باسمه الصريح (وفي هذا بلاغ لقوم يعقلون).

٢٥ يوليه سنة (١٩٣٥)

* * *

بين فصول الكتاب
وأيات الوجود

عزيزي القارىء :

كان المرحوم زكي مبارك يطالب الكاتب بأن يكتب من وحي الحياة أي من الحقيقة لا من الخيال فلما كان مراسلاً لجريدة البلاغ من باريس فماذا كتب .

يقول : «إنه حين ذهب إلى باريس للحصول على الدكتوراه عن أطروحته «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» كان يعيش على دنانير يرسلها إليه صاحب جريدة البلاغ عن مقالاته من باريس» .

يقول : «لم يكن أمامي إلا مسلك واحد هو الاندماج المطلق في باريس لأحدّث قراء البلاغ بأحاديث منتزعة من الحياة الواقعية في باريس وكان لا بد من معاقرة الحياة في باريس لأنجح في مراسلة البلاغ ... وهدتني الفطرة إلى قضاء أوقات الفراغ في الملاهي والمراقص والقهوات .

كنت أزرع باريس بقدمي لأخلق لمقالاتي جواً من الحقيقة لا من الخيال» .

وحول نفس الموضوع صفحة ١٢٠ على صفحات كتابه «ذكريات باريس» نقرأ تحت عنوان :

بين فصول الكتاب
وآيات الوجود

صديقي...

تسألني كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة، وتطلب بيان ذلك التعقيد؟ اسمع إذن هذه القصة ثم استنبط منها ما تشاء:

في مساء ١٤ يوليه الماضي، بعد أن تناولت العشاء، مضيت إلى شاطىء السين أنتظر الألعاب النارية مع آلاف المنتظرين. ثم بدا لي فجأة أنّي شهدت هذا الاحتفال في الأعوام الماضية، وأنه لن يكون فيه جديد، وأن من الخير أن أعود فأكتب صحيفة أو صحيفتين لأتقدم قليلاً في العمل الذي جئت له، ثم انحدرت إلى المنزل الذي أقيم فيه غير حافل بالحياة الضاحكة التي تحشر الناس في صعيد واحد ليرى بعضهم بعضا، وليجددوا ما بلي من آمالهم وأحلامهم حين يرون الجمال يزحف بجيوشه الجرارة ليفتح ما أغلق من نزوات القلوب ونزعات النفوس، وليروا أخيراً الأسهم النارية تعمل في الجو المطلق بعض ما تعمل العيون النواعس في أفئدة الشعراء(*).

عدت إلى المنزل، وأقبلت على مكتبي، ثم أدنيت الدواة والقلم والقرطاس، ولكني لم أكد أضع أول جملة حتى سمعت دويّ الأسهم النارية يخترق الفضاء، وسمعت تهليل المهللين وصياح الصائحين، والضحكات جميعاً من قوية تنبىء عن رجولة، ورقيقة متقطعة تكشف عن أُنوثة، ودارت بي الغرفة فلم أدر ماذا أكتب، وعزّ عليّ أن تنهزم إرادتي وأن أخرج ثانية للاشتراك في الاحتفال، وأخذت أُرهف

* - من كتاب «ذكريات باريس» ص ١٢٠.

العزيمة لأكتب شيئاً يعوض تلك الخسارة الفادحة التي مُنيت بها حين تركت أهل باريس يمرحون ويلعبون وتموج بهم لجج الحياة لأحبس نفسي طائعاً في غرفة مغلقة الأبواب بين ما أعجم واستبهم من مناظر الكتب والدفاتر والمحابر والأقلام والمذكرات.

ولكني لم أكتب شيئاً!

ثم خلعت ثيابي وألقيت بنفسي على السرير ذاهلاً حائر اللب ترميني قذائف التفكير من هنا وهناك. وتجمّعت في رأسي أسباب الثورة الفكرية التي تهاجمني وأهاجمها من حين إلى حين، وبدأت أمطر نفسي وأمطر العالم بوابل من الأسئلة المحرجة التي تقف أمامها النفس الإنسانية حيرَى مولّهة لا تدري كيف تجيب:

أنا تركت العالم يموج على شواطىء السين، ولكن لماذا؟..

لأقرأ كتاباً يتحدث عن العالم؟ ... هذا حمق وسفه. كيف أترك الحقيقة ثم أبحث عنها في ألفاف الخيال! ألأكْتب بحثا يشرح بعض حقائق العالم؟ كيف! وأنا أهرب من العالم لألجأ إلى القلم والكتاب والمصباح!

وانطلقتُ أفكر في أمثالي من الذين يتساموْن إلى شرح حقائق الحياة ونواميس الوجود وهم أسرى في منازلهم يخشون إذا همّوا بمشاهدة العالم أن ينالهم الابتذال. فكم من عالم مفكر - وتلك دعوى قديمة - يجلس في عقر بيته ليضع الشرائع للناس، وهو لا يعلم شيئاً عن غرائز الناس. في حين أن التشريع ليس إرادة فردية تؤيد بالأحكام العرفية، وإنما هو تنظيم وتهذيب للغرائز والميول والأهواء. وكم من فيلسوف - وتلك أيضاً دعوى قديمة - لا يعرف من الدنيا غير الكتب ولا يعرف من أهلها غير تراجم المؤلفين، وهو مع ذلك يرى نفسه أهلاً لوَضع الحقائق الباقية لسياسة الأمم والشعوب!

ثم ماذا؟

ثم تكون هذه النكبة الاجتماعية التي درج عليها الناس منذ أجيال، والتي تقضي بأن الجمهور لا يحترم الرجل الذي يشاركه في أسباب دنياه، وإنما يتصور العظمة محبوسة في أقفاص المكاتب والمعاهد والجامعات. وقديماً شك الناس في نبوة الأنبياء: لأنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما حدثنا القرآن.

أتجرحك يا صديقي هذه الملاحظات؟

معذرة إليك، فأنا رجل ثائر عنيف، وسأظل في ثورتي إلى أن أنتصر في حرب ما أمقت من نفاق التقاليد. وأستطيع أن أؤكد لك أن كثيراً من الأصنام التي تعبد في مصر والشرق ستحطم عما قريب، وسينشأ في مصر والشرق جيل جديد يبني أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات، وستهدم صروح العظمة التي تبنى على أساس التوقر والتحفظ، وخلق أسباب التبجيل، وفرض الاحترام بالأساليب الممجوجة التي تخلّى عنها الغرب وداسها بقدميه يوم رغب في شرف الحرية والإخاء والمساواة، ويوم فضّل الحقيقة المرة على الباطل المعسول؛ متى أشهد مصرعك ياعهد النفاق!

ثم كان مساء الأحد الماضي حيث يجري سباق السباحة في السين، وخرجت باريس برجالها ونسائها وشبابها وكهولها تحيِّي عظمة البساطة والخفة والسذاجة والرشاقة في أجسام السابحين، وخرجت أنا أيضاً هذه المرة بعد أن وضعت الكتب والمذكرات في الصوّان وأغلقته إغلاقا محكما ووضعت المفتاح تحت البساط لئلا يهجم عليّ كتاب فلسفة مثلاً فيحول بيني وبين الخروج!

يا لله! هذا شباب باريس يطوّق السين كما يطوق العقد جيد الحسناء. وهذا زحام مطبق لم يترك لمثلي موضع قدم، والناس ما بين شاب رشيق الحركة يتسلق الأشجار، وفتاة مترفة ترفع مرآتها لتنعكس عليها مناظر السابحين، وشاعر يرى ويشهد أسراب الحسان لتتم له أسباب الإبداع، وفيلسوف يرقب تطور الحياة الإنسانية وجها لوجه عن طريق المشاهدة لا كما يفعل أدعياء الفلسفة الذين ينزحون من بئر الغفلة والنسيان والذهول والسين؟

السين! قد تحول يا صديقي إلى أمواج من النور البنفسجي الجذاب، حتى حسبته قلبا يخفق بالمنى، أو مخدعاً يتناجى فيه عاشقان، وحسب السين ليلة من هذه الليالي في كل عام ليتيه على أنهار العالم جمعاء، وليظفر بمثل ما كان يظفر به النيل قديماً يوم كانت تزف إليه في كل عام فتاة هيفاء، والحسن في كل عصر خير ما يهدى وخير ما ينال.

وأنا؟ ... أتريد الصدق؟ لم تكن معي مرآة أرى في بياضها مشاهد السابحين، ولم أنشط إلى تسلّق الأشجار لأرى ما لا يراه الواقفون، ولم أجد مكاناً على الرصيف أشهد فيه مناظر السباق، وإنما اكتفيت بمشاهدة العالم الباريسي، وعدت مع ذلك إلى المنزل قبل أن ينتهي الاحتفال. أتدري لماذا؟ لأقرأ كتاب سبنسر في علم الاجتماع!

فإن شئت أن تعرف كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة فاذكر أنها ليست إلا حيرة مطبقة بين فصول الكتاب ومشاهد الوجود؟

باريس في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٩

من كتاب «ذكريات باريس ص ١٢٥»

* * *

الألم والحياة(*)

قرأت في «البلاغ» فقرة مترجمة جاء فيها أن شارلي شابلن قال:

«إن بعض الناس يدهشون لاصراري على الظهور في رواياتي بمظهر الشريد البائس المتألم، ولكن أليس في الألم كل معنى الجمال؟».

فتذكرت أنني قرأت لأناتول فرانس منذ أعوام كلمة نفيسة عن الألم وفضله على الحياة، فعدت إليه فرأيته يقول ما ترجمته بتصرف يسير:

«بين الوهم الدائم الذي يحيط بنا يبدو شيء واحد محقَّق: ذلك هو الألم، وهو حجر الزاوية في الحياة، وفوقه قام بناء الإنسانية، وكل شيء ما عداه وهم، وهو وحده اليقين... إننا نعرف أننا نتألم ولا نعرف شيئاً غير ذلك، وهنالك القاعدة التي بنى عليها الإنسان كل شيء. نعم فوق صخور الألم أقام الإنسان صرح الحب والشجاعة والبطولة والرحمة والفضائل والقوانين، ولو انعدم الألم لاسودت تلك الجوانب الجميلة من الحياة وسقطت في هاوية الفناء. وعند الإنسانية شعور مظلم بضرورة الألم، ومن أجل ذلك وضعت الحزن بين فضائل الأخيار والقديسين.. فما أسعد الذين يتألمون وما أشقى السعداء!، وقد عاش الإنجيل ألفي سنة في العالم لأنه زفر بصرخة الألم وأشاد بأحزان البائسين».

وقبل شارلي شابلن وأناتول فرانس كان ألفريد دي ميسيه يقول:

«الألم هو الذي يصيرنا عظماء».

فهل في ذلك شيء من الحق؟

---

* ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣١ من على صفحات كتاب «البدائع» الجزء الثاني ص ١٨.

الألم أساس النفع وأساس النجاح ومصدر العظمة، على شرط ألا يكون نوعاً من القلق العليل، فهناك ناس يستريحون إلى الحزن المبهم ويرون فيه لوناً من السلوة والعزاء، ومثل هذا الألم لا يصل بالمتألمين إلى ربح جزيل.

الألم النافع هو ألم الرجال. والرجل قد يتألم ولكنه لا يصرخ، وكم في العالم من رجال محزونين ولكنهم لا يفارقون الابتسام وهؤلاء يدركون معاني الحياة ويعرفون طعم السراء والضراء، وتكويهم المحن والخطوب، ولكنهم يستكبرون على الجزع والشكاية، ويرون الناس أصغر وأهون من أن ينتظر منهم الكريم كلمة رثاء.

الألم المشروع هو الألم في الحب: لأنه نوع من العطف والحنان؛ وهو كذلك نوع من الإشفاق على الجمال؛ والجمال أشقى الموجودات في العالم مهما استطال أهله ونشروا ألوية العتو والكبرياء، فالعاشق يحزن ويتألم، ولكنه في ألمه وحزنه قوي متين.

أما الألم في سبيل المجد فرذيلة، وليس للرجل أن يتألم حين يفوته الحظ اللائق به، ولكن عليه أن يحقد؛ وهذا هو الموطن الذي أرى الحقد فيه فضيلة، وحاشى للقارىء أن يظن أني أدعو إلى الحقد السافل الذي يتسلح به الجبناء والأوغاد، إنما أدعو إلى الحقد الشريف الذي يفرض على أصحابه أن يستعدوا لكبت خصومهم في ميادين الجد والنضال والكفاح. وهل هناك حظ أطيب وأشرف من أن تشعر خصمك بأنك أقوى منه نفسا وأشد مراسا وأصلب عودا؟ إن ذلك لهو الفوز المبين.

* * *

رسالة الأديب(*)

رسالة الأديب - كلام قد ينفع - الخلوة إلى القلب

في أحد الأعداد الأخيرة من مجلة الجمهور البيروتية كتب الأستاذ إلياس أبو شبكة كلمة في السؤال عما ترك شوقي وجبران من التوجيهات النافعة في السياسة القومية، وهو ينتظر أن يجود الجيل الجديد بأدباء قادرين على خلق تلك التوجيهات.

وفي العدد الأخير من مجلة المصور القاهرية كتب الأستاذ فكري أباظة يقول: إن قصيدة ستالينجراد للشاعر علي محمود طه هزته هزاً؛ وهو يرجو أن يعود الشعراء المصريون إلى التغني بالقومية والوطنية، ولا سيما العقاد ومطران.

وأقول: إن من رسالة الأديب أن يتجه إلى آمال وطنه من حين إلى حين، أو في كل حين، وفقاً لما يجيش بصدره من نوازع وميول، ولكن من العقوق للأديب أن نجحد فضله إذا لم يجعل الآمال الوطنية قِبلته في جميع الأحايين.

والقول الفصل في هذه القضية أن رسالة الأديب هي خلق ذوق الحياة، فمن الواجب أن تتجه مراميه جميعاً إلى ذلك الخلق في أي صورة، وعلى أيّ شكل. وقد قلت مرات: إن الأديب الحق هو الذي يستطيع بقلمه أن ينقلك من ضلال إلى هُدًى أو من هُدًى إلى ضلال. والمهم عندي أن يقدر الأديب على خلق الفتن الروحية والذوقية والعقلية، بحيث تخرج من صحبته بمحصول جديد من القلق أو الاطمئنان. ولو كانت غاية الأدب أن يرسم لنا خطط المستقبل لوجب أن نترك الشعراء القدماء، لأن أدبهم يعجز عن توجيه الجيل الجديد، ولأنه من هذه الناحية أعجز من أدب شوقي وأدب جبران.

* - مجلة الرسالة العدد (٥٠٤) أول مارس سنة (١٩٤٣).

أشعار المعري لا تنفع القومية بشيء، القومية في مدلولها الحديث، ولو شئت لقلت إنها كانت أذىً على قومية ذلك الزمان، لأن منحاها يتجه إلى الهدم لا إلى البناء، ولكن قراءة أشعار المعري تنفع في تقوية الذاتية، وتروض القارىء على الاعتداد بالنفس، وتثيره على الرياء الاجتماعي. وثمرات هذا الأدب لا تقل قيمة عن ثمرات الأدب الذي يرينا كيف نواجه مشكلات العصر الجديد.

رسالة الأديب هي خلق ذوق الحياة، أو هي نصر الحياة على الموت، والقليل من هذه الرسالة في هذا الاتجاه يصنع الأعاجيب في إحياء الممالك والشعوب.

* * *

كلام قد ينفع

صديقي ...

لم يبق بدٌّ من توجيه نظرك إلى أشياء خفيتْ عليك عدداً من السنين، واستوجبت أن أزهد في لقائك، برغم ما بيني وبينك من وداد عجزت عن محوه الأيام. هي أشياء تملني منك، فتصرفني عنك، وتجعل محضرك أثقل من الحديث المعاد.

أنت يا صديقي مغرم بالسؤال عما لا يعنيك من شؤون الناس، ولا سيما الموظفين، كأنك تتوهم أن أعمالي تنحصر في استقصاء الدقائق والخفايا من أحوال الزملاء، وكأن الحياة عندي وعندك قيلٌ وقال، وبحثٌ وسؤال، مع أنك تعرف جيداً أني لم أسألك يوماً عن شأن من شؤونك، إلا أن تتلطف أنت فتستشيرني في بعض المعضلات من أحوال دنياك، ثم تكون النتيجة أن أنسى ما أفضيت به إليّ بعد لحظات قصار أو طوال.

يجب أن تكون شواغلنا الحقيقية مقصورة على ما ينفع، ولا نفع في استقصاء أحوال الناس، إلا في الحدود المتصلة بالمعاملات، ثم يمضي كلٌّ إلى سبيله المرسوم في طلب الرزق أو المجد، بلا التفات إلى الفضول الذي لا يتشهاه غير صغار العقول.

ومن أثقل ما يضجرني منك حرصك في كل لقاء على تذكيري بالتقصير في

حق نفسي من الوجهة الدنيوية، وأنا أبغض من يبصّرني بأمور دنياي، لأني رسمت لحياتي كلها خطة لا أحيد عنها في أي وقت، وهي الظفر بأكبر نصيب من أنصبة الفكر والرأي. وهذا هو السبب في أن تكون أوقاتي كلها مشغولة برياضيات ذهنية وعقلية وروحية، وهو أيضاً السبب في طول الخلوة إلى القلم، بحيث لا يمضي يوم يجوز نعته بالفراغ، ولو كان من أيام الأعياد.

والغريب أنك لا تساجلني فيما أكتب، ولا تحاول تنبيهي إلى ما يغيب عني، وإنما تسأل دائماً عما سأجني من الأدب، وتحاول بالتصريح أو التلميح أن تفهمني أن كل شيء ما خلا المالَ ضياع في ضياع!

وأنا لا أزهد في المال ولا أدعو إلى الزهد فيه، ولكني أفهم أن الغِنى بالنسبة إلى أهل العلم والأدب غِنىً محدود، وينبغي أن يظل كذلك، لتبقي لأهل العلم والأدب أشواق إلى المعاني، وليتحرروا من أسر الغنى الفضفاض، فله شواغل تحدّ من وثبات العقول، وسبَحات الأرواح، وخطرات القلوب.

ليس لي بصديق من يختار لي غير ما اخترت لنفسي، وأنت تخذّلني تخذيلاً فظيعاً كلما لقيتني، لأنك تحاول تهوين نعمة الله في قلبي، وأنا أعتقد أني من الذين منّ الله عليهم بنعمة التوفيق، فله الحمد وعليه الثناء.

أتريد الحق؟

الحق أنك تحاول الدفاع عن كسلك بأسلوب ملفوف، فأنت تهون من شأن الجهاد الأدبي بحجة أنه قليل الربح، وتلك حجة واهية، فللجهاد الأدبي أرباح أيسرها الشعور بقيمة الجهاد، ولو كان لي أملٌ في تقويمك لذكّرتك للمرة الأولى بعد الألف بأن حياتك صارت غاية في الهُزال، وأنك لا تستحق اللقمة التي تأكل، ولا الخرقة التي تلبس، وما أنفقه أهلك وأنفقته الدولة في تعليمك وتثقيفك قد ضاع إلى آخر الزمان.

عندك ألقاب علمية، وبيدك وظيفة رسمية، ولكنك على نفسك وعلى الوطن بلاء.

كيف يجوز أن تمرّ أيام وأسابيع وشهور وأعوام ولا نقرأ لك بحثاً جيداً أو غير

جيد، ولا نسمع من أخبارك غير البراعة في تسقُّط أخبار الناس، ولا نلقاك إلا في القهوة إن أردنا أن نلقاك، ولا نأخذ عنك غير المعلومات السخيفة عن الدرجات والترقيات؟ وكيف يكون كل همك أن تسألني عما بيني وبين الرؤساء من صلات، ولا يخطر في بالك أن تسألني عما بيني وبين الله من صلات؟

وتعيب عليّ أن أقضي أيامي في نضال وصيال، فما الذي غنمت أنت من قضاء دهرك في التلطُّف والتظرُّف، بمصانعة هذا ومجاملة ذاك؟

ما تذكرت ماضيك إلا تحسَّرتُ وتفجعت، فقد كنت فتى مرجو المخايل، وكان جهادك في طلب العلم مضرب الأمثال، فكيف وقع حجر الخمود فوق رأسك فشطره شطرين، شطراً للنميمة وشطراً للاغتياب؟

وأنا مع هذا أحبك وأحفظ عهدك، ولكن كيف أتقي شرك، يا شرِّير؟

إن لقاءك يؤذيني أعنف الإيذاء، لأنه يريبني في العدل، فما يجوز لمن يكون في مثل حالك من تعطيل مواهبه الأساسية أن يجد القوت.

ارتع والعب، فإن الرزق لا يفوت السوائم المهملات!

صديقي!

لا تفكر في لقائي بعد اليوم، إلا أن تغيِّر ما بنفسك، فترجع فتى كالذي عهدت، فتى يعتمد على الله لا على الناس، ويؤمن بأن الله لا يرفع أحداً بغير حق، لأنه يضع الموازين في جميع الشؤون، بحيث يمكن القول بأن المصادفة لا مكان لها في الوجود.

أتراني ألقاك مع الرجاء لا مع الخوف؟

أنا أخاف من لقائك لأنك تخذلني وتعوقني، أيها العالم الجبان!

لطف الله بي وبك، وهداني وهداك!

* * *

الخلوة إلى القلب

لا أدري كيف صرت إلى ما صرت إليه من الزهد في لقاء الناس، أو لعلني أدري، فقد صرت لا أفكر في لقاء صاحب أو صديق الا إذا وثقت بأن لقاءه يوحي إلى القلب أشياء.

وهل يتسع الوقت لمسامرة من لا يوحون بشيء؟

إن الحياة أقصر من أن نضيعها في مصاحبة الموسومين بالغباوة والجهل.

الصديق الذي أجالسه فيثير في نفسي الشوق إلى امتشاق القلم لتدوين بعض المعاني هو الصديق، وأنا أرحب بلقائه في كل حين.

والأصل في الصديق أن يكون على مثال القلب، فتحاوره كما تحاور قلبك بلا تحفظ ولا احتراس، عندئذ يتفتح القلب عن مكتونات يبدعها الحوار اللطيف.

ومن أدبي في حياتي أن أحرص أشد الحرص على أصدقائي، وأن أتعصب لهم بحق وبغير حق، وأن أنتهز الفرص للحديث عنهم ولو في صورة الملام، وكان ذلك لأنني أومن بأن من حق من وثقوا بنا فصادقونا أن نبذل في البر بهم ما نملك من كلمة الخير، وهي كلمة لا يضن بها غير المفطورين على الشح اللئيم.

والخلوة إلى القلب، أو إلى الصديق الذي بمنزلة القلب، هي فرصة الوحي الأدبي، وهذه الخلوة كانت السبب الأصيل في تفوق الأدباء القدماء.

وهل ننسى أن الأنبياء لم يتلقوا الوحي إلا في أعقاب الخلوات إلى القلوب؟

أقول هذا لأشرح السبب في قلة الشعر بجميع البلاد في هذا العهد، فالشعر لا يكون إلا بالغناء، ولا يتيسر الغناء مع الضجيج.

إن أحلام القلوب لا تجمع بسهولة، وكيف وهي في شرود الأوابد؟ إن للقلب أعماقاً أبعد غوراً من أعماق المحيط، وستكتشف جميع المجاهيل قبل أن تكتشف سرائر القلوب.

يجب على الكاتب أن يخلو إلى قلبه لحظات من كل يوم، عساه يعرف بعض الملامح من سريرة القلب والروح.

لا يفرح برؤية الناس والأنهار والبحار والمزارع والبساتين إلا من يعجز عن رؤية هذه الخلائق فوق ساحة القلب.

فمتى نكون من أرباب القلوب؟

متى؟ ثم متى؟

إن انتظارنا سيطول!

❊ ❊ ❊

بين الحب والاعجاب

الصلة بين الكاتب والقارىء منوَّعة الألوان، فهنالك كاتب يحبه القارىء، وكاتب يعجب به القارىء، وكاتب يظفر بالحب والإعجاب.

ومَرَدُّ الأمر إلى ذاتية الكاتب، فإن كان أدبُه أدب وجدان فهو جدير بالحب، وإن كان أدبه أدب ذكاء فهو خليق بالإعجاب، وإن جمع بين الوجدان والذكاء فهو الكاتب المنشود، وهو الذاتية الكاملة فيما يرى أصحاب الأذواق وأرباب العقول.

والظاهر أن الأدب الحق يأخذ زاده من الذكاء ومن الوجدان، فإن خلا من أحد هذين الزادين فهو عُرضة للضعف، وإن خلا منهما معاً فهو إلى فناء.

وقد يظن بعض الناس أن الذكاء والوجدان من المواهب الثوابت، وأن من حق الموهوبين أن يتكلموا حين يريدون. وهذا توهم، فما يستطيع أعظم عقل أو أكبر قلب أن يجود بالمعاني في كل وقت، وإنما هي بوارق تَصدرُ عن العقل والقلب من حين إلى أحايين.

ومع هذا فمن المؤكد عندي أن العقول تُراض وأن القلوب تُراض، ولكن كيف؟

هنالك أغذية لا يعرفها مؤتمر الأغذية، وهي التأملات في دقائق الفروق بين الحيوات الحسية والمعنوية، وهي فروق لطاف لا يدركها غير قلب الأديب وعقل الفيلسوف.

والظاهر أيضاً أنه لا بد من التزود بما سميته «الحاسّة الفنية» وهي حاسة لا توهب لجميع الناس، وإنما يختص الله بها من يشاء، وإلا فكيف جاز أن يكون النوابغ في كل أمة آحاداً وإن زاد أبناؤها على عشرات الملايين؟

إن الوجود كتابٌ مفتوح، ولكنه لا يُقرأ بسهولة، ولا يجتلي أسرارَه غيرُ أفراد، فكيف نصل إلى لُبابه المكنون؟

أعتقد أن مسئوليتنا نحو أنفسنا خطيرة، فنحن نضيع فرص التأمل، ونحن نَتَهيَّبُ ما يُغضب المجتمع، ونحن نجعل السلامة شارة النصر المُبين.

الأصل في الأدب أن يكون ثورة عقلية وذوقية، والأصل في طبيعة الأديب أن تكون قوة موحية، قوة تُعطي وتَمنح، وعنها تصدر أقباس الفكر وألوان الخيال.

وليس معنى هذا أن يعيش الأديب عيش المحادَّة للمجتمع، فالمحادّة المقصودة عناد بغيض، ولكن معناه أن يستقل الأديب عن الموحيات الخارجية، موحيات الظروف، بصورة تجعل أدبه من وحي الخلود.

ويظن ناسٌ أن الكاتب المحبوب هو الذي يحدّث قراءه عما يألفون، وهذا خطأ في خطأ وإنما الكاتب المحبوب هو الذي يمضي بقرائه إلى شِعاب من الفكر والروح والوجدان لا يصلون إليها بغير دليل. فمن غفلة بعض الكاتبين أن يأنسوا إلى العامية الفكرية، عامية الرأي المبذول بغير حساب على اختلاف عهود التاريخ. وما قيمة الكاتب إن لم يُشعر القارىء بأنه هداه إلى أفق جديد من آفاق العقل والروح، ولو بلمحة سانحة في أثناء الحديث؟

يجب أن تكون للكاتب ذاتية عقلية وروحية، عساه يخلُق في القارىء وجداناً يحس به حقائق الوجود، فليس بكاتب ولا مفكر من يكون محصوله نُفَاضة من أضابير زهد فيها العنكبوت.

والأدب عند كل أمة وفي كل عهد سموٌّ وعَلَاء، أو هو التعبير الصحيح عن المطامح الكريمة في السمو والعلاء، ولهذا كان من أساسه الأصيلة أن يكون طريف الفكرة جميل الأسلوب.

وليس المراد من طرافة الفكرة أن تكون رأياً لم يسمع بمثله الناس، لا، وإنما المراد أن يكون تعبير الكاتب عنها تعبيراً ذاتياً يجعلها من الطريف، بحيث لو تحدث عنها غيره لعُدَّت من الحديث المعاد.

أما جمال الأسلوب فله عندي مقياس يخالف المعروف من المقاييس، والكاتب صاحب الأسلوب في نظري هو الكاتب الذي يشغلك بنفسك حين يوجه

إليك الحديث، ومعنى هذا أن تبرز الفكرة بصورة قَهّارة ينسى فيها القارىء أنه في صحبة كاتب، ولا يدرك إلا أنه يواجه معضلات يعترك فيها العقل والوجدان. وهذه البراعة لا تتفق للكاتب ولا تنصاع إليه إلا بعد أن يكون إماما في لغته، إمامة صحيحة كونتها الرياضات الطوال على الأداء المبين بالأسلوب الرشيق.

* * *

أيضاً عن الإعجاب المتبادل بين الكاتب والقارىء يكتب زكي مبارك على صفحات كتابه: «ذكريات باريس»(*) موجها كلامه للأديب الكبير الأستاذ محمد السباعي تحت عنوان: «الأدب والحياة» فيقول:

إني أردت أن أوجه إليك هذه الرسالة لأبين لك أن القارىء والكاتب قد يتوافقان وقد يتنافران، فلا تنتظر أن يوافقك القراء جميعاً، أو يخالفوك جميعاً، لأنك وإياهم تستمدون حماستكم من الحياة. وأنت رجل تدل آثارك الأدبية على أنك فهمت كيف يطيب العيش، وعرّفت أن الأديب يجب أن تكون له حوادث يرويها قبل أن يُشْغَل برواية حوادث الناس. فهل تظن أن الناس جميعاً يجب أن يستطيبوا ما تكتب في حين لم يقدر لهم جميعاً أن يعيشوا كما عشت، وأن يفهموا كيف يكون نعيم الحواس!

على أنه لو كان يُنتظر من كل كاتب أن يرضي جميع القراء لتقصفت مئات الأقلام. والعقل يفرض علينا أن نطمئن إلى أن قراءنا لهم ألوف مؤلفة من الأهواء والميول والأذواق.

فإن أزعجك أن ينصرف عنك قارىء لأنه يواجه الحياة بذوق غير ذوقك، فثق أن هناك من يُقبل عليك وينتظر؛ لأنك تحدثه عن نفسه حين تتحدث عن نفسك. ولعلك تدرك تمام الإدراك أن الأديب العبقري يجب أن يكون في شغل بفنه وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون.

فعلى البلبل أن يغرد حيث يطيب له التغريد، وليس عليه أن يفتن صُمَّ الآذان أو غُلْفَ القلوب.

* * *

---

* الطبعة الأولى ص ١٥٦ و ١٥٧.

بين الصنعة والطبع(*)

إذا كتبتَ خطاباً في المساء فاتركه بلا تظريف، لتسهُل مراجعته في الصباح، ولتبقى الفرصة للحذف منه أو الإضافة إليه، فمن المؤكد أن للرأي موجات تختلف باختلاف الأوقات. وقد تُنكر في بياض الصبح، بعض ما كتبت في سواد الليل. وأنت عن تموُّجات رأيك مسئول.

كذلك أصنع في خطاباتي ومقالاتي لهذا العهد، ولم أكن أصنع ذلك من قبل. وإن زمناً يكفُّ من جُموحي لهو ألأم الأزمان!

ما كنت أعرف الفرق بين التسويد والتبييض، ولا كنت أستبيح معاونة الصنعة على مغالبة الطبع، وكنت أعجب حين أسمع أن في الكتَّاب من ينسخ مقاله مرات قبل أن يطمئنّ إلى صلاحيته لمواجهة القراء.

كان رأيي أن جري القلم في القرطاس هو جري الجواد في الميدان... وللقلم أن يتلفت قبل إصابة الهدف، إن كان للجواد أن يتلفت قبل بلوغ الغرض... ومن المحال أن يتلفت الجواد حين ينطلق في ميدان السباق، أو ميدان القتال.

وهذا المذهب في رياضة القلم هو الذي عرَّضني لكثير من الجراح، لأني لا أملك صده حين ينطلق، وهل يملك الجواد مجانبة العثرات حين ينطلق؟

فما بال الأقدار تروضني بعد الجموح، وتفرض علي أن أتلفَّت ذات اليمين وذات الشمال وأنا أجري في ميدان البيان؟

وما هذا الذي أعاني من زماني؟

أليس من المزعج أن أصبح من مخاطر القلم في أمان، لأن الظروف توجب أن يراعي قلمي أشياء لا يراعيها الجواد حين ينطلق في الميدان؟

وما قيمة الحياة الأدبية إذا خلت من المخاطر والمهالك والحتوف؟

(*) مجلة الرسالة ٢٠/ ٧/ ٤٢.

أنا لا أعدّ الكاتب فارساً إلا إذا استطاع بكل سطر، أو بكل حرف، أن يعرض قراءه إلى الاشتباك في حروب مع المعاني والآراء والأهواء.

فأين أنا مما أريد؟

وأين الفرص التي تسمح بأن أجرّد من قلمي مشرطَ الغشاوة عن أعين أبناء الزمان؟

أنا اليوم أضمن السلامة من جرائر قلمي، كارهاً غير طائع، لأن النظام في هذه الأيام يصدّ الأقلام عن عنت الجموح والطغيان.

قلمي!

كيف مرّت شهور بلا جراح يُدميها سنانُك؟

وكيف أَمنتُ شرّك، ونجوت من طغيانك؟

كيف وكيفَ؟؟

بيني وبينك ميعاد وميثاق، والأحرار لا يخلفون المواعيد، ولا ينقضون المواثيق.

* * *

وعلى صفحات الرسالة أيضاً بتاريخ ٤/ ١/ ١٩٤٣ تحدث حول المقالات التي لا يمكن للكاتب نشرها...

وذلك من رده على خطاب وصل إليه، ويستهل كلمته بقوله:

ثم ماذا؟ ثم يبقى جواب الخطاب الوارد من «الأرمان» فماذا يريد ذلك الخطاب؟

هو يريد أن تكون مقالاتي كلها على غِرار «دار الهوى في عيد القمر»، فأين أنا مما يريد؟ وأين الأعصاب التي تستطيع تدبيج تلك الأحاسيس في كل أسبوع؟

أمام عينيَّ وبين يديّ أرواحٌ موقوذة هي المقالات التي سطرتها بدمي، ولا أستطيع نشرها بأي حال، لأنها تخالف المألوف من تقاليد هذا الزمان.

ثم يحاسبني ذلك الخطاب على هفوات قلمي، كأنه يجهل أني أمتشق القلم في كل مساء، وأني أراود أبكار المعاني في يقظتي ومنامي.

أما بعد فهذه ليلة الميلاد، وقد قضيتُها وحيداً فريداً لأتقي الله في نفسي فلا أعرضها لشواجر الأرواح وعواطف القلوب.

وقد بقيتْ ليلة ستأتي بعد ليال، وهي ليلة العام الجديد، وأغلب الظن أني سأحرّم نعيمها على نفسي، لأني نذرت التبتل بعد فراق من تلقيت عنهم وحي الروح في اللحظة التي تَفصِل بين العام الذاهب والعام الوليد.

ما جزَعي على ما مضى من أيامي، ولم يعش أحد كما عشت ولا استجاب الوجود لنداء شاعر كما استجاب لندائي؟

ماذا صنع الدهر بهم؟ ماذا صنع؟

إن دنياي بعدهم وهمٌ في وهم، وخيالٌ في خيال، وان أتذوّق طِيب الحياة إلا بعد أن يصفحوا عني.

إن ذنبي عندهم أني صيرت حياتهم أفانين من الارتياع والانزعاج... فهل يجهلون ما صنعوا بحياتي؟ وهل يجهلون أن الجروح قِصاص؟

قد كان لي قبلكم حبٌّ وكنت فتى
لظل سلطانِه أهلُ الهوى تَبَعُ

فكيف أشقيتموني كيف لا رَضِيَتْ
ولا أرتني الليالي كيف أرتدعُ

هبُّوا فؤادي سلا واجتاز محنتهُ
فمن بسلوة قلب الصب ينتفع

يا غاضبين تعالَوْا تشهدوا كبداً
رجاؤها في خيال البرء منقطع

هوىً تهاوت أمانيه فليس لهُ
فيما تجود به الأوهام مُنتفَع

هوىً خلقتم وأفنيتم، ولا عجبٌ
بعض الأحباء في قتل الهوى صَنَعُ

لا تحسبوا هجركم خطباً يروّعني
إني بوأد بنات الدهر مضطلعُ

زكي مبارك

منهاج الذاتية الأدبية

صديقي ... (*)

كتبت إليّ تسأل عن المراد من «الذاتية الأدبية» وهي كلمة يكثُر ورودها على سنان قلمي، ثم تدعوني إلى رسم المنهاج، إن كان لها منهاج.

وأجيب بأن الذاتية الأدبية هي أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول، بحيث يشعر من يقرأ لك، أو يستمع إليك، أنك تنقل عن قلبك وضميرك، وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك، وأنك لو نشرت مقالاً بدون إمضاء لنمَّ عليك الروح قبل أن ينمّ عليك الأسلوب، فإن الأساليب قد تتشابه في كثير من الأحايين تشابهاً يسمح بإضافة آثار كاتب إلى كاتب، أو شاعر إلى شاعر، أو مؤلف إلى مؤلف، عند طيّ الأسماء.

أما التشابه في الأرواح فهو نادر الوجود، ولعله لا يقع إلا عند ضعف الأرواح، كما تتشابه الغرائز أو تتماثل عند صغار الطير والحيوان.

ولتوضيح هذه النظرية أذكّرك بمعلقة امرىء القيس ومعلقة لبيد، فمعلقة امرىء القيس يمكن أن تضاف إلى غيره من الشعراء، ويمكن لأيّ شاعر أن ينظم مثلها بلا عناء، أما معلقة لبيد فهي شعر لبيد، ولن يحاكيه فيها شاعر، ولو قضى العمر في رياضة النفس على الاقتداء.

وبفهم هذه النظرية تتضح مشكلةٌ عجز عن حلها من تحدثوا عن المنحول من الشعر الجاهلي، لأنهم يبنون أحكامهم على الأساليب لا على الأرواح؛ فرقّة الأسلوب هي عندهم خَصيصة حضرية، وجزالة الأسلوب خَصيصة بدوية، وعلى هذا يقاس، كما صنع سعادة الدكتور طه بك حسين.

---

* مجلة الرسالة العدد ٤٧٩ بتاريخ ٧/ ٩/ ٤٢.

الروح هو الأصل في تقدير القِيم الأدبية، وعن الروح يتفرع الأسلوب. ولو شئت لقلت إن لكل كاتب أساليب تختلف باختلاف مقامات الإنشاء، كما تختلف نظرات العيون باختلاف مقامات الحديث، وكما تختلف نبرات الأصوات لمثل تلك الأسباب، ثم يبقى الروح الذي يدل على صاحبه في جميع الحالات بلا استثناء.

فانظر أين أنت من هذه الحدود: أينمّ عليك روحك؟ أينمّ عليك أسلوبك؟ أتنمّ عليك التبعيّة الذليلة في الروح والأسلوب لأحد الكتّاب أو أحد الشعراء.

انظر أين أنت، فأنا أحب أن أعرفك بالروح قبل أن أعرفك بالأسلوب، وافهمْ جيداً أنه لا قيمة لأديب بلا روح، روح أصيل تعرفه بسيماه، ولو أقبل عليك ملثّماً مع ألوف من الأرواح.

هل قرأت سورة يوسف؟

في تلك السورة الكريمة آيةٌ صريحة في أن يعقوب وجد ريح يوسف قبل أن يصل القميص، وأنه شفُي من عماه عند وصول القميص.

فهل تفهم المراد من هذا الرمز الطريف؟

هل تفهم كيف يدرك الأعمى أشياء بطريق لاسمع فيه ولا لمس؟

هذا هو الروح الذي أُحب أن تلتفت إليه في حياتك الأدبية؛ الروح الذي يدل عليك من أول سطر، أو من أول حرف، قبل أن يرى القارىء اسمك في خاتمة مقالك، فإن وصلت إلى هذا فأنت من أصحاب الذاتية.

ولكن كيف تصل؟

هنا يبدأ الحديث عن المنهاج:

يجب أولاً أن تحرر عقلك وقلبك وروحك من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل. ومعنى هذه الوصية أنه يجب أن تنظر في جميع الأشياء وجميع المعاني نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوك ولو كانوا من أعاظم الرجال، لأن الغرض هو أن تصبح روحك جارحة من الجوارح، وهي لا تصير كذلك إلا إن عودتها الفهم والإدراك بلا وسيط. وهل تكون الروح أقل قيمةً من الرّجل، يا بني آدم، والرجل لا تمشي إلا إن عودناها المشي؟

وإذا كان علم السباحة لا يُعْرف بالوصف، وإنما يُعْرَف بالتدريب على مغالبة الماء في أيام أو أسابيع، فَعِلْمُ الروح لا يُدْرك بالوصف، وإنما يدرَك بتدريب الروح على التذوُّق والتفهم في أعوام أو أزمان.

أراد سابحٌ عبور النيل فغرق، وأراد سابحٌ عبور المانش فنجح، مع أن السابحين توأمان. فكيف نجح هذا وغرق ذاك؟

يرجع الفرق إلى اختلاف التمرين والتدريب. وما يقال في القوة الجسمية يقال في القوة الروحية. فعاودْ روحك بالتمرين والتدريب في كل وقت، واحفظها من الغفلة عن إدراك دقائق الفروق بين الأشياء والمعاني، وعوِّدها التفكير في جميع ما ترى عيناك، وما تسمع أذناك، وما يهجس به الخاطر في اليقظة أو في المنام، فالنوم كلمة سوقية وليس له مع حياة الروح وجود.

إن عملت بهذه الوصية عاماً أو عامين ظفرت حتماً بالحاسة الذوقية، وهي مفتاح الظفر بالذاتية الأدبية، فتوكلْ على الله وابدأ من هذا اليوم.

ويجب ثانياً أن توطّن النفس على الغُربة الأبدية، ولو كنت في دارك وبين أهلك، فالمفكرون في جميع العصور غرباء.

لن يكون لك ظهير غير قلمك، ولن يكون لك نصير غير روحك، فاعرف أين تضع قدمك قبل أن تخاطر بنفسك فتصحب رجال القلم البليغ.

إن صُحبتنا متعبة ومضنية ومؤذية، لأن طريقنا أشواك من تحتها أشواك، وقد رحّبنا بالظمأ والجوع، وبما هو أفتك من الظمأ والجوع، في سبيل الذاتية الأدبية، فانظر كيف تصنع إذا ضَعُفتَ عن السير في بداية الطريق، أو في منتصف الطريق، طريق الموت أو الخلود.

أرحمك فأنهاك عن الاحتراق بنار الأدب، وليتني وجدت من ينهاني قبل أن أحترق!

إن صريع الأمواج يجد من يمدّ له يد الإنقاذ والإغاثة، أما صريع النيران فلا منقذ له ولا مغيث، ونحن صرعى النيران لا الأمواج.

إن اللصوص يتعاطفون فلا يشهد بعضهم على بعض، ولا يكيد أحدهم لأخيه، ولسنا لصوصاً حتى نعدِك ونُمنِّيك، وإنما نحن أدباء يكتب أحدنا لزميله صحيفة الاتهام، بلا تروٍّ ولا استحياء.

ارجع قبل أن تحترق، أيها الخاطب لما يسمُّونه الأدب الرفيع ولو أنني أملك الرجوع لرجعت، فارجع أنت قبل أن يصعب عليك الرجوع، وقبل أن تصير الاستغاثة فوق ما تطيق.

كان شيخنا العظيم «عبد الحميد بن يحيى الكاتب» زوّدنا بنصائح تحفظ كرامة رجال الأقلام، فهل سمعنا وأطعنا؟ هيهات ثم هيهات!

لا يخدعنْك السراب الخدَّاع فتتوهم أن احتراف الأدب أنفع من الاتجار بالتراب، ولا تُطِع المضللين من أدعياء الأدب إلا إن ارتضيت إطاعة الشياطين.

لقد نصحتُك ونصحتك ثم نصحتك، فإن رأيت أن هذا النصح لم يؤثِّر في نفسك. ولم يبعدك عن عزمك، فأقبلْ ثم أقبلْ على الاحتراق باللهب المقدس، لهب الأدب، فنحن وحدَنا الأحياء، ونحن وحدَنا الخالدون، ولأعدائنا الموت والفناء!

إنَّ كلمةً تُضَمُّ إلى كلمة في ذكاء ولَوْذَعية أشرف وأعظم وأنفع من كنوز تضاف إلى كنوز؛ وإن وجود الله بالفكر والروح على من يصطفيهم من عباده، لهو أطيب الهبات، وأكرم الأرزاق.

أقسمَ اللهُ بالقلم، ولم يُقسم بالمال، ونحن بالله مؤمنون!

هل رأيت اللهَ تخلَّى عن أديب سليم القلب قويّ الروح؟

لقد خرج المتنبي هارباً من مصر في ليلة عيد، فكم أُلوفاً من الدنانير أنفقت مصر في تعليم أبنائها حكمة المتنبي؟

وقد مات محمد عبدة بعلَّة أورثه إياها عقوق معاصريه، فكم أُلوفاً من النفوس حاولت التشرف بأنَّها رأتْه قبل أن يموت؟

وعانى مصطفى كامل الكاتب والخطيب أشتات التهم الأواثم، ثم كان من خصومه وحاسديه ومبغضيه من اشترك في صنع التمثال.

ومرّتْ آلاف السنين، والناس جميعاً يستوحشون من الليل، فكان غناء المصريين: يا ليل ... يا ليل!!

صديقي:

أتُراني شرحت المراد من الذاتية الأدبية، ثم رسمت لك المنهاج؟

هذه ومضة من ومضات، وسأرجع إلى إرشادك بالتفصيل، حين أطمئن إلى أنك أحدُ الأوفياء بالعهود.

* * *

ويعود زكي مبارك إلى الكتابة مرة أخرى فيقول تحت عنوان: «الذاتية»: على صفحات جريدة البلاغ في ٥/ ١٢/ ١٩٤٥:

«الذاتية هي أن تكون أنت، أنت، فلا تكون صورة من غيرك، لا صورة من أبيك أو أخيك، وإنما تكون أنت أنت ...

إن في صورتك ذخائر من المعاني الدفينة، ذخائر تخفى عليك، لأنك لا تبحث ولا تفكر ولا تتأمل ولا تحاول التعرف إلى ما في صدرك من الكنوز الغوالي.

لو أقام الله ميزانا لمحاسبتك لكان مصيرك إلى جهنم يا جاهلاً عما أَودع الله في صدرك من لطائف الحقائق ودقائق المعاني.

من أنت؟ من أنت؟ من أنت؟

أدرس سريرة نفسك بعناية لتعرف من أنت، فما خلقك الله لتكون طفيليا في هذا الوجود.

إن لله غاية حين خلقك وسوّاك، فما غاية الله من خلقك ومن تسويتك؟

الله يحب أن يرى إنساناً سواه بيديه، فليكن ذلك الإنسان أنت، ولتكن أنت أنت ...

حقيقة الذاتية:

هي أن تكون لك هوية مستقلة عن هويات الناس كل الاستقلال، في تفكيرك وتدبيرك، وفي عقلك وروحك، وفي جميع شئونك بدون استثناء.

إن كنت مدرساً فكن المدرس الأول .

وإن كنت كاتبا فكن الكاتب الأول .

وإن كنت صحفيا فكن الصحفي الأول .

أنت المسئول أمام الله عما وهبك من العقل والروح والوجدان ، وليس لك عذر في تقصيرك في حق مواهبك ، فأنت موهوب وإن كنت تجهل أنك موهوب .

إنك تجني على نفسك بوهمك فما مشكلات زمانك؟

إن موضوعات عصرك غير موضوعات الجاحظ في عصره ولو شئت لقلت : إن الموضوعات التي كانت تشغل باحثاً مثل الشيخ محمد عبده ، وهو قريب العهد منك لا يجب أن تشغلك لأن وقتها فات ، ولأنك لا تتأثر بها تأثُّراً يصل بك إلى الإبداع .

من حقك أن تؤرخ الأزمان السوالف بقلمك ، فهذا فن مطلوب ، ولكن الكتابة عن عصرك توجب أن تعيش في عصرك لتعرف ما فيه من المتاعب والمصاعب ، وما فيه من القلاقل الذهنية ، والزلازل العقلية .

أي عصر عصرك؟ وأي مدينة مدينتك؟

إن مدينة البصرة لعهد الجاحظ كانت مدينة صغيرة ، ومع ذلك أولت إلى قلمه فنونا من المعاني لا تزال موضع الاستغراب .

إن قوة الملاحظة تعوزنا بصورة مزعجة إلى أبعد الحدود ، وإن غريزة التطلع كادت تنعدم ، وكاد أساتذة المدارس يصيرون مُلقّنين ، وكاد التلاميذ يصيرون ناقلين .

لا بد من تغيير هذه الحال ، وهذا التغيير موكول إلى الأساتذة بالمدارس الثانوية والعالية» .

* * *

الحديث ذو شجون

إلى الأستاذ إبراهيم المازني:

صديقي:

حدثتنا مجلة آخر ساعة أنك سُئلت عني فأجبت: «لو أخلى زكي مبارك كتابته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما هو الآن».

وبمثل هذا أجاب الأستاذ عباس العقاد حين سألتْه عني مجلة الاثنين، فكيف تمّ التوافق بينك وبين صديقك فيما كتبتما عني؟

أهو من باب توارد الخواطر، ووقوع الحافر على الحافر، كما كان يقال؟ أم هو موصول بقصة المسيو ديبون؟ ... ومن ديبون؟

هو رجلٌ فرنسيّ صنع شراباً سماه باسمه وأعلن عنه في جميع البقاع الفرنسية، فما تسير في شارع ولا تدخل قهوة ولا تركب قطاراً إلا وجدت اسمه مسطوراً بأحرف كبيرة تبهر العيون. ولم يكتف بذلك، بل وضع لوحة مسجوعة بهذا الوضع الطريف:

Chez Dupont, tout est bon!

وقد هالني هذا الإسراف في الإعلان، فسألت صديقاً فرنسيّاً عن السرّ فيه فأجاب:

ذلك رجلٌ نفسانيّ هو يعرف العادة المتبعة في القهوات الفرنسية، العادة التي توجب أن يسألك غلام القهوة عما تطلب قبل أن تجلس، فتنطق بأكثر الأسماء ورودا على بالك وهو ديبون!

والأمر كذلك فيما يتصل بحياتي الأدبية، فقد قال الدكتور طه حسين مرة: إن أكثر أدب زكي مبارك في الحديث عن زكي مبارك. فلما سُئل الأستاذ العقاد عني

وجد هذه العبارة في باله فأجاب. ولما سئل الأستاذ المازني عني وجدها في باله فأجاب، وكذلك تعاد قصة المسيو ديبون في القاهرة بعد أن سئمها الناس في باريس.

وهنا مشكلة لا أكتمها عنك، وهي الخوف منك، ولكن كيف؟

أنا لا أبالي نقد الدكتور طه حسين إياي، لأنني نقدته بمئة مقالة ومقالة، فمن السهل أن يقول الناس: إنه ينتقدني وفي نفسه أشياء.

وأنا لا أبالي نقد الأستاذ العقاد إياي، لأن بيننا أحقاداً تُنشر في حين وتُطوى في أحايين.

الخوف كله من نقدك، لأنك صديق حميم، ولن أجد من يتّهمك بالتحامل حتى أطمع في أن يكذّب الناس ما تقوله عني.

يضاف إلى هذا أنك مسموع الكلمة، وأن الجمهور لا يفطن إلى قدرتك على قلب الحقائق. وهل أنسى ما صنعت بنفسك وبصديقك العقاد؟

كانت العيون ترى قبل عشرين سنة أنك طويلٌ جداً، وأن العقاد قصيرٌ جداً فشاء بِرُّك بصديقك أن تزعم أنك القصير وأنه الطويل، ومازلت تبدىء وتعيد حتى آمن الناس بقولك وظنوا أنك قزم وأن العقاد عملاق!

وبنو آدم يصدقون ما يسمعون وما يقرؤون، قبل أن يصدقوا ما تحدثهم به العيون والقلوب.

من أجل هذا أنقض حكمك عليّ، وأرجو أن تكف عني شرَّك وإن لم تكففه عن نفسك، فما بي حاجة إلى صديق يسير على طريقة المسيو ديبون.

وماذا تنكر من حديثي عن نفسي؟ وماذا ينكر صديقك العقاد؟ وماذا ينكر الدكتور طه حسين؟

هل كان أدبك يا صديقي المازني إلا دوراناً حول نفسك؟ وهل كتب الأستاذ العقاد مقالاً أقوى من مقاله الأخير في مجلة الرسالة عن الأزمة التي صاولت روحه يوم احتلال العلمين؟ وهل كتب الدكتور طه أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وصباه؟

إن تصوير هُموم النفس وما يحيط بها من مخاوف وآمال هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء، فما العيب في أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبي؟

وهل يمكن أن أتعرّف إلى الوجود قبل أن أتعرّف إلى نفسي، وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم إلا أحاديث نفسية؟

ما هو سِفر أيوب الذي ترجم إلى أكثر اللغات؟

ألم تكن أصالته في التعبير عن المخاوف الروحية؟

وهل كانت أكثر القصائد الخوالد إلا إفصاحا عن عواطف ذاتية؟

قال ديكارت: أنا أفكر، فأنا إذاً موجود.

ومن معاني هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور بالوجود.

لا موجب للمداورة في محاورتك، فأنت لم تنكر عليّ الحديث عن النفس بمدلوله المعروف عند رجال الأدب، ولا كان هذا ما أنكره الدكتور طه والأستاذ العقاد، وإنما تنكرون الثناء على النفس، وهذا يقع من حين إلى حين، والثناء على النفس لا يضايق الناس حين يكون ثناء بالحق، وإلا فمن الذي استطاع أن يكذّبني حين أثنيت على نفسي؟

ولكن هل جال في خاطرك أن تبحث عن السرّ في هذه النزعة النفسية؟

هل حاولت إدراك الأسباب للتكبر الذي أقع فيه كارهاً غير طائع؟

لو أنك فعلت لعرفت أني لا أتكبر إلا متحدِّياً، والتحدي نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجحود والعقوق، وإليك شاهداً من مقالك بجريدة البلاغ في مساء هذا اليوم «١٨-٧-٤٣».

في كلامك عن «قصة الأدب في العالم» أثنيت على رأي المؤلفَين الفاضلَين أحمد أمين وزكي نجيب حين قررا أن عمر بن أبي ربيعة لم يقتصر على معشوقة واحدة، وإنما تبع الحسنَ أنَّى كان، بخلاف ما كان عليه أمثال قيس وكثيِّر وجميل، ثم تحمست للأمانة الأدبية والتاريخية فقلت:

«وهذا تفريق سَبَق إليه العقاد في كتابه (شاعر الغزل) وقد بسطه بسطاً وافياً وتوسع في بيانه. ولست أقول: إن المؤلفَين الفاضلين أخذا هذا التفريق عنه، فليس ما يمنع أن يتنبها إليه، ولكني أقول: إن الأستاذ العقاد سبقهما إليه، فمن الإنصاف أن يُذكر له فضل السبق ويُسجَّل».

وهذه حماسة مشكورة، وهي من بعض صفاتك الطيبات، ومن الواجب أن نتلقاها بالترحيب، ولكن هذه الحماسة نفسها تقابَل بالإنكار حين تصدرُ عني، كأن أقول في الرد عليك: إن أول من سجل هذا الرأي في كتاب طبع ثلاث مرات هو المبارك لا العقاد.

إن كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» طبع أول مرة أوائل سنة ١٩١٩، وهذا الرأي مدوَّن في أول طبعة، فهل تكره أن أثني على نفسي فأقول: إني سبقت العقاد إليه بأكثر من ثلاثة وعشرين عاما؟

وما أقول: إني كنت في بالك حين سجلت للعقاد ذلك السبق، فمن المحتمل أن يغيب عنك أني أول من أصدر كتاباً عن شاعر الغزل، وأن كتابي كان المنار لكل من تحدثوا عن ذلك الشاعر الفنان.

وأنا في الواقع أتعجب من استهانة الباحثين بالأمانة العلمية في هذا العهد، فما يمرّ أسبوع بدون مفاجآت غريبة تتمثل في سرقات جريئة من مؤلفاتي ومقالاتي، وأنا مع هذا أسكت لئلا يقال إني أكثر من الحديث عن نفسي!

وإصرارك وإصرار صديقك على أن هذا من عيوبي لن يصدني أبداً عن النص الصريح بأن خلائق كثيرة تنتهب آرائي علانية وتعيش بها عيش السعداء.

هل تذكر ما قال بعض الناس حين جازيت العقاد قتالاً بقتال؟

قالوا: إنني أثنيت على العقاد من قبل، فكيف أهدم ما بنيت بالأمس؟

والاعتراض صحيح، ولكن المعترضين غفلوا عن أسباب ذلك الثناء، فقد أردت أن أشرح لطلبة السنة التوجيهية عناصر الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربي، وعند ذلك تذكرت أني مدرس يعلّم تلاميذ، ومن واجب المدرس أن ينزه أحكامه عن الأهواء.

وأثني على نفسي فأقول: إن تلك الدراسات نفعت المتسابقين أجزل النفع، وقد شكا الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ إبراهيم مصطفى من تأثير تلك الدراسات في عقول الطلاب، وقالا في دعابة: إنهما سيرجوان وزير المعارف أن يشير بأن لا تعاد تلك الدراسات في مجلة الرسالة، بعد أن ظهر أنها تُكثر من عدد الفائزين!

بهذا الصدق في الأحكام الأدبية أنصفت نحو عشرين باحثاً من رجال هذا الجيل، وفيهم خصوم ألدّاء يَشرقون بريقهم حين يسمعون اسمي.

فأين من يملك من الصدق بعض الذي أملك؟

المازني وحده يستطيع أن يجازيني صدقاً بصدق، فقد وقف بجانبي وقفة كريمة، يوم قال الدكتور طه على صفحات الرسالة: إن كتاب (النثر الفني) كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتَّاب.

ولكن هل يستطيع الأستاذ المازني أن ينصف خصومه كما أُنصف أعدائي؟

لقد يئست من إنصاف الناس، فكيف لا أنصف نفسي؟

في كتاب (ملامح المجتمع العراقي) ثناء على الأستاذ المازني والأستاذ الزيات، فهل قدمت نسخة من هذا الكتاب إلى أحد هذين الرجلين؟

عزَّ عليَّ أن أظهر بمظهر من يمن على الصديق، واستغنيت عن تقريظ الرسالة وتقريظ البلاغ، اكتفاءً بما أثنيت به على نفسي في مقدمة الكتاب!

وأعجب العجب أني أهديت كتابي إلى رجل لا ينتظر مني أي معروف، ولا أنتظر منه أي جزاء، ليكون في عملي شيءٌ لوجه الله ولوجه الوطنية، وهو رجلٌ سبقَنا جميعاً إلى التشرف بخدمة العِلْم في العراق، ولم يحفظ له مواطنوه بعض ما حفظ له العراقيون.

وأنا بعد هذا أسأل من يُؤذيهم ثنائي على نفسي، أسألهم متى يجاهدون في الأدب كما أجاهد؟ ومتى يعانون في سبيل الأدب ما أعاني؟

أين الزميل الذي يقول: إنه أحرص مني على الوفاء بحقوق القلم البليغ؟

وأين الشخص الذي يملك الزعم بأنه نفعني؟ ومن هو المخلوق الذي يتوهم أن له ديناً في عنقي؟ ومن هو الروح الطاهر الذي يطمع في السيطرة على شيطانية روحي؟

كانت الغاية عندي أن أقيم الدليل على أن لوطني وجودية تحميه من الأباطيل، وكانت حياتي شاهداً على صحة ما ابتغيت، فما استطاعت قوة أن تهدمني، ولا جاز في وهم مخلوق أن يراني من أتباعه، ولو كان أعظم العظماء.

أنا أُخاطب رجلاً هو الأستاذ المازني، أُخاطب رجلاً يسره أن يعلم أني أسيطر على شآبيب من الدواهي المواحق، وسأصبها على أعدائي حين أشاء.

إن أدبي من صُنع الله، وثقة الجمهور بأدبي من فضل الله، ولن أرتاب لحظة في أني أول كاتب وأول مؤلف وأول شاعر في هذا الزمان.

هاتوا برهانكم يا خصومي إن كنتم صادقين!

هاتوا برهانكم، هاتوه، إن استطعتم الاعتصام بخيوط الأحلام، أنا أثني على نفسي؟؟

هو ذلك، لأني أسهر الليل في مسامرة قلمي، ولأني أؤمن بأن الاعتماد على الماضي هو ثروة السفهاء من الوارثين.

سنلتقي غداً وبعد غد، وسيكون صرير الأقلام أخطر من قعقعة السيوف.

وإلى اللقاء، ولعله قريب!

زكي مبارك

٢٦ يوليو / ١٩٤٣

❊ ❊ ❊

اتقوا الله في أخيكم!

ذهب الأستاذ الزيات لزيارة صديقه (عين) فوجده مضى لقضاء أيام العيد بين أهله في المنوفية، ثم نظر في غرفة الاستقبال فرأى «منظار» الصديق فوق إحدى المناضد، فوضعه على عينيه ليعرف إلى أي حد تبدو الخفايا لمن يحمل ذلك المنظار العجيب، ثم هام في شوارع القاهرة يتوسم وجوه الناس فرأى فيهم غرائب وعجائب يشيب من هولها الوليد، فتفزَّع وقال وهو يحاور ذلك الصديق:

«أتريد أن أردّ إليك منظارك، أم تسمح لي أن أجرّبه على عين الدكتور مبارك؟».

وما أحب أن أعود إلى تشريح مقال الأستاذ الزيات، لأنه مقال محزن، وأنا أخاف على نفسي وعلى القراء من النظر فيه من جديد.

ولكن لا بأس من النظر في التجربة التي يقترحها أخونا الزيات، وهو يريد أن أرى العالم مرة من وراء ذلك المنظار الذي نقل فهمه للدنيا والناس من حال إلى أحوال.

وأسارع فأقول: إن ما رأيته بالعين الطبيعية فيه الكفاية وفوق الكفاية، فمن الرفق برجل في مثل حالي أن تُعفى عيناه من النظر إلى الناس بمنظار يفضح ما خفي واستتر من دقائق المساوىء والعيوب.

الزيات هو الذي يحتاج إلى منظار يرى به خلائق الناس، لأنه كثير التلطف والترفق، ومن كان كذلك فهو قليل التعرض لآفات الناس، ومن هنا يقلّ علمه بما فيهم من دميم الغرائز وذميم الخصال.

أما أنا، فقد دخلت على الناس في جحورهم وأوكارهم، ومازلت أهيجهم بقلمي حتى أسمعوني أعنف ما يملكون من هرير ونباح وعواء. وهل ابتُلي أحد بأهل زمانه كما ابتُليت؟ وهل عانى أحد من لؤم زمانه بعض ما عانيت؟

وهل بين قراء اللغة العربية في مصر والشرق من يجهل بليتي بزماني؟

لقد شكوت دهري وشكوت ثم شكوت، حتى عطف علي أعدائي، فما حاجتي إلى منظار أرى به المستور من خلائق الناس وقد اكتوت يدي واكتوى قلبي بالسعير الذي يتمرد كلما سمع باسمي أو رآني؟

ويزيد في الغم والكرب عرفاني بأني لم أكن رجلاً لئيماً حتى أقاسي من الناس ما قاسيت. وهل رأى الناس في القديم والحديث صديقاً في مثل أدبي وكرمي وسخائي؟ ومن هو الرجل الذي يجرؤ على القول بأنه أعرف مني بالواجب، وأحفظ للعهد، وأحرص على مقابلة الجميل بالجميل؟

وهل كان الذين ينوشونني بألسنتهم وأقلامهم إلا خَلْقاً بنيتُ أقدارهم بقلمي ولساني؟

دلوني على صديق واحد أسأت إليه في مَحْضَرٍ أو مغيب.

لو كنت رجلاً لئيماً لنسفت أعدائي وخصومي في يوم أو يومين ثم استرحت من التفجع على مصاير الناس إلى مهاوي البغي والعقوق ولكني رجل كريم يكره الغدر ويستعيذ بالله من العدوان على الناس، وذلك بابٌ من الضعف الشريف، وأنا به مزهوٌّ مختال.

وما الذي ينكر عليَّ أهل زماني حتى يصدوني بغدرهم عن الثقة بأبناء آدم وحواء؟

أنا أعرف ما ينكرون عليَّ، فقد ساءهم أن أسجل ما في زماني من صغائر ومعايب وموبقات. ساءهم أن أفضح سرائر الأدعياء، وأن أقهرهم على الاستهانة بالأدب المزّيف لتُقبل عقولهم وأذواقهم على الأدب الصحيح.

وهل أخطأت حتى ألقى من بَغْيِهم ما لقيت؟

إن أعدائي يقولون في كل وقت: إن مصر هادية الشرق فكيف يُلام من يوجّه المصريين إلى أصول الصدق والعدل لتصح لهم السيطرة الأدبية على الشرق؟

وهل يعرفون لي ذنباً غير هذا الذنب الجميل؟

إن كان في هذا البلد من يؤمن بأنه ضحّى في سبيل الأدب بأعظم مما ضحيت فليتقدم ليحمل بعض ما أحمل من ثقال الأعباء.

ذلك رأيي في نفسي، وهو حق، فليكذبني من يجرؤ على مصاولتي من أهل الأدب والبيان.

وما قيمة مصر في الشرق أو الغرب إذا صح لأهلها أن يقهروا رجلاً مثلي على اليأس من العدل؟

وبأي حق يدعوني الناس إلى التلطف والترفق وأنا لم أر منهم غير الظلم المُبِين؟

وفي آية شريعة يفرض على الرجل المظلوم في وطنه أن يعلن أنه من السعداء؟

ومن الذي يراجع الظالمين إذا سكت قلم الأديب؟

حدثوني كيف يسكت من يرى أصدقاءه يأكلون لحمه بلا تهيب ولا إشفاق؟

حدثوني كيف يَحرمُ الغضب على رجل يرى تخلُّف العقل في بلد يستطيل أهله على الشرق باسم العقل؟

نحن في مصر التي سبقت جميع الشعوب إلى المدنية، فمن حقنا عليها أن نرجو حرية التعبير عما نعاني من معاطب وحتوف، ومن يسمع شكوانا إذا تجاهلت مصر أننا بفضل جبروتها أشقياء؟!

إلى من نتوجه إذا تعامى الوطن الغالي عن مآسينا الدامية؟

آه! ثم آه!!

في وطن الأزهار والرياحين تموت أفئدة وقلوب .

وفي الوطن الذي شرع مذاهب العدل بوحي النيل الذي لا يُخلف الميعاد تموت أرواح حساسة واعية معدواً عليها بسهام الظلم البغيض .

في وطن النيل الذي لا يخلف الميعاد تضيع جميع المواعيد .

احذروا ، ثم احذروا من أن أراكم بعين الناقد ، يا أبناء هذه البلاد .

لقد نظرت إليكم بعين المحب فلم أر غير مآثم ومنكرات ، فكيف تكونون لو نظرت إليكم بعين الناقد المنصف؟ كيف تكونون وأنتم حرب على الصديق الأمين؟

ويريد الزيات أن أراكم من وراء المنظار الذي كشف له من الطبائع مالم يكن يعرف ، فهل يظن بي السفه والحمق حتى أتعرض للمستور من عيوبكم ومساويكم !؟

أنتم أجمل الخلق في أعين من يرونكم من بُعد ؛ ولكنكم «أجمل» الخلق في أعين من يرونكم من قرب ، وأنا منكم قريب ، فما أعظم شقائي !

اسمعوا ، يا بني آدم من أهل هذه البلاد .

أنتم وثقتم بأدبي ، وليس فيكم من يخاف أن أضيع عليه حظًا غنمه بأي سبب من الأسباب ، وبفضل هذه الثقة تجترحون ما تجترحون ، فخوضوا كيف شئتم في أوشال الأكاذيب والأراجيف ، فلن أجازيكم بغير الصفح والغفران .

هات المنظار ، يا زيات ، هات .

هات المنظار لأرى به عيوبي ، وأنسى التفكير فيما عانيت من أصدقائي ، ويرحم الله عهداً كان لي فيه أصدقاء !

حملت المنظار لأرى عيوبي ، فماذا رأيت؟

رأيتني أخطأت أعظم الخطأ حين توهمت أن بني آدم هم جميعاً من طراز ذلك الصديق الغادر الذي صعُب عليه أن أعيش وكان يحب أن أموت !

وهل هناكَ جُرم أقبح من الجرم الذي اقترفت؟

مضت أعوام وأعوام وأنا أتلقى في كل يوم رسائل من قلوب تُقسم بأنها قادرة على الطب لجروح قلبي، فهل استمعت نداء تلك القلوب؟

أنا أتلقى في كل يوم رسائل **من فلسطين وسورية ولبنان والحجاز واليمن والعراق وتونس والجزائر ومراكش فهل فكرت** في الإجابة عن تلك الرسائل الودية؟

وكيف وأنا أتجاهل ما يصل إليَّ من أصوات القلوب في مصر والسودان؟

وكان ذلك لأني يئستُ من بني آدم بفضل الأصدقاء الذين سقيتهم الشهد فسقوني الصاب!

فما الذي يمنع من الاستجابة لدعاء تلك القلوب؟

ما الذي يمنع وأنا أعيش محروماً من نعيم الصداقة والحب؟

وهل يرفض من يعيش في مَسبَعة أن يخرج إلى الحواضر المأهولة بأرواح الناس؟

يمنع من ذلك أن أطياف الغادرين تصدمني حيثما توجهت، فالدنيا كلها هي وجوه الذئاب التي شقيتُ في تربيتها لتقوى على مضغ لحمي وَعرق عظامي.

الدنيا كلها هي فلان وفلان وفلان الذين خلدتُ أسماءهم في مقالاتي ومؤلفاتي ليصح لهم البغي عليّ باسم الأدب والدين.

هات المنظار، يازيات، هات.

حملت المنظار لأرى عيوبي، وما أكثر عيوبي!

رباه، رباه!!

ما هذا الذي أرى؟

ذلك صديق أهجم عليه هجوماً صوريًّا لأرفع اسمه بين الأسماء فيراني من الأعداء.

وذلك رفيق أدله على الخير فيراني من الآثمين.

وذلك صاحب تشغلني الشواغل عن زيارته فيراني من الغادرين، وذاك أخ عزيز لا تهمه غير الظواهر ويغفل قلبه عن الخدمات التي أؤديها إليه في المغيب فيراني من الجاحدين.

فلأية حكمة خلق الله بعض الناس بلا بصائر ولا قلوب؟

أيكون الله أراد أن يمتحننا بخلقه حتى نؤمن صادقين بأنه صاحب الفضل الأول والأخير في الطب لجراحنا الدامية؟

إن كان ذلك ما يريد فقد رضينا بما يريد.

ولكن الله يعلم أننا أصغر من أن نأنس بنجواه. ولا بدّ لنا من مخلوقات نساقيها كؤوس الود حين نشاء، ونرى فيها صور أحلامنا وأوهامنا حين نريد، فمتى يمنّ الله علينا بأطياف تلك المخلوقات؟

كم تمنيت أن أراك في خَلقك، يا فاطر الأرض والسموات. ولو استطعت لشغلت نفسي بك عن خلقك. وكيف أستطيع وأنا لا أملك السموّ إليك، أيها الروح المسيطر على جميع الوجود؟

أنا أعترف بذنوبي.

لي أصدقاء ضيعتهم، وكنت من الظالمين.

منهم ذلك الروح الذي شقي في أن يُنطق لساني بالاعتراف بأنه صديق، والذي يكتب إليّ ما يكتب ثم لا يظفر بجواب.

وكان في يدي أن أملك ذلك الروح ملكا أبدياً وأن أصوغ من نجواه رسائل وقصائد أسيطر بها على الخلود.

توسل إليّ ذلك الروح أن أحفظ عهد الوفاء وأن أعلن أني له صديق ليحدّث أهله بأنه موصول الأواصر برجل له قلب.

ومن أجل هذا الروح الذي أخلفتُ آماله كل الإخلاف تحكم المقادير بأن أعيش في دنياي بلا صديق.

فيا أيها الروح الذي يحدِّث أهله بأني لا أنساه ولن أنساه، أيها الروح الذي يدعوني فلا أجيب، اعرف ثم اعرف أن الله انتقم لك مني، فأنا اليوم بلا صاحب ولا رفيق.

هات المنظار، يا زيات، هات

هات المنظار لأرى عيوبي، وما أكثر عيوبي!

هات المنظار لأرى الأسرة المكونة من أربعة أرواح، الأسرة التي ودعتني بالدمع المحرق يوم الفراق.

فإن سمعتم، يا قرائي، أنني سأقضي بقية العمر في كرب وبلاء، فاعرفوا أن ذلك جزاء الغدر لمن يتناسى فضل تلك الأرواح.

غرتني منزلتي الأدبية فتجاهلت أقدار تلك الأكباد الرقاق، فمتى أرجع إلى مساهرة النجوم في صحبة الأكباد الرقاق؟

فإن قتلني اليأس من عدل الأهل والأصدقاء فقد كنت الظالم الأثيم.

والله آرحم من أن يعاقب قلباً يعترف بذنوبه وخطاياه.

آنا باقٍ على العهد يا أحبابي، ويرحم الله من قال:

لقد صدَدَنا كما صددتم   فهل ندمتم كما ندمنا

مجلة الرسالة ٧/ ٨/ ١٩٦٣

* * *

الحديث ذو شجون

الوساطة بين الدكتور طه والأستاذ المازني:

لم يعد القراء يلتفتون إلى ما يقع في الجرائد اليومية من المصاولات الأدبية، فقد صنعت أزمة الورق ما صنعت في صد الجرائد عن الآداب والفنون وبهذا أصبح مجال الأدب مقصوراً على المجلاّت الأدبية فمن الخير أن نحدث قراء الرسالة عما يفوتهم الاطلاع عليه مما يقع من الصيال الأدبي فوق صفحات الجرائد اليومية من حين إلى حين.

وكلمة اليوم في شرح مناوشة عنيفة ثارت بين الدكتور طه والأستاذ المازني على صفحات جريدة البلاغ، وهيَ مناوشة تمثل التجني والتظالم على أعنف ما يكون بغي الرجال على الرجال.

وسنقف من هذه المناوشة موقف القاضي العادل فقد ساءنا أن يتقارض هذان الرجلان الظلم والعدوان بلا ترفق ولا استبقاء بعد أن ظلا صديقين حينا من الزمان.

والذي يهمني من هذه الكلمة هو أولاً تسجيل حادثة أدبية لا ينبغي أن تضيع وهو ثانيا إنصاف رجلين عزيزين على الأدب وقد بغى كلاهما على أخيه بتحامل وإسراف. وهو ثالثا توضيح لألغاز ساقها الدكتور طه بك مع اعترافه بأن فهمها لا يتيسر لاكثر القراء.

وأصل القضية أن الأستاذ عزيزبك أباظة مدير البحيرة أصدر مجموعة شعرية سماها: «أنات حائرة» مع تصدير بقلم الدكتور طه حسين فلما بدا للأستاذ إبراهيم المازني أن يتحدث عن تلك المجموعة بدأ بالهجوم على صاحب التصدير، فغضب الدكتور طه وكتب رداً أراد به دفع العدوان بما هو أقسى من العدوان.

ولأجل أن يدرك القراء حيثيات الحكم في هذه القضية أسوق إليهم كلمات الخصمين قبل الشروع في الحساب.

قال الأستاذ المازني بعد التمهيد:

«وتوكلت على الله فقرأت التصدير الذي كتبه الدكتور طه حسين بك فقلت لنفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله. هذا طه حسين يخسره الأدب ولا تكسبه الحكومة، فما خُلق لها بل للأدب وإنه ليضيع نفسه في هذه المناصب التي تشغله وتستنفد جهده ووقته.. فإذا كتب جاء بماذا؟ جاء بمثل هذا الكلام الذي لا محصول وراءه ولا أعرف له رأساً من ذنب، فلماذا لا يستقيل ويريح نفسه من هذا العناء الباطل ويتفرغ للأدب؟؟ ماذا يفتنه من هذا العَرَض الزائل والذي أهمل أو ترك أبقى؟ كيف يستطيع بالله أن يواظب على التحصيل وتغذية عقله ونفسه - وهو ما لا غنى بأديب عنه - وكيف يتسنى له التجويد حين يكتب وهو مشغول في ليله ونهاره بهذا الذي لا آخر له من شؤون الوظيفة واللجان وما إليها. وهو يتولى أعمالاً كل واحد منها كاف للإرهاق، فمن جامعة فاروق إلى منصب المستشار الفني لوزارة المعارف إلى عشرات من اللجان يشارك فيها وتأبى له كرامته أن يكون صفرا، ولو اقتصر على الجامعة لكان خيراً، ولو نفض يده من هذا كله لكان أفضل».

عناصر الهجوم:

وخلاصة لهذه الكلمة..

١ - أن الدكتور طه حسين خسره الأدب ولم تكسبه الحكومة، ومعنى ذلك أنه يتولى عملاً لم يخلق له. وسنرى كيف ثار الدكتور طه على هذه العبارة وعدها تحديا لقدرته على الأعمال الحكومية.

٢ - وأن الدكتور يضيع وقته ونفسه في مناصب تشغله وتستنفد جهده ووقته، فإذا كتب جاء بكلام لا محصول من ورائه ولا يعرف له رأس من ذنب.

٣ – وأن الأفضل للدكتور طه أن يستقيل ويريح نفسه من العناء الباطل (وهو عمله في الحكومة) ويتفرغ للأدب . .

٤ – وأنه لا يمكن للدكتور طه أن يزود نفسه بالتحصيل أو يتفرغ للتجويد حين يكتب وهو مشغول ليله ونهاره بأعمال كل واحد منها كاف للإرهاق.

كلمة الدكتور طه:

وجه الدكتور كلمته إلى صاحب البلاغ ثم قال بعد التمهيد . . :

«أؤكد للأستاذ المازني أني آسف أشد الأسف لأن الأستاذ عزيز أباظه لم يطلب إليه هو كتابة هذا التصدير ، إذن لكان له المحصول كل المحصول ، ولكان له رأس كقمة الجبل ، وذنب كالذي خوف به المنجمون المعتصم حين هم بفتح عمورية . وآسف أشد الأسف لأن الحكومة لم تكل إلى الأستاذ عملي في وزارة المعارف وفي جامعة فاروق إذن لكسبته الحكومة والأدب جميعاً . والأستاذ المازني يعرف أن لأبي العلاء قصة مع الشريف المرتضى ، وأظنه يأذن لي في أن أسرق من هذه القصة شيئاً فالسرقة في الأدب مباحة ولا سيما حين تكون في العلن لا في السر وهي حينئذ أشبه بالسطو ، ولست أسرق من قصة أبي العلاء أو لست أسطو منها إلا بمقدار . فأنا أرجو أن يقرأ الأستاذ سورة الفلق ، وأن يقرأ مطولَةَ لَبِيد ، وأن يقرأ مطولة طرفة وعينية سويد بن أبي كاهل التي مطلعها .

بسطت رابعة الحبل لنا ... فبسطنا الحبل منها ما اتسع

ورائية الأخطل التي مطلعها :

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر ... وإن كان حيَّانا عِدا آخر الدهر

ولامية المتنبي التي مطلعها :

بقائي شاء ليس هُمُ ارتحالا ... وحسن الصبر زموا لا الجمالا

وسيقول القراء : إني أُلْغِزُ بهذا الكلام ولكنني أعتذر إليهم فإني لا أكتب لهم وإنما أكتب للأستاذ المازني . أنا أسلك في ذلك طريقة الأستاذ نفسه فمن المحقق أنهم لم يفهموا عنه ما قال أمس لأنهم لم يقرؤوا التصدير الذي لا محصول وراءه والذي

لا رأس له ولا ذنب. وأحبِب إليّ بأن أستقيل وأفرغ للأدب ولكني أود أن أستيقن قبل ذلك بأن الحكومة ستضع الأستاذ المازني مكاني لنرى أيكتب كلاما كالذي أكتبه أم يكتب كلاما خيراً منه.

أما بعد فأنا ضامن للقراء إحدى الحسنيين، فإما أن يسكت الأستاذ المازني فيستريح من هذا السخف الذي نحن فيه وإما ان يكتب الأستاذ المازني فيجدوا شيئاً يرفه عليهم من هذا القيظ المهلك ويقرؤوا كلاماً له الرؤوس كل الرؤوس والأذناب كل الأذناب».

حل الألغاز:

ونسارع فنذكر أن الاشارة إلى سورة الفلق مُنْصَبَّةٌ على آية «ومن شر حاسد إذا حسد» وأن الاشارة إلى مطولة لبيد تتجه إلى هذين البيتين:

فاقنع بما قسم المليك فإنما ... قسم الخلائق بيننا علاّمها
وإذا الأمانة قسّمت في معشر ... أوفى بأعظم حظنا قسّامها

وأنه يريد من مطولة طرفة هذين البيتين:

فلو كنت وغلا في الرجال لضرني ... عداوة ذي الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عني الأعادي جرأتي ... عليهم وإقدامي وصدقي ومَحْتدي

ومن عينية سويد أشار الدكتور طه إلى هذين البيتين:

رب من أنضجت غيظا قلبه ... قد تمنّى لي موتا لم يطع
ويراني كالشجا في حلقه ... عسراً مخرجه ما يُنْتَزَع

وأراد من رائية الأخطل هذين البيتين:

تَنقُّ بلا شيء شيوخ محارب ... وما خلتها كانت تريش ولا تبري
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت ... فدل عليها صوتها حية البحرِ

ومن لامية المتنبي أراد هذين البيتين:

أرى المُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بذمي ... ومن ذا يحمل الداء العضالا

ومـن يـك ذا فم مُـرٍّ مريضٍ يجـد مـراً بـه المـاء الـزُّلالا

وما أردت تبليغ هذه التعاريض إلى الأستاذ المازني وإنما أردت منفعةَ القراء، والشر يتسم بالخير في بعض الأحايين.

غمزات الدكتور طه:

١ - كان يستطيع أن يقول: إنه يستعير قصة أبي العلاء مع الشريف، ويستعير هي اللفظة المطلوبة في هذا الموقع، ولكنه قال: إنه يسرق ليندد بالأستاذ المازني، ولم يكتف بذلك بل جعل سرقته علنية وهي حينئذ أشبه بالسطو كما قال.

٢ - صور الأستاذ المازني بصورة الحاسد لمن كتب تصدير الديوان.

٣ - وصوره بصورة من يعجز عن عمل المستشار الفني بوزارة المعارف، ومن يعجز عن إدارة جامعة فاروق.

الدكتور طه في الأعمال الحكومية والأدبية:

لقد فصَّلنا الخصومة بين الرجلين بوضوح، ولم يبق إلا أن نكف شر الأستاذ المازني عن الدكتور طه وشر الدكتور عن الأستاذ المازني لأننا نكره أن تختل الموازين في هذه البلاد، وإذا كان الأستاذ المازني هو البادي بالظلم فأنا أبدأ بالدفاع عن الدكتور طه، والهجوم عليه ذو شعب: فهو تارة أديب أضاع نفسه بالأعمال الحكومية، وتارة موظف لا يحسن إدارة الأعمال، وتارة حائر لا يهتدي إلى ساحل الأمان.

وأشهد أن الدكتور طه من أقدر الرجال على إدارة الأعمال الحكومية فما تولى عملاً إلا أقبل عليه بهمة وقوة ولا سما إلى مطلب إلا وصل إليه بأيسر أو أعسر مجهود. والدكتور طه مثال نادر من أمثلة البراعة في الشؤون الادارية وهو مفطور على سرعة التصرف، وأخطاؤه القليلة أو الكثيرة لا تقاس إلى صوابه الملحوظ في الابتكارات الديوانية.

وما الذي يمنع من الحكم بأن الدكتور طه دفع عن رجال الأدب قالة من أسوإ القالات فقد مرت أزمان والناس يتوهمون أن رجال الأدب لا يصلحون للأعمال الإدارية ، وكان من أثر هذا التوهم أن لم نر لأحدهم مكانا في المناصب العالية من الوجهة الرسمية ، فجاء نجاح الدكتور طه حاسماً على أوهام أولئك المتوهمين ، وكذلك يقال في تولي الدكتور طه إدارة جامعة فاروق .

فذلك مغنم عظيم لرجال اللغة العربية ، وكانت الحكومة لا تكل إلى أحد منهم إدارة مدرسة ابتدائية ، وهل ننسى أن مدرسة دار العلوم ظلت آماداً طوالاً تحت نظارة رجال من غير أبنائها مع أن فيهم كثيراً من الأكفياء .

ويسرني أن تشهد البواكير بأن الدكتور طه سيفلح في إدارة جامعة فاروق كما أفلح من قبل في إدارة كلية الآداب بجامعة فؤاد ، وكما أفلح في أعماله بوزارة المعارف .

أما قول الأستاذ المازني بأن شواغل الدكتور طه تصرفه عن تزويد عقله بالمطالعات والمراجعات فهو قول صحيح ، ولكنه لا يؤذي الدكتور طه في شيء ، لأن الدكتور طه قد اختار لنفسه أن يكون من رجال الدولة لا من رجال الأدب ، وهو لن يزاحم أحداً من الباحثين ولن يقول : إنه أوحد الناس في جميع الفنون ، فما يجوز لمن يكون في مثل حصافته أن يتناسى أن الأستاذية في الأدب توجب الانقطاع إلى الأدب وتفرض الخلوة إلى النفس ساعات من كل يوم ، وذلك لا يتيسر لمن تكون الأعمال الإدارية عناءه بالنهار وهمه بالليل .

المازني ضحية الأدب ولكنه لن يضيع:

من التقاليد الموروثة بمصر احترام الوظائف والموظفين ، وقد كان الآباء في عهد الفراعنة يوصون أبناءهم بطاعة الرؤساء ويحضونهم على تنفيذ الأوامر بلا اعتراض ليظفروا من مناصب الدولة بأكبر نصيب . . وأنا لا أرى في هذا شيئاً من الذلة في طلب المجد وكما رأى بعض الناس ، وإنما أراه شاهداً على أصالة المصريين

من الوجهة النظامية، فطاعة المرؤوس للرئيس يوجبها نظام الأعمال إذا حسنت النيات وزال معنى الخُضُوع الممقوت.

واحترام الوظيفة في مصر له أصل فقد كانت الوظائف من أنصبة الأغنياء والأقوياء وكان مفهوماً أن الرجل لا يظفر بوظيفة إلا إن كانت له عصبية تحميه من الكائدين أو تعينه على تحقيق السيطرة في الإقليم الذي يشرف عليه بأي صورة من صور الإشراف..

ونحن اليوم نخضع لتلك التقاليد خضوعاً يعترف به القلب وإن أنكره اللسان، فمن السهل أن يسأل سائل عن مكانة الأستاذ المازني في الدواوين الحكومية، وكان قبل ثلاثين سنة أستاذاً في مدرسة من كبريات المدارس الثانوية ومن زملائه من وصل إلى مكانة تضيفه إلى المحسودين بين كبار الموظفين، فماذا صنع المازني بنفسه حتى تخلف هذا التخلف وحتى صار من حق أي إنسان أن يقول له: داعب هذا المنصب إن كنت تستطيع؟

حظ المازني يظهر واضحا إن تذكرنا ما صار إليه ناصحه الأمين وهو الأستاذ عبد الفتاح صبري وكيل المدرسة السعيدية يوم كان المازني أستاذاً بالسعيدية فقد خضع الأستاذ عبد الفتاح صبري للأنظمة الإدارية خضوعاً وصل به إلى أرفع منصب في وزارة المعارف، وثار المازني على الأنظمة الإدارية ثورة وصلت به إلى العيش من سنان القلم في الجرائد والمجلات.

فما النتيجة وما الغاية في حياة هذا وذاك؟؟

مات عبد الفتاح باشا صبري ميتة الغريب، فلم تبكه وزارة المعارف ولم يحزن عليه مخلوق، ولن يذكر بغير الملام إن تسامح معه التاريخ.

أما المازني فلن يموت أبداً. وهل يموت رجال الأقلام والآراء؟ المازني من أمجاد مصر الأدبية وصفحة واحدة من أصغر كتاب ألفه المازني أبقى على الزمن من جميع المناصب، والله عز شأنه أقسم بالقلم ولم يقسم بالجاه ولا المال.

وهل كانت مصر ترضى أن يصير المازني إلى وظيفة تقبره كما قبرت الوظائف مئات من المفكرين بهذه البلاد؟

اقترحتُ مرة على صفحات الرسالة أن تقرر الدولة معاشا للأستاذ المازني بحجة أنه أدى خدمات لم يؤدها من تمتعوا بكرم الدولة باسم الأقدمية في الوظائف .

وأنا في هذه اللحظة أسحب ذلك الاقتراح فلن يجوع المازني وفي يده قلمه ، ولن يشيخ قلم المازني ولو صار صاحبه في ضمور طيف الخيال .

كلمة صريحة إلى الدكتور طه حسين:

ولكن ما الذي آذاك أيها الأستاذ الجليل من تلك الغمزة المازنية؟؟ وما الذي آذاك منها وهي حق في حق؟؟

أتريد أن نتوهم أنك كنت معنا فطرت عنا؟؟

أيرضيك أن نتناسى اسمك في المناوشات الأدبية؟؟

إن كان هذا ما تريد فأنت وما تريد . ولكننا لن نحترم إرادتك إلا كارهين . . لأننا نرفض تسليمك إلى الحكومة بأي ثمن ، وسنجاهد إلى أن نستردك ، فجهز نفسك لوصل حاضرك بماضيك في خدمة الأدب الرفيع .

مجلة الرسالة / العدد ٥٢٧

٩أغسطس ١٩٤٣ . .

* * *

تشريح عاطفة الحب

إلى الدكتور طه حسين:

أيها الأستاذ الجليل[*]:

سألتني يوم لقيتك بوزارة المعارف في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر عن سبب اهتمامي بالحديث عن الحب، وقد جرى ذكر كتاب «ليلى المريضة في العراق» وكانت الابتسامة التي تشع ضوءها في ملامح وجهك تحمل معنى التعجب من أن تسمح الدنيا بأن أعيش بقلب المحب المتيم المتبول.

فأجبتك بأن شواغلي في الحياة قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبي.. ولكن حديثي عن الحب صار مذهباً أدبياً أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء، وأنا أريد أن أخلق جواً من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان.. فابتسمت ابتسامة لها معنى وقلت: اخلق البشاشة في الزمن إن استطعت.. ثم خضنا بعد ذلك في شجون من الأحاديث سأرجع إليها بالتدوين بعد حين.

ويهمني اليوم أن أشرح ما كان يجب أن أقول في جواب سؤالك لو رأيتك منشرح الصدر لا تشكو تدخل بعض الناس في شؤون قد يجهلونها كل الجهل، أو يتحمسون لها بعقيدة مدخولة وإيمان مصنوع.

ونحن لم نبتكر الكلام في الحب، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود. وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب؟

ولأي غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية؟

---

* مجلة الرسالة بتاريخ ١٩/ ٢/ ١٩٤٠.

إن المتوقرين والمتزمتين يتوهمون أنهم وجدوا الحجج الدوافع حين استطاعوا أن يقولوا: إن الدنيا في حرب، وأن الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب.

وأقول: إن ما هتفوا به لم يصدر إلا عن صدور مراض، فالحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء وهو يساور قلوب الجنود في أصعب أوقات الحروب.. وهل كان عنترة بن شداد ماجناً حين قال:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وما هتف به عنترة هتف به ضابط مصري سمحت له لجنة الأناشيد العسكرية بأن يقول:

من عندك زيي يا خضرهْ ... في الرقه يا غصن البانْ

ما تجودي عليّ بنظرهْ ... وأنا رايح ع الميدانْ

وهذا الضابط اسمه عبد المنصف محمود، ولا أعرف كيف اهتدى إلى هذه الفكرة الطريفة وهو يعيش في زمن مثقل بآصاد التصنع والرياء.

لقد قيل: إن هذا النشيد لا يصلح للجنود وهم يتأهبون للقتال. وأقول: إن هذا النشيد من شواهد العافية، فلكل جندي في الجيش أوطار روحية هي الحافز الأعظم للاستبسال في ميادين الشرف والوطن. والجندي الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبداً للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي، لأن الوطن لا يغلو إلا في صدور أرباب القلوب.

وأنا أنتظر أن يسود ذلك النشيد على سائر الأناشيد، فقد هتف به جندي سليم الجسد والروح، وهو أفضل من الأناشيد التي ينظمها شعراء لم يعرفوا الفرق بين السيف والرمح، ولم يسمعوا صوت المدفع إلا في ليالي رمضان.. من الفضول أن أحدثك عن أهمية الحب ولك فيه تاريخ ولكن أحب أن أعرف كيف يندر أن نجد بين كتابنا من يهتم بتشريح عاطفة الحب؟ وكيف يرانا من سيدرسون آثارنا الأدبية بعد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب من فنون المزاح؟

الحب جدُّهُ جِدّ، وهزله جد، ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيء في تلوين الوجود.

الحب جِدٌّ صراح والاهتمام بدرسه يؤدي خدمات عظيمة لعلم النفس، فكيف نسكت عن درسه وله قدرة قاهرة على الضر والنفع، وله تأثير شديد في توجيه مصاير الرجال...

وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب؟

وكيف يجوز أن يقهرني العيش في عصر التزمّت على الدفاع عن كتاب «ليلى المريضة في العراق» وهو كتاب أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبناء هذا الجيل.

إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية، وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لا يهتفون بغير أوطار القلوب.

وأين نحن من العصر الذي عاش فيه عمر بين أبي ربيعة، أو العصر الذي عاش فيه العباس بن الأحنف، أو العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي؟

وهل يمكن القول بأن الحاسة الدينية في هذا العصر تفوق الحاسة الدينية في عصر أولئك الشعراء؟

لا يمكن القول بذلك، فنحن بشهادة رجال الدين أقل حرصا على الواجبات الدينية من الرجال الذين عاصرهم أولئك الشعراء، والله يغفر لي ولك ولسائر أهل هذا الجيل.

الفرق بيننا وبين أسلافنا لا يحتاج إلى توضيح.

كان أسلافنا أصحاء، فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال.. وكان الرجل الديّان لا يتورع عن رواية أظرف قصائد الغزل والتشبيب. وكان هناك توازن بين حقوق القلوب وحقوق العقول، فكانت الحياة أشبه بالحديقة الغنية التي تجمع شعابها بين حياض الأزهار والرياض ومآرب الأفاعي والصلال..

وأين نحن اليوم من أولئك الأسلاف؟

في مساجدهم رُويت طرائف الأشعار، ونوقشت مذاهب الزيغ بلا تحامل ولا إسراف، وفي بيوت أتقيائهم دونت أوهام القلوب والعقول، وعلى ألْسِنة أصفيائهم جرت أحاديث الشك والارتياب، وبفضل ذوقهم الأدبي والفني عاشت أضاليل لها صلات بحيوات الآداب والفنون.

أما عصرنا الذي أعرف وتعرف فهو عصر الرسوم والأشكال، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ في خدمة العقل والقلب والذوق.

ألا فأين الرجل الصالح الذي يقهرك روحه على التزام حدود الدين؟

وأين المفكر الذي يقهرك إخلاصه للفكر على التزام حدود العقل؟

وأين الأديب الذي يحدثك عن نفسه فتشعر بأنه صادق كل الصدق؟ ومن أجل هذه الرخاوة الفكرية والأدبية والدينية فترت حماسة الناس للفكر والأدب والدين، وأصبحت القلوب مثل حال التراب المقتول.

وهنا أجد الجواب عن سؤالك أيها الأستاذ الجليل.

أنا أتحدث عن الحب بصفة جدية وأتعقب أخباره وآثاره في كل ما أرى وما أسمع، وآية ذلك أني لم أنته ولم أنزجر بعد أن رأيت غضبك في جريدة السياسة يوم صدر كتاب «مدامع العشاق» وقد قلت: إنه يحرض على الشهوات، سامحك الله وغفر لك.

وأنا أجدُّ في كل شيء، أجدّ في الصداقة والعداوة، وأجدّ في الشك واليقين، وليس أمامي مجال للمزاح، وكيف يتسع وقتي للمُزاح وما قضيت يوما خاليا من الشقاء بالدنيا والناس؟

فما أرضاك عني فهو حق، وما نفرك مني فهو حق، وما خصصتك بغضبي ورضاي إلا لأني أعرف أنك تعاني من فرح الحياة وحزن الحياة بعض ما أعاني..

وأنا موقن بأنك تفهم عني ما أريد، لأنك تعرف من سريرتي مالا يعرف سواك.

فما رأيك في الحب؟

ألا ترى أنه عاطفة تستحق أن نتأثر بها في جميع المسالك؟

وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندعي النيابة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء؟

وهل يرضيك أن نصير إلى ما صار إليه من يختارون المحفوظات لتلاميذ المدارس وقد تحاشوا جميع الأشعار التي تفصح عن أوطار القلوب؟

لو كان جميع المعاصرين من «العارفين بالله» لخف الأمر وهان، ولكن معاصرينا من الأساتذة يسمعون حديث الحب في المذياع، ويرون آثاره على الشاشة البيضاء، وفيهم من يتمنّى لو سارت أشعاره بين أغاريد أم كلثوم وعبد الوهاب.

يجب أن تعرف أن أخاطب الدكتور طه حسين الذي نقل أروع أحاديث الحب عن أهل الغرب والذي يحاول أن يطبع الجمهور المصري على تذوق الموسيقى الأوربية، لأنها في رأيه من أصلح الأدوات للتعبير عن العواطف والأهواء.

والأوربيون الذين تعرفهم لا يرون الحب من المزاح، وإنما يرونه عاطفة أصيلة تنقل القلب من مكان إلى مكان، وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية، وتشريح عاطفة الحب هو عندي باب لتربية العواطف.

تربية العواطف؟

أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زماني، ومن التعرض لسفاهة الأقاويل وشناعة الأراجيف. نعم، أنا أدعوا إلى الاهتمام بتربية العواطف.. وإهمال العواطف ستكون له آثار أيسرها رياضة الشبان على رذيلة «عدم الاكتراث» وهي أقبح الرذائل وأشدها تأثيراً في قتل حيوية الشعوب.

وهل تستطيع القول بأن الرأي العام عندما يحس هذه المعاني؟ وما الرأي العام؟

أليس صدى لآراء الباحثين والمدرسين، وهم عندنا قوم هيّابون خوافون يرون الحديث عن العواطف من فضول القول.

وضمور العواطف هو الذي قتل الشاعرية في مصر، وهو الذي جعل المصريين أقل الناس إحساساً بمعاني الوجود.

وإلا فحدثني عما أقيم على شواطىء النيل من ملاعب، وما أقيم فوق عُبابه من سهرات يغنَّى فيها الشعر ويرقص الخيال؟

هل عندك نبأ عن حدائق القناطر الخيرية؟

وهل سمعت أن إحساس المصريين بالحياة حمل بعض الشركات على أن تنشىء فندقا هناك؟

ولمن تقام الفنادق في تلك الضاحية السحرية وليس فيها رجل يشوقه قضاء الليل وهو يسمع هدير النيل في شهر آب؟

وهل عندك نبأ عن حديقة الأزبكية؟

ألم تسمع أن حديقة الأزبكية ليس فيها مكان تشرب فيه فنجانا من القهوة أو الشاي إذا بدا لك أن تقضي فيها ساعة أو ساعتين لمحاسبة نفسك أو مداعبة خيالك؟

ويتحدث الناس في هذه الأيام عن بحيرة قارون بمناسبة زيارة جلالة الملك لاقليم الفيوم فهل تعرف أنه لا يمكن قضاء ليلة بجوار تلك البحيرة إلا في فندق أقامه هناك أحد الألمان؟

وهل سمعت أو سمع أحد من أصحابك أن شاعراً مصريًّا قضى ليلة أو بعض ليلة وهو يداعب سمكات تلك البحيرة؟

وما رأيك في «بحيرة التمساح» ... هل سمعت لها خبراً في قصيدة أو رسالة أو كتاب لأديب من أهل هذه البلاد؟

وهل خطر لك أن تقضي ليلة بجوار تلك البحيرة عساك تعرف شيئاً من أخبار مدينة الإسماعيلية؟

ولا موجب لتذكيرك بالأقصر وأسوان: فالناس جميعاً يعرفون أن الأجانب هم الذين تشوقهم تلك المغاني، وإليهم يرجع الفضل في إقامة أسواق الحياة بتلك المناسك، على أيامها ولياليها أطيبُ التحية وأزكى السلام!

وما لي أبعد بك فأنقلك إلى تلك البقاع النائية؟

هل اتفق لك أن تلقي درساً من دروسك بين الأشجار التي تحدق بكلية الآداب؟

وهل فكر أستاذنا لطفي باشا في محادثة طلبة الجامعة عن أرسطاطا ليس تحت الدوح كما كان يصنع فلاسفة اليونان؟

ذلك يشهد بأن إحساسنا بالحياة يكاد يكون في حكم المفقود، فما رأيك في الدعوة إلى الطب لهذا المرض العضال؟

كيف نطب لهذا المرض ونحن نرى الحديث عن الحب ضربا من المزاح؟

كيف وقد تهيبت تقديم كتاب «ليلى المريضة في العراق» إلى محرري الجرائد المصرية لئلا أقرأ لأحدهم كلمة تؤذيني بلا موجب معقول .

وما رأيك إذا حدثتك بأني عجزت في مصر عن بعض ما قدرت عليه في العراق .

كنت أحب أن أؤلف كتاب عن « ليلى المريضة في الزمالك » أفصل به أسرار المجتمع وسرائر القلوب في هذه البلاد بطريقة روائية تفيض على شبابنا روحا من أرواح الوجدان، ولكني خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء .

فهل أرجو أن تضر قلمك بما تهيب به قلمي ؟

لقد وضعت لك الخطة بكتاب « ليلى المريضة في العراق » فأرني كيف تصنع وكيف تصور عصرك وزمانك كما صورت عصري وزماني، نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم ، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية .

فهل أنت مستعد لاقتحام هذا الميدان ؟

نحن نفكر في خلق عصبية أدبية تعلو على العصبية الحزبية، ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول، وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء ويطمعنا في الخلود .

ليتني أستطيع مصارحتك بكل ما أريد في خلق الحيوية الأدبية والفنية .

وكيف أستطيع وأنت كثير التلوم والتعتب ولا يصل إليك الرأي الصريح إلا مشوباً بتهمة التحامل عليك .

أنت على كل حال من ذخائرنا الأدبية ، وأنا أقبلك على علاتك كما تقبلني على علاتي .

فهل يكون من الفضول أن أصارحك بأنك لا تقبل على حياة الوجدان إلا وأنت خائف مع أنك قوي العبارة في الإفصاح عن دسائس نفسك ، ونوازع قلبك؟

وما خوفك وقد استقام لك مصيرك الأدبي وصار اسمك من أشهر الاسماء؟

وما خوفك من الاعتراف بأن عاطفة الحب تستحق التشريح ؟

وما الذي يدعوك إلى الاحتراس حين أقترح عليك تأليف كتاب عما أحس شعراء العرب من النوازع الوجدانية ؟

أتخاف أهل الجمود ؟

اطمئن ياسيدي الدكتور فهم في شغل عنا بمصايرهم الدنيوية ، ولن يفرغوا لنا إلا بعد أن نفرغ من إعلام الناس بما نريد من شرح أوهام العقول والقلوب .

أما بعد : فأنا أعلن عتبي عليك لأنك ابتسمت ابتسامة فيها طيف من الاعتراض على اهتمامي بتشريح عاطفة الحب ، وأصارحك بأن هذا مذهب أدبي سأحرص عليه مادمت أملك القدرة على تشريح العواطف والأحاسيس .

فافتح قلبك ياسيدي الدكتور لوحي الحياة والحب ، وأعلم أن الابتسام الصادق هو أثمن ما يملك الرجال .

وقد شاءت المقادير أن أستطيع مقابلتك في كل يوم بعد أن صرت معنا في وزارة المعارف .

وسأحولك إلى حزبنا ، حزب الأخوة الأدبية الذي يرى أقطار العربية جسما واحدا إذا شكا منه عضو أسعدته سائر الأعضاء بالسهر والأنين .

وستريك الأيام بعد قليل أن الميزان الذي كنت احتكمت إليه في تقدير العداوات والصداقات لم يكن أدق الموازين ... والله المسئول أن يديم عليك عافية القلب وشباب الروح .

* * *

كتاب الامتاع والمؤانسة
مصالحة الأستاذ أحمد أمين

لم يبق شك في أن الأستاذ أحمد أمين غضبان بسبب المقالات التي تجاوزت العشرين(*)، والتي حرضت عليه بعض من خاصموه في مجلة (المكشوف) وأغرت بعض «أنصاره» في العراق، وأخرجته عن وقاره فشتمنا في مجلة (الثقافة) بأبيات جاهلية، سامحه الله وعفا عني.

وأقول اليوم: إني استوحشتُ مما صنعت - والاعتراف يهدم الاقتراف - فمن واجبي نحو نفسي أن أقدم إلى الأستاذ أحمد أمين عملاً صالحاً يعطفه عليّ، ويردُّه إلى سابق عهده، فيبدأني بالتحية حين يراني، ويذكرني بالجميل كما كان يصنع قبل أن أجترح في نقده ما اجترحت، وليس من الكثير أن أرجو عفوه، فقد عفا «أخٌ» له من قبلُ!

والأستاذ أحمد أمين يعرف أني رجلٌ ممتحَن بعداوات الرجال، وقد عانيت من ذلك مصاعب لو صادفتْ رجلاً غيري لدحرته في أقصر وقت، فمن حقي عليه وهو صديقي وجاري، وزميلي كان في الجامعة المصرية، أن يتجاوز عن سيئاتي، إنه - ولله المثَل الأعلى - غفورٌ رحيم!

ولكن كيف أتقرب إلى الأستاذ أحمد أمين وهو فيما يظهر أقسى من الجلمود؟

---

* - يقصد مقالاته تحت عنوان «جناية أحمد أمين على الأدب العربي» التي صدرت في كتاب تحت هذا العنوان طبع وتوزيع دار الجيل

أتقرب إليه بالعلم الذي يقول: إنه حارسه وراعيه، فأقدم إليه ملاحظات على تصحيح كتاب (الإمتاع والمؤانسة)[1] الذي نشرته لجنة التأليف بتصحيح الأحمدين أمين والزين، كما صنعتُ يوم صحح هذان الفاضلان (ديوان حافظ إبراهيم)[2]، فقد استدركت على الجزء الأول عشرين غلطة جوهرية اعترف بها الأستاذ أحمد أمين، ثم صرفتني الشواغل عن النظر في الجزء الثاني، ولعلي أرجع إليه بعد حين.

ويجب قبل الشروع في سرد ملاحظاتي أن أقدم أصدق التحية إلى المصححين الفاضلين، فقد بذلا في إخراج الجزء الأول جهداً لا يعرف قيمته غير من عانى المصاعب في تحقيق بعض النصوص المخطوطة من الأدب القديم، جزاهما الله خير الجزاء.

ويجب أيضاً أن أنبه القراء على واجبهم في اقتناء هذا الكتاب، فهو تحفة أدبية قليلة الأمثال، ورواج مثل هذا الكتاب قد يشجع لجنة التأليف والترجمة والنشر على متابعة السير في هذا الطريق؛ فتنشر من ذخائر الأدب القديم ما يعجز عن نشره الأفراد.

وقد يلاحظ بعض القراء أن الكتاب غالي الثمن، ولكنهم سيعرفون أن ثمنه معتدل حين يذكرون أن أمثال هذه الكتب تستوجب في تصحيحها ونشرها كثيراً من التكاليف.

وأعود إلى الموضوع فأقول:

كان في النية أن أتعقب الجزء الأول كله، وهو يحتاج إلى عدة مقالات، ولكن كثرة الشواغل حالت دون ذلك، فوقفت عند «الليلة الثامنة» وهي من عيون الكتاب.

١ - جاء في ص ١٣٢ «طريقة الربانيين» ويقول المصححان الفاضلان: إن الأصل «الديّانين» ولكنهما لم يجداها في كتب اللغة بهذا المعنى.

---

١ - الإمتاع والمؤانسة: كتاب لأبي حيان التوحيدي حققه ونشره الأستاذ أحمد أمين.

٢ - صدر هذا في كتاب (حافظ إبراهيم) بقلم زكي مبارك للكاتبة كريمة زكي مبارك.

ونقول: إن الديانين جمع ديّان وهو الناسك، وهي كلمة قديمة في اللغة العربية، ولها شواهد في كتب التصوف، وهي كذلك من الألفاظ المألوفة عند التوحيدي، وقد استعملها في مواطن كثيرة سأدل عليها إن وجدت ما يوجب ذلك.

والديان بمعنى الناسك كلمة عرفها الأدب الحديث: فقد رأيتها في مقال نشره الدكتور طه بك حسين في جريدة السياسة في صيف سنة ١٩٢٦ وهو يقصّ حكاية ديكارت في السخرية من المرحومين علام سلامة ومحمد عبد المطلب.

٢ - جاء في ص ١٢٣ «وإنما **بودكم** أن تشغلوا جاهلاً» ويقول المصححان الفاضلان إن «بودكم» هي في الأصل «قولكم».

ونقول: إن عبارة الأصل هي الصواب، ويؤيد هذا أن المؤلف قال قبل ذلك «لأنكم لا تقولون بالكتب» ولم يفطن المصححان لغرض المؤلف فأثبتا في مكان «لا تقولون» عبارة «لا تفون» وبهذا ظلما المؤلف في صفحة واحدة مرتين.

٣ - وجاء في ص ١١٩ «إذا حضرت **الحلقة** استفدت» ويقول المصححان الفاضلان إن «الحلقة» هي في الأصل «المختلفة» ولم يفهما معناها فغيراها إلى «الحلقة».

ونقول: إن «المختلفة» كلمة يريدها التوحيدي. فمن الظلم تحويلها من وضع إلى وضع، والمختلفة: هم طلبة العلم الذين يحضرون الدرس، وقد وردت بهذا المعنى في ص ١٢٩ إذ يقول المؤلف: «وأحضرَ بركةً على المختلفة».

٤ - وفي ص١١٢ «فإن علم **العالَم** مبثوثٌ في العالَم بين جميع من في العالَم»

ونقول: إن السياق يوجب أن نقرأ «فإن علم العالِم» بكسر لام العالم لا فتحها.

٥- وفي ص ١٠٩ يقول المصححان الفاضلان: إن «المِصاع» من صاع الشجاعُ أقرانه إذا حمل عليهم، وهذا خطأ في التصريف والصواب: أن «المِصاع» مصدر ما صعَ بمعنى جالَد، فهو من فصل الميم لا فصل الصاد، والسرعة هي التي أوقعت المصححين الفاضلين في هذا الغلط.

٦- وفي ص ١٠٨ « بما **حويناه** من المنطق » ويقول المصححان الفاضلان : إن «حويناه » هي في الأصل « جربناه » .

٧ - وفي ص ١١٥ : «وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل **الترجمة**» ويقول المصححان الفاضلان : إن « الترجمة » هي في الأصل « التجربة » .

ومن هنا نفهم أن المصححين الفاضلين ظلما المؤلف في موطنين : فالتجربة كلمة مقصودة يريدها التوحيدي بالذات . فيجب في الطبعة الثانية أن تبقى كلمة «جربناه » في ص ١٠٨ وكلمة « التجربة » في ص ١١٥ فتصير العبارة الثانية هكذا :

« وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل **التجربة** فلا بدّ لك أيضاً من كثيرها من أجل **الترجمة**» .

٨- وفي ص ١١١ : « فما تقول في معان **متحولة** بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية » .

ويقول المصححان الفاضلان : إن « متحولة » هي في الأصل «مملوكة» .

ونقول : إن الأصل صحيح وتغييره ليس إلا تحكُّما في توجيه غرض المؤلف .

٩ - وفي ص ١١٠ : «ليس كل ما في الدنيا يوزن، بل فيها ما يوزن وفيها ما يكال وفيها ما يُذرَع وفيها ما يُمسح وفيها ما يُحزر» ومن كلام المصححين الفاضلين نفهم أن أصل عبارة التوحيدي : «وفيها ما يمسح ويحزر» وأنهما زادا عبارة «فيها ما» .

وبذلك نعرف أن دقة المؤلف في التعبير خفيتْ على المصححين الفاضلين، وتعبير التوحيدي جيد جداً؛ لأن ما يُحزر داخل فيما يمسح فلا موجب لتخصيصه في التفريع .

١٠ - وفي ص ١١١ : «الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة» .

ويقول المصححان الفاضلان : «ورد في الأصل بعد قوله «إلا » جيم وألف وذال وهي زيادة من الناسخ والصواب حذفها» .

ونقول: إن المصححين الفاضلين لم يفطنا إلى أن كلمة «جاذ» محرفة، وصوابها «مجاز» ويريد المؤلف أن يقول: إن اللغة مجاز أي مَعبَر نصل به إلى المعاني والأغراض.

١١ - وفي ص ١٠٩: «الأسماع المصيخة والعيون المحدِقة والعقول الحادة والألباب الناقدة».

ومن كلام المصححين الفاضلين تعرف أن «المصيخة» كانت محرفة في الأصل، وأقول يجب أن تصير «مُصغية» ليتم التزاوج بينها وبين «مُحْدِقة» ومن كلامهما نفهم أن العقول **الحادّة** هي في معجم الأدباء العقول **الجامدة**.

وأقول: إن **الحادة** لا تتزاوج مع **الناقدة** فيحسن أن نقول: «العقول **الصامدة**، والألباب الناقدة» والصمود له معنى يتسق مع مراد المؤلف ومع أسلوبه في إيثار الازدواج.

١٢ - في ص ١٠٦: «ومتى اتفق إنسان بهذه الحِلية» ويقول المصححان الفاضلان: لعله **الجِبلّة**.

ونقول: إن «الحلية» معناها الصفة، ولها شواهد في آثار القرن الثالث والرابع.

١٣ - وفي ص ١١٥: «إنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى **وصفها** وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها».

ونقول: إن «وصفها» محرفة، والصواب «رصفها» وهي كلمة معروفة في اصطلاحات الإنشاء.

١٤ - وفي ص ١١٦: «فلم يبق إلا **أحكام اللغة**» والسياق يوجب أن نقرأ «إحكام اللغة».

١٥ - وفي الصفحة نفسها: «قبل **واضع** المنطق» والصواب «قبل وضع المنطق» وقد وردت كذلك في موطن آخر من الحوار بين متّى والسيرافي (أنظر ص ١٢٦).

١٦- وفي ص ١١٧ : « فهذا جهلٌ من كل من يدعيه ، وخطلٌ من **القول** الذي أفاض فيه » **والقول**: صوابها **القائل** ، كما يشهد السياق .

١٧- وفي ص ١١٩ : « فأما وهو يريغ أن **يبرر** ما صحّ له بالاعتبار والتصفح» ومن كلام المصححين الفاضلين نعرف أن « يبرر » أصلها « يزن » .

ونقول: إنهما أخطآ التصحيح: لأن « يزن » هي الكلمة التي يريدها المؤلف، وهو قد نص عليها في بعض المواضع وكلمة (يبرر) بهذا المعنى لا تعرفها اللغة .

١٨- في ص ١٢٧ : « فاعتقد فيه أنه [صحيح وهو] مريض العقل » .

ويقول المصححان الفاضلان : إنهما زادا عبارة « صحيح» وهو وتلك زيادة يضيع بها غرض المؤلف لأنه يريد أن يقول : إن الكندي اعتُقِد فيه أنه مريض العقل حين جاز عليه التلبيس .

١٩- وفي ص ١٣٤ بـ« بَلَل الريق **وغزارة** النفث » ، والصواب: حرارة النفث .

٢٠- وفي ص ١١٦ : ضبط المصححان « مسكويه » بفتح الميم ، وكذلك صنعا في ص ٣٢ والصواب مِسكويه بكسر الميم ، وقد نص عليها صاحب القاموس، وقال: إنها على وزن سِيبويه .

٢١- وفي ص ١٣٧ : « ليس للعقل من شعره **منال** ، ولا له في **قرضه** مثال» .

ومن كلام المصححين الفاضلين نعرف أن «قرضه» هي في الأصل «عرصته» وأنا أفضِّل أن تبقى هذه اللفظة كما وردت في الأصل ، ثم نقول: «مثال» في مكان «منال» ونقول « مجال » في مكان «مثال» فتصير العبارة هكذا :

« ليس للعقل من شعره مثال ، ولا له في عرصته مجال» وهي أدل على المراد مما اختاره المصححان الفاضلان، أجزل الله لهما الثواب .

٢٢- وفي ص ١٣٨ : «وكان عجبي منك دون عجبك مني ، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك» .

وكلمة « دون » صوابها «فوق» وتنقل الواو فتصير العبارة : «كان عجبي منك فوق عجبك مني ، ولو تقارعنا على هذا لفلجت عليك» .

٢٣- وفي ص ١٣٩ : «لكنه يقرص فيحزّ ، **ويَشَمُّ** فيهز» وكلمة « يَشَمُّ » من الغلط القبيح ، والصواب « يَسِمُ »من الوسم وهو الكيّ ، بدليل قوله بعد ذلك «ويجرح فيُجهز» .

٢٤- وفي ص ١٤١ : «وأما النصيبي **فدقيق** الكلام» و «دقيق » خطأ ، والصواب «رقيق» ورقة الكلام هي ضعف الدين بدليل قول المؤلف في النصيبي :

«يشكّ في النبوّات كلها» والعقيدة الصحيحة يسميها التوحيدي «الدين الثخين» انظر ص ١٣٣

٢٥- وفي الصفحة نفسها : «إلا أنه **يأتي** لابن عباد في سمته ولزوم ناموسه حتى خف عليه» .

والسياق يوجب أن نقول : «تأتّى» في مكان «يأتي» **والتأتي** هو التلطف .

٢٦- وفي ص ١٤٢ : «إن كثيراً من الذين لا يكتبون ولا يقرؤون ولا يحتجون ولا يناظرون **ولا يُكرَمون ولا يفضَّلون** خيرٌ من هذه الطائفة»

ومن كلام المصححين الفاضلين نعرف أن «لا يُكرَمون ولا يفضَّلون» أصلها «يلزمون ولا يتفضلون» .

وأقول : إن الصواب : «ويُلزمون ولا يفصِلون» والمعنى أنهم يُلزمون الحجة ولا يستطيعون الفصل ، وهو الحُكم والتمييز بين دقائق الأغراض .

٢٧- وفي ص ١٤٣ : «وتَحيلَ الحالَ به عند خوضك وفيضك» .

كذلك ضبط المصححان عبارة « تَحِيلَ الحال» والمعنى غير واضح ، وأنا أحب أن تكون « وتُجيل المَحال» .

والمحال : بفتح الميم هو الحيلة ، وهو يتسق مع المراد .

* * *

أما بعد : فهذه سبع وعشرون ملاحظة قيدناها عند قراءة « الليلة الثامنة » من كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، وفي هذا الفصل نفسه أشياء سكتنا عنها لأنها قليلة الأهمية .

وهذه الملاحظات خليقة بأن تصلح ما بيني وبين الأستاذ أحمد أمين ، فإن لم تكف للإصلاح فسأراجع الكتاب كله ولكن أين الوقت؟

الوقت عند صديقنا الدكتور بشر فارس، وهو قد عزم على مراجعة كتاب التوحيدي، وأنا أنتظر أن يكون بحثه أوفى وأشمل، لأنه يملك من الفراغ ما لا أملك .

* * *

بقيت كلمة عن الأستاذ أحمد الزين وهو المسؤول الأول عن تصحيح هذا الكتاب :

ألا يرى هذا الصديق أن بعض التصحيحات غلب عليها الارتجال؟

وإلا فكيف جاز أن يكون المصاع من صاع؟ وكيف جاز أن يكون الديان بمعنى الناسك أمراً غير معروف؟

وأمثال هذه الأغلاط تشهد بأن الأستاذ أحمد أمين لم يشترك في التصحيح بطريقة جدية ، لأن من كان في مثل علمه وفضله لا يخطىء في هذه البديهيات .

* * *

وفي ختام هذا البحث أعتذر للقراء من محادثتهم في شؤون لا يدركها غير من يملك نسخة من كتاب الإمتاع والمؤانسة ، فلولا الثقة بأنهم لن يَضِنُّوا على أنفسهم بنسخة من هذا الكتاب لطويت عنهم هذه الملاحظات .

وذلك إعلان ننشره في «الرسالة» بالمجان مراعاةً للتضامن الأدبي بين المؤلفين والناشرين ، فهل يكون القراء عند الظن الجميل فيُقبلوا على اقتناء هذا الكتاب؟

إن ثمنه لا يزيد على ثمن أربع عُلب من السجاير المصرية ، فأين من يفكر في متعة العقل كما يفكر في مُتعة الحِس؟ سارعوا إلى اقتناء الكتب الجيدة لتعرفوا أن العرب لهم أذواق وعقول .

مجلة الرسالة ١١/ ١٢/ ٣٩

الحرية الأدبية

فيما كتب الأستاذ الزيات والدكتور عزام عن «البلايا التي تكابدها البلاغة في هذا العصر» تذكيرٌ بغضبات ابن قتيبة في القرن الثالث، والجرجاني في القرن الخامس. وقد جاء هذا التذكير في الوقت المطلوب، جاء بعد انحراف قد يزعزع مّركز مصر الأدبي في الشرق، إن لم تسنده الأقلام المصرية بأسندة متينة من الحق والصدق واليقين(*).

وأقول من جديد: إنه لا حياة للأدب في مصر إن لم تكن لأهله عقيدة أدبية، عقيدة يرحّب صاحبها بجميع المتاعب في سبيل الأدب الصحيح، ولا يبالي أين يكون مصرعه ما دام على وفاق مع ملائكة الفكر وشياطين البيان.

والعقيدة الأدبية توجب أن نكون صادقين فيما نكتب وفيما نقول، بحيث يطمئنّ القراء إلينا كل الاطمئنان، وبحيث لا تخفى عليهم خافية من سرائرنا الفكرية، ولو جنحنا في التعبير إلى الرموز والتلاميح.

القارىء صديق - وإن لم يتعرف إلينا بصورة شخصية- وللصديق حقوقٌ أهمُّها اطّراح الرياء، فمن العبث أن يخطب قومٌ وداد القارىء وهم لا يَلقونه إلا مرائين.

والأصل في الأدب أنه تعبيرٌ طريف عن أغراض الحياة والأحياء. وإنما قلت: «تعبير طريف» لأبدد الشبهة التي تقول بأن الأدب هو تصوير المشاعر والعواطف بالصدق الذي يماثل صدق الصورة الشمسية، فالقارىء لا يفرح بأن الكاتب حدثه عما يجول في صدره بالحرف، وإنما يسره ويبهره أن يجد في تلك الصورة ألواناً لم يلتفت إلى مثلها من قبل، على شرط أن لا يلويه التلوين عن الصدق، وعلى شرط أن يكون الجانب الطريف أظهر الجوانب في الأداء.

* - مجلة الرسالة: ١٤/ ١٢/ ١٩٤٢.

فأين نحن من هذه المعاني في هذا الزمان؟

من المحقق أن الأدب عندنا في ازدهار، ولكني مع ذلك أعاني ضروباً من التخوف. فالجماهير في مصر لم تشعر إلى اليوم بأن الأدب صار قوتاً لا تطيب بدونه الحياة. ولم نسمع أن الجماهير مستعدة للمساعدة على نشر كتاب يعجز عن نشره أحد كبار المؤلفين. ولم نسمع أن كتاباً أعيد طبعه عشرين مرة في أشهر معدودات، كما يقع ذلك في بعض الممالك التي تعاني شهوات العقول.

فما أسباب هذا الخمود؟

أخشى أن أقول: إننا لم نَصر كتّاباً ولا مؤلفين بالمعنى الصحيح للكتابة والتأليف.

أخشى أن أقول: إننا عجزنا عن خلق الجاذبية الأدبية، وسيحكم علينا التاريخ بما لا نريد، فسيقول أقوامٌ: إن مصر عانتْ زمناً لم يعرف أدباؤه كيف يرفعون البراقع عن الأقلام، ولم يفكروا في رفع الأمية الفكرية عن عقول القراء.

أعوذ بالله من بعض ما أرى وبعض ما أقرأ وبعض ما أسمع!

وبالله أستعيذ من زمن تضعف فيه الأبوّة الروحية، أبوّة الباحثين والمفكرين!

ومع هذا فالأمة المصرية هي هي لم تتغير ولم تتبدل، الأمة التي تستمع كل قول، وتستجيب لكل نداء، ولم يَفْتُر نشاطها الذهني في أي وقت، ولكن أين من ينتفع بالحيوية المكنونة في ضمير الأمة المصرية؟

انتفع السياسيون من أمثال: مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، لأنهم جاهدوا وناضلوا وكافحوا، ولأنهم حددوا أهدافهم تحديداً لا يتطرق إليه الارتياب، ثم رحبوا بجميع المتاعب في سبيل تلك الأهداف.

فماذا صنع الأدباء ليسيطروا بالقوة الروحية، كما سيطر أولئك بالقوة السياسية؟

قد يقال: إن الوطنية وترٌ حسّاس، فهي السرّ في نجاح أولئك الرجال.

وأقول: إن النزعة الإنسانية أقدم وأعمق من النزعة الوطنية، فلو جاهد الأدباء جهاد الصدق لكان لهم في أمتهم تأثيرٌ لا يصل إليه كبار الوطنيين، ولكان من السهل أن تكون مبادئهم شرائع يعتصم بها السياسيون.

وأعجب العجب أن يكون في الأدباء من يطلبون الاستقلال لأمتهم ولا يطلبونه لأنفسهم، كالأدباء الذين يعيشون تحت وصاية الأحزاب السياسية راضين وادعين ناعمين، كأنهم ظفروا بكنوز قارون، وكأن آلهة الفن هي التي ألهمتهم ذلك المذهب من مذاهب المعاش، مع أن القلم أكبر وأعظم وأشرف من أن يتشوف صاحبه إلى الاستظلال بظلال الأحزاب.

لا عيب في أن يكون للأديب حزب ينتمي إليه إذا اقتنع بالتحزب في سبيل القومية. ولا عيب في أن تكون للأديب مطامع سياسية، ولكن العيب كل العيب أن يكون الأدباء ذيولاً تجرجرهم التقلبات الحزبية، وتدوسهم سنابك الأهواء.

إن جهاد مصر الأدبي لا يقل عن جهادها السياسي، فقد استطاع فريق من أدباء مصر أن يرفعوا اسم وطنهم في الشرق، ولكنهم مع الأسف عجزوا عن رفع اسم الأدب في وطنهم، لأنهم غفلوا عن واجب المصابرة تحت الراية الأدبية، واكتفوا بالتغني تحت الراية الوطنية.

ألم أقل لكم: إن الأديب ليس أجيراً للوطن ولا أسيراً للمجتمع؟

وما قيمة الوطن إن لم يفرح بأن ينبغ فيه المفترعون لأبكار المعاني؟

في القسم المصري بمتحف اللوڤر في باريس تمثالان ناطقان: تمثال الفلاح المتربع تحت الشمس وهو يتذوّق السكون والخمود، وتمثال الكاتب المتربع وهو مهمومٌ يستعد للإنشاء. وتلك صورة مصر في القديم والحديث، فمن أبنائها من يفرح بالنعيم البليد، ومن أبنائها من يفرح بالشقاء السعيد. والأشقياء بالمعاني هم السعداء، يوم يوضع للسعادة تعريفٌ صحيح.

ألم يأْن للأدباء أن يعرفوا واجبهم نحو الأدب؟

ألم يأنَ للزمن أن يسمح بأن تقوم في مصر دولة أدبية لا تعرف غير الصدق في البيان عن أوهام الأهواء وأحلام القلوب وأوطار العقول؟

أمن المستحيل أن يقول أديبٌ: «أنا» في هذه البلاد؟

ألا يوجد فينا من يتوكل على الله وحده ليملك الغنى عن الناس فيكتب ما يكتب ويقول ما يقول في صراحة وإخلاص؟

عذرت من عاشوا في زمان الظلم، فما عذر من يعيشون في هذا الزمان؟

إن حرية التفكير مكفولة للجميع، على شرط السلامة الفكرية، فما الذي يوجب أن يكون الأديب إمَّعةً لا ينطق أو يصمت إلا وفقاً لبعض الموحيات الأجنبية عن جو العقل والروح؟

وما الموجب لأن يتفاضل الأدباء بالقدرة على الرياء، وهو سناد المهازيل، وعماد المعاليل، ودعام المناخيب؟

لقد وُضع الورق في التسعيرة الجبرية قبل أن يوضع الفُول، ومع هذا لا يفهم ناس أن قوت العقول يسبق قوت البطون!

إن الأدب الكاذب ينفع، فكيف يضرّ الأدب الصادق؟

والأدباء المستعبَدون يُفلحون، فكيف يخيب الأدباء المستقلون؟

جرِّبوا الصدق مرّةً واحدة، يا أدباء هذا الزمان، وحاولوا مرةً واحدة أن يكون لكم وجودٌ منزَّه عن التبعية، ولو كانت في أشرف الأوضاع، ليصح لكم القول بأنكم من دعاة الحرية والاستقلال.

إن محنة الأدب في هذا العصر محنة عاتية، وهل توجد محنة أقسى من محنة العبودية؟ ولأي سبب؟ للقوت الذي لا يبخل الله به على ضعاف النمال!

إن الأديب المصري لم يُخلق بعد، الأديب الذي يستوحي نجوم السماء لا نجوم الأرض، الأديب الذي لا يخاف الجوع، لأن له زاداً من الحب والنسيم، الأديب الذي لا يخشى التوحد، لأن التوحد هو أنس الأسود.

التصوف خُلق أول مرة في مصر، في عهود سبقت عهود الفراعين. عنا أخذ الناس معاني الروحية، فهل يعاب علينا أن ندعو إلى الصوفية الأدبية؟

ولكن أين الأديب؟ أين لا أين، فقد طوقت المنافع ألباب الأدباء في هذا الزمان؟!

إن وُجد الأديب المصريُّ المنشود فسيكون المرجع لأقطاب السياسة وأعيان المال، لأن الأدب هو الميزان لفهم مطالب الحياة وحقائق الوجود.

وهنا تظهر إحدى الدقائق الروحية : فالميزان لا يستفيد مما يَزِن ، وإنما يستفيد الوزان ، فيا أدباء مصر كونوا موازين لا وزّانين .

آه ثم آه ! !

إن الذي يملك بعض المنافع في هذه البلاد يعتز ويستطيل ، فكيف يجوز لحامل القلم أن ينسى نعمة الله عليه فيتمسّح بهذا الركن أو ذاك؟

وما الذي يمنع من أن نجرِّب حظنا مع الله ، وقد جربنا الحظوظ مع الخلائق؟

لقد عفا الله عن سفهاء الأدب فأورثهم الخلود ، برغم ترديهم في هوَّة التزلف إلى الوزراء والأمراء والخلفاء .

قال أبو نواس في مدح الأمين :

علقتُ بحبلٍ من حبال محمد أمِنتُ به من طارق الحدثانِ

فغضب الله عليه وعلى الأمين وأوردهما موارد البلاء .

واعتزّ البحتري بصحبة المتوكل فضاع الأول وهلك الثاني .

أنا أدعو الأدباء إلى التخلق بأخلاق الصوفية ... هل تذكرون بعض مذاهب الصوفية؟

اسمعوا هذا الحديث :

انتفع الصوفية بسماحة الإسلام ، وهو دينٌ يأبى أن يكون بين المسلم وربه وسيط ؛ فقرروا أنهم أرفع من الأنبياء ، وهذا كفرٌ بظاهر القول ، ولكنه في الجوهر غاية الإيمان ، لأن المهمّ أن تصحَّ الصلة بصاحب العزة والجبروت ، والأنبياء عباد الله قبل أن يكونوا مرسلين وبعد أن كانوا مرسلين ، وهم أشرف من أن يدَّعوا مشاركة الخالق في طاعة المخلوق .

ومشكلة الأدباء أهون من مشكلة الصوفية ، فنحن لا ندعوهم إلى الترفع على الأنبياء ، وإنما ندعوهم إلى الترفع على الناس . ندعوهم إلى أن يعرفوا أنفسهم . ندعوهم إلى أن يعرفوا نعمة الله عليهم . ندعوهم إلى التنسك في سبيل المبادىء الروحية . ندعوهم إلى إنقاذ الأدب من مزالق الرياء .

فلان الذي يكتب في المجلة الفلانية عن الدين والأخلاق لا يستبيح المرور بشارع فؤاد ولا عبور جسر قصر النيل، مخافة أن يقول الناس: إنهم رأوه يسير هنا أو هناك.

فكيف تعبدون الله يا عَبِيد الناس، وهل يعبد الله من يخاف الناس؟

اطرحوا هذه البراقع. اطرحوها، اطرحوها، والله المسؤول عن أقواتكم، إن ضاعت بسبب الصدق، فبينكم وبين الله عهدٌ وثيق، عهد يقضي بأن لا تكون العزة لغير الصادقين، والله لا ينقض الميثاق.

في كل ميدان فرصٌ ينفع فيها التمرين والتدريب، إلا الأدب، فهو موهبة ربانية لا تنال بجهاد الأنفس والأموال، ولا يظفر بها الملوك، إلا إن كانوا موهوبين.

تستطيع الشعوب أن تُجلس على عرش المُلك من تشاء، ولكنها تعجز عن خلق الأديب، لأن الأديب من إبداع المبدع الوهاب، ومن كرم الله على الأنبياء أن جعلهم فصحاء. وهل فات موسى أن يسأل الله تأييده بلسان هرون؟

الأدب سلطنة لا يجوز عليها الذل. والكفر بالأدب كفرٌ بحق الله في اصطفاء من يشاء، ثم ماذا؟

ثم يبقى القول: بأن إيمان الأدباء بالله ضعيفٌ ضعيف، فمازالوا يتوهمون أن لهم حوائج مع الخلائق، وهذا شِركٌ لا يرضاه الله ولا نرضاه.

أنا أعرف السر في انهيار دولة الأدب في جميع الأجيال، فقد كان الأدباء يجافون الله ويصافون الناس.

فيا أيها المبدع الأول والأخير لأنوار القلوب وأضواء العقول، تفضلْ فاجذبنا إليك، حتى لا نرى روحاً سواك، ولا نشهد إلا إياك، ولا نستجير بغير حماك، ولا نعتمد إلا عليك فما يعتمد على الخلائق غير الأذلاء.

الأدب خير ما أبدعتَ، فهو منك وإليك، ولك الحمد وعليك الثناء.

زكي مبارك

الفصـــل الثـــاني
الأدب والوطنية

الأدب والـوطنية

يقول الأديب الكبير الدكتور زكي مبارك :

«أنا رجل شاعر يؤمن بأن من الوطنية أن يحبب العرب في بلادهم بالإشادة لما فيها من صباحة وملاحة وأخلاق» .

ويرى أننا نتحدث كثيراً عن الوطنية ، والوطنية لا تقوم إلا على أساس فكرة الوطن ؛ والوطن يُحَبُّ حين يكون لنا فيه أصدقاء أخلاء ، فإن المودات والعلاقات هي أساس التقديس للأفكار والأشخاص .

كما يرى ضرورة الالتفات إلى أدب الأمة العربية في كل مكان ... في الحجاز ، في العراق ، في الشام ، في مصر ... في السودان ... وعلى هذا فمن الوطنية عند زكي مبارك التحبيب في كل بلد من بلاد الأمة العربية ...

يقول : «أنا لم أدخل بلداً إلا أحببته أصدق الحب لأني أرى بضميري وجه الله في كل مكان» .

ويرى أن الوطن لا يتحدث بأفراحه وأتراحه إلا إلى الأديب ، وأن الأمم لا يقام لها ميزان إلا يوم يثبت أن لها حظاً من الروحانية الفكرية والأدبية ؛ لأن الفكر والأدب لا يكونان من أنصبة الشعوب إلا بعد النضج المنشود في العقول والقلوب ... والأديب المفكر مسؤول أمام قوة الضمير ... وخدام الوطن في ميدان الأدب أعز وأشرف من أن تصدهم عن الواجب عوادي نُكْرانِ الجميل .

وحين اعتقله الانجليز عام ١٩١٩ أيام الثورة المصرية طُلِبَ منه حتى يخرج من المعتقل أن يكتب إقرارا بأنه لن يشتغل بالسياسة ، فرفض كتابة الإقرار؟ وكان جوابه بأنه ليس سياسياً بل وطنياً .

ويرى أن من الوطنية الاهتمام بالمكتبة فلها أهمية كبيرة وخاصة عند الكتّاب ، وأن على الكاتب أن يقرأ كل كتاب تصل إليه يده ، لأن في كل كتاب فكرة تنفع لو

تنبه القارىء، وأن الكتاب كالصديق لا تعرفه من أول مرة، وإنما تعرفه وتصل إلى أسراره بعد تجارب طوال.

ويقول في على صفحات جريدة البلاغ في التاسع عشر من اكتوبر عام ١٩٤٩: «إنني أعتكف في المكتبة حين أريد التنفس، وحين أريد أن أرى أرواحاً مضَى على ذهابها من الأرض أجيال وأجيال ...».

ويقول في صفحة ٤٨ من كتابه «وحي بغداد»: «وغرفتي موحشة لا يؤنسني فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين».

ويرى أيضاً ضرورة إحياء الأدب القديم؛ ونقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية مشيراً إلى وطنية الجيل الماضي في اهتمامه بالتراث.

وطالب بأن يقوم المجمع اللغوي في مصر بإحياء الأدب القديم ... وما دام الشيء بالشيء يذكر أقول: إنه كان ينتصر لفكرة إنشاء مجمع اللغة العربية في مصر في حين كان سلامة موسى يهاجم الفكرة.

يقول المؤرخ العربي المصري أنور الجندي في كتابه «المساجلات والمعارك الأدبية» ص ٣٨ يقول: إن زكي مبارك هاجم سلامة موسى في ذلك قائلاً:

«وقد عارض سلامة موسى في إنشاء المجمع اللغوي وكانت حجته أن انجلترا ليس فيها مجمع لغوي، ولو كان يفقه ما يقول لعرف أن انجلترا لم تستغن عن المجامع اللغوية إلا بفضل ما في أبنائها من التماسك الأدبي والقومي والاجتماعي. فليس في انجلترا شخص مثل سلامة موسى في التجني على لغته والدعوة إلى احتقار ماضيها ... ولكن التماسك الاجتماعي ضعيف في مصر، ولا بد من هيئة علمية وأدبية تقي الناس شر التقاليع في عالم الأدب».

وبعد ... أقول: إنه من العجب العجاب أن المجمع اللغوي والذي أنشىء في مصر بدعوة زكي مبارك وغيره من أصحاب الغيرة الوطنية ... لم يضم إليه زكي مبارك؟!

ومن ذلك يقول على صفحات جريدة البلاغ في٢٥/ ١١/ ١٩٤٩:

«لايهمني أن أكون عضواً في المجمع اللغوي ... وإنما يهمني أن أنشىء أدباً يشتغل بدرسه أعضاء المجمع اللغوي».

والآن مع بعض مقالاته في التغني بالوطنية.

* * *

الوفاء للوطن الغالي(*)

عند هذه الكلمة ترنَّم الهتَّاف بعد انتصاف الليل ... فَمَنِ الهاتف؟

هو أديب من قراء (الرسالة) أراد أن يستفهم عن معنى القول بأن المسيحية تؤرِّخ في كل أرض بميلاد المسيح، وتؤرِّخ في مصر بعذاب الشهداء.

وما كدت أُنتهي من شرح هذا المعنى، حتى هتف ذلك الأديب داعياً أن يجعل الله الوطنية من عقائد الشباب في هذا الجيل.

فمن أنت أيها الفتى؟

وما قيمتُك في نفسك وفي أنفس إخوانك؟

هل تعرف وهل يعرفون أن اهتمامك بكلمة في تمجيد وطنك هي الشاهد على أنك مصري أصيل؟

أنا أدعو لك بطول العمر مع العافية أيها الفتى الوطني، حرسك الله وحماك!

اسمع يا صديقي ثم اسمع:

في كل أرض يكون للشجر والزهر والنبات موسم يقظة وموسم خمود، إلا مصر، فاليقظة فيها دائمة في جميع الأحايين.

وفي كل أرض يوجد الماء في مكان وينعدم في مكانات، إلا مصر، فالماء موجود في كل مكان. وأين من يصدّق أن سكان جبل المقطم يستقون الماء من بئر هناك؟!

وفي كل بلد تجاهد الأرض في الزراعة موسماً، ثم تستريح موسمين أو مواسم، إلا مصر، فأرضها تصلح للإنبات مرتين في العام الواحد أو مرات.

وطنك، يا صديقي، جميلٌ وثمينٌ ونفيس.

(*) العدد ٤٧٣ تاريخ ٢٧/ ٧/ ٤٢ مجلة الرسالة.

كان وطنك محور التوازن الدولي قبل أن يعرف بنو آدم ماهية التوازن الدولي، وكان وطنك أول وطن تنبه إلى أن الله واحد بلا شريك، وفي سبيل هذا المعنى الدقيق جاهد أخناتون الشهيد ...

وكان وطنك، يابنيَّ، أول وطن حارب السماء عن علم أو عن جهل.

وهل من القليل أن يكون الطغيان المصري أخطر طغيان حاربه القرآن؟

وطنك، يا صديقي، مذكورٌ بمحاسنه ومساوئه في جميع البلاد، وستُنسى أممٌ وشعوب، ولا يُنسى وطنك، لأنه معْترك الرشد والغي، والهدى والضلال، في جميع الأجيال.

وطنك هو الوطن، وبلادك هي البلاد.

وطنك هو الميزان في القضاء، قضاء الأمس وقضاء اليوم، والنصر لمن يظفر بقلبك، فلمن قلبك؟

قلبك لوطنك، وعقلك لوطنك، وهواك لوطنك. فلا تشرك به أحداً، ولا يخطر في بالك أن في الدنيا جمالاً أنضر من جماله، أو حمىً أعزَّ من حماه، وإن تناوشه الطامعون من كل جانب، فسيظل وطنك وحدك، ولن يكون لأعدائه غير العذاب في ميادين القتال، وبئس النصيب!

أدرِ المذياع إلى أية جهة من جهات الأرض، فستسمع اسم مصر ... وسائلْ شركات البَرق في أي بلد من البلاد فستخبرك عن مبلغ اهتمامها بأخبار مصر ... واستطلِع المكنون من ضمائر الزعماء والملوك، فسترى أن مصر مُنْيَة الجميع، وبين المُنْية والمَنيَّة صلات.

هل تعرَف الحكمة التي تقول: رُبَّ أكلة مَنَعت أكلات؛ تلك الأكلة هي مصر، فما طمع فيها طامع إلا قصمت ظهره. ولا دخلها غاصب إلا كانت وبالاً عليه، ولو استفتيتَ التاريخ لأفتاك ثم أفتاك.

كنت أشارك المنفلوطي في السخرية من قول مصطفى كامل: «لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً».

واليوم أعرف أن المنفلوطي كان من المخطئين الخاطئين، وأن كلمة مصطفى كامل أصدقُ من الصدق وأصْوَبُ من الصواب، ذلك بأن مصر غنية من جميع

النواحي، وعظيمة من جميع الجوانب، وليس فيها شبرٌ إلا وهو مبعث حياة أو مصدر تاريخ.

وما اقتتلت الأهواء، ولا اشتجرت الآراء، ولا اعتركت القلوب، ولا انتضلت العقول بأقوى وأعنف وأخطر مما يثور فوق الأديم الصحيح في هذه البلاد.

يوم كان السلطان لأهل الشرق كانت مصر أول أمة تقاوم طغيان الشرق.

وحين كان السلطان لأهل الغرب كانت مصر أول أمة تحارب طغيان الغرب.

وهل ينسى التاريخ أن عزَّة مصر هي التي جعلت واليها عَمْراً أول والٍ يخالف عن أمر الخليفة العادل عمر بن الخطاب؟

وهل ينسى التاريخ أن السلطنة العثمانية في أيام عزها المأثور عجزت عن تتريك الأمة المصرية؟

وهل ينسى التاريخ أن الإنجليز الذين سيطروا على كثير من ممالك الأرض عجزوا عن مقاومة العزة المصرية؟

نحن برعاية الله وكرامة مصر أعزَّاء وأعزاء وأعزاء.

وطني وبلادي:

إلى الفتييْنِ العظيميْن «م. ن ج» و «ع. ع».

- وما اكتفيت بالتلميح إلا لأنني لم أستأذنهما في النص على اسمهما بالتصريح - إلى هذين الفتييْن العظيميْن أوجِّه القول:

إن بلادنا لن تُضام أبداً، ولن تكون لغير أهليها، ولو تألبت عليها جيوش البر والبحر والهواء.

بلادنا باقية باقية، في عزة وعافية، ولَن تنال منها المطامع الدولية إلا بقدر ما ينال النسيم المعلول من قمم الجبال.

بلادنا طوَّقت جميع البلاد بأغلال الديون العقلية والروحية، ولن يتنفّس بلدٌ في شرق أو في غرب إلا وهو مدينٌ لمصر بديون ثقال.

لا تنسوا أن بلادكم دانت الفكر والعقل والروح ألوفاً من السنين؛ ولا تنسوا أن أكبر مجد يظفر به الأوربيُّ المثقَّف هو أن يحلَّ رمزاً من رموز آبائكم الأولين.

كان الخط المصري القديم إشارات من ملامح الطير والحيوان، فما تفسير ذلك؟

يقول الجاهلون: إنه دليل على الطفولة التاريخية.

وأقول: إنه دليل على العبقرية المصرية، لأنه يجعل كل حرف كائناً حيًّا من طير أو حيوان، والحروف خلائق حية عند من يعقلون.

ثم ماذا[1]؟

ثم أذكر أن بلادنا هي التي صدّت المغول الوافدين من الشرق، وهي التي صدّت الصليبيين الوافدين من الغرب، فكنّا الميزان لأبناء ذلك الزمان.

ومن نحن اليوم؟

برغم قسوة الظروف قد استطعنا أن نقول: نحن، وأن نفي بالعهد؛ لأن مصر لا تكذب ولا تخون.

لن تضام مصر أبداً، لأنها وطن الرجال، ولأنها أول وطن غلب الدهر الخوّان.

أحبك يا وطني، أحبك يا بلادي، حبًّا لا ينتظر أي جزاء، لأنه أعظم من أي جزاء!.

* * *

---

١ - مجلة الرسالة ٣١ أغسطس / ١٩٤١.

نفحة سودانية(*)

كان من توفيق الله أن نلتفت إلى الأدب في السودان بعض الالتفات، فبه أتيحت فرصة للتعرف إلى ما هنالك من روائع لو نُشرتْ لبهرت شعراء مصر والشام والعراق.

أقول هذا وأمامي قصيدة للشاعر محمد سعيد العباسي، قصيدة خفيفة الروح، حنَّ فيها إلى أيامه بمصر فقال:

ولو كان لي علمٌ ما في غدٍ	لما بعتُ مصر بسودانيهْ
عدتني عن طيب ذاك الثواءِ	نوىً قذَفٌ خيلُها عاديهْ
فودَّعتُها أمسِ لا عن قِلَيً	ولم تكن النفسُ بالساليه
إلى بلدٍ عشتُ فيه غريباً	بعيداً عن الناس في ضاحيهْ
أقيم بها من صدور المطيِّ	للمرخ تُحدى وللصافيه[1]

. . . .

لعلي أصيبُ بتلك البطاح	صِباتي وذاهب أياميهْ
فلله كم جنَت الحادثات	عليَّ وأودتْ بآماليهْ
رعَى الله مصرَ فكم للأديب	بها كم من عيشةٍ راضيه
وأحبِبْ بأيامها الذاهبات	على ما بها وعلى ما بيهْ
قضينا بها غفَلات الشباب	بأحلى مذاقاً من العافيهْ
تولّتْ سراعاً فياليتها	تعود لنا مرةً ثانيهْ
ويا قبلة الخير لا تبعدي	وحُيِّيت زاهرةً زاهيه
ويا برقُ زُرها بوطف الغمامِ	وحُلِّي عزاليك يا ساريه
وإن تبخلي إن لي مُقْلةً	هي المزن هامعةً هاميه

(*) مجلة الرسالة العدد ٤٨٢ بتاريخ ٢٨/ ٩/ ١٩٤٢.

(١) المرخ والصافية: ماءان لبادية الكبابيش بالسودان.

بني مصر حيَّاكم ذو الجلال — بعَرْف تحياته الزاكيهْ
وأسدى بإحسانه منعماً — لَكُمْ كلَّ صالحة باقيهْ
بكم غدت اليومَ أم اللغات — كحسناءَ في بردٍ ضافيه
حَمَلْتُم بمصرَ وبالمشرقَيْن — رسالةَ آدابها العاليه
أجلْ وشأوتم بسحر البيان — عباقرة الأعصر الخاليهْ
بيانٌ هو البدر في تَمِّهِ — يشقُّ حَشا الليلة الداجيه
وكالورد يعبق مطلولهُ — أو المسك أو جونةَ الغاليه
بَلَوْنا الكرام فكانوا البناء — وكنتم به حَجَرَ الزوايهْ

فما رأيُ قراء «الرسالة» في هذا الكلام النفيس؟ ما رأيهم في شاعرٍ سودانيّ يحنّ إلى مصر هذا الحنين؟ وما جزاؤه على هذا التلطف النبيل؟

نحن لا نملك الجزاء على مثل هذا الوداد، فهو فوق الجزاء، ويكفي أن نقول: إنه شاعرٌ من السودان، السودان المصري، أعزّه الله ورعاه وحماه من جميع الأسواء.

وداد مصر للسودان ودادٌ صحيح، فليعرف السودانيون أننا لا نقبل أن يكونوا أوفى منا بأي حال، وسنعارض هذه القصيدة بقصائد، وسنريهم أن مصر تجزيهم صدقاً بصدق، وإخلاصاً بإخلاص.

أيها الأرواح الشوارد بأعالي النيل، أيها الحافظون لأمجاد الإسلام بالوادي السحيق، هل تعرفون مكانتكم في أنفس المصريين؟

لذلك حديث وأحاديث، فانتظروا قليلاً، فسأقصّ من أخباركم ما تجهلون.

أيها الشاعر الذي حيّا مصر، حيّاك الله وحيّاك ثم حيّاك، فقد طوّقت جيد مصر بقلائد صيغت من حبات القلوب.

أهذا شعرٌ أم سحر؟

هو فوق الشعر وفوق السحر، هو إلهامٌ جادت به فِطرةٌ كريمة الأصل، في بلادٍ أبناؤها أصلاء.

وإلى الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد تحيتي وثنائي، فهو الذي حمل إليّ هذا القصيد، كما يحمل النسيم رسائل المحبوب إلى الحبيب.

* * *

بين مصر والعراق(*)

في هذا الأسبوع أنستُ بلقاء جمهور من الأساتذة المنتدبين للتدريس في العراق، وهم جميعاً ألسنةٌ تلهج بالثناء على الأريحية العراقية والذكاء العراقي.

ومن كلام الدكتور راجح والدكتور غالي والأستاذ قنديل عرفت أن دار المعلمين العالية بلغتْ من التفوق مبلغاً شرح صدور المؤمنين بعظمة العقلية العربية في العراق، وطن الأهل والأحباب.

ولكني تأذيت حين عرفت أن بعض المدرسين لا يريدون أن يعودوا لخدمة العلم في الوطن الشقيق، بحجة الخوف من تقلب الظروف، أو بحجة الشوق إلى الاستقرار في وطنهم الأول، وما دروْا أن الاستقرار ضربٌ من ضروب الموت!

لو قلتُ الصدق كل الصدق لصرّحتُ بأن من يريدون قطع صلتهم العلمية بالعراق ليسوا إلا شباناً تعوزهم القدرة على فهم السرائر من الروحانية العراقية، فهم يعيشون هنالك عيش الغرباء بالفكر والروح، في بلاد قام كتابها على الفكر والروح.

في هؤلاء من يعتذر بأن العراق مهدّد بالغلاء في هذه الأيام، فهل يكون فيهم من يدرك أن في تمرة أو تمرتين كفاية لمن يدعوه الواجب للقيام بخدمة علمية؟

وفي هؤلاء من يقول: إن مصر تنساه حين تطول إقامته بالعراق فلا ينال حظه من الترقيات.

وأقول: إن هذا لن يقع بعد تنظيم التعاون الثقافي بين مصر والعراق.

كيف يصبر من عرف العراق على فراق العراق؟

أنا أخشى أن يكون مفارقوه لم يعرفوه. وهل يغيب عني أن في العراقيين أنفسهم من يجهل المحاسن الأصيلة لوطنه الجميل؟

(*) مجلة الرسالة العدد ٤٧٣ تاريخ ٢٧/ ٧/ ١٩٤٢.

لقد عجب قومٌ من وفائي للعراق، وظنُّوني أستهديه منحةً من المِنح الذواهب، ثم انقضى عجبهم حين عرفوا أن وفائي للعراق وفاء القلب لا وفاء الجيب، ولكن عجبهم سيُبعث من جديد حين يعرفون أن في عنقي ديوناً للعراق، هي أكرم الأطواق، فما تلك الديون؟

رأيت العراق يكرم مصر في جميع مذاهبها العلمية والأدبية والتشريعية، ورأيته يفرح حين نفرح، ويلتاع حين نلتاع، ورأيت أنه بحق وصدق أخٌ شقيق.

مصر مسطورة الملامح فوق كل مكان في العراق، فما جزاءُ من يحبوننا هذا الحب؟ وما جزاء من يعرفون من أقدارنا الأدبية أكثر مما نعرف؟

تلك معانٍ يجهلها من يبحث عن وظيفة توزن قيمتها بالدراهم والدنانير، وهي معانٍ يعرفها من يؤمن بأن الفناء في سبيل العروبة بابٌ من أبواب الخلود.

٢٧ يوليو/ ١٩٤٢

* * *

في بناء الجيل الجديد(*)

أعتقد أن الأساس لبناء الجيل الجديد هو خلق الإيمان بالعدل في تقسيم الحظوظ، بحيث يصير من المفهوم عند الجميع أن في مقدور كل فرد أن يصل إلى أعظم المناصب، إذا زوّد نفسه بالزاد الذي يؤهله لما يتسامى إليه، بلا احتياج إلى وسيط أو شفيع.

ولكي نصل إلى هذه الغاية يجب أن نروض أنفسنا على فهم المراد من العدل، فقد يصرخ ناس ثم يصرخون بدعوى أنهم لم يؤهلوا أنفسهم لخوض معارك الحياة واقتحام أسوار المجد. وهذه آفة لم يسلم منها الناس في أي زمان.

نحن في الغالب نطالب بأكثر مما نستحق، وندّعي لأنفسنا حقوقاً لم نبذل في سبيلها ما يجب بذله من الجهود، ثم نطيل التوجع والتفجع والتحسر على انعدام العدل. وهل عدلنا مع أنفسنا حتى نطالب غيرنا بالعدل؟

لا يجوز تضييع لحظة واحدة بلا استفادة علمية أو أدبية، ولا يجوز تضييع لحظة واحدة في القيل والقال إذا كنا نريد أن يكون لنا في الحياة السامية مكان، ومن آفات الناس في هذا العصر أن تكون المظاهر غاية ما يطلبون، فمن النادر أن نجد من يشتهي أن يكون نعيمه مقصوراً على المغانم الروحية، ومن النادر أن نجد من يفرح لأن جيرانه في رغد وإن كان في حرمان.

والاعتماد على الحكومة في جميع الشؤون أخطر آفات هذا الجيل؛ فالحكومة هي التي تصدّ بغي الناس بعضهم على بعض، والحكومة هي التي تضمن وجود الرغيف في السوق، والحكومة هي المسؤولة عن كف يد الغريب عن ظلم القريب.

نحن نشغل بعدِّ المنافع عن عدِّ المآثم، وننسى محاسبة أنفسنا على الكسل البغيض، الكسل الذي يشلّ مواهبنا المكنونة ويضيفنا إلى جماعة المتواكلين.

ما هذا الذي نعاني من كوارث وخطوب؟

(*) مجلة الرسالة ١٠ مايو ١٩٤٣.

أقول هذا لأني أعرف أننا لا نلتفت لغير المصاعب التي تساق إلينا من بُعد، ونغفل عن المصاعب التي نخلقها بأيدينا؛ وهي المصاعب الناشئة عن غفوتنا الروحية والذوقية والعقلية. وصدق الرسول حين قال: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك».

الجهل الذميم بقوانين الوجود هو الذي يجعلنا نُلقي المسؤولية على من لا يحملون عنا أية مسؤولية، والفرار من التبعات هو أعظم شواهد الخذلان.

لو أنفقنا في محاسبة أنفسنا معشار ما ننفق في محاسبة الحكومة والمجتمع لوصلنا في جهاد النفس إلى أشياء. ولو تجنَّينا على أنفسنا كما نتجنى على الحكومات والمجتمعات لتكَشَّفَت أنفسنا عن حقائق تهدينا في ظلمات الوجود.

محاسبة النفس لا تقع إلا عند يقظة النفس، فلنفهم أن رضانا عن أنفسنا في جميع الأحوال من دلائل السبات.

وأغرب ما نتورط فيه أننا نبالغ في تعقب عيوب الحكومات والمجتمعات، ثم ننتظر أن لا ترى فينا الحكومات والمجتمعات غير الجميل.

وما هي الحكومة؟

هي مجموعة أشخاص يتعرضون لما يتعرض له سائر الناس في المعاملات الفردية والاجتماعية، ومن حقهم أن يعاملوك بالعدل في الإساءة كما تحب أن يعاملوك بالعدل في الإحسان.

وما هو المجتمع؟

هو تلك الخلائق المبثوثة في القرى والمدن والأسواق، وهي على تنوعها العجيب قد تلتقي في المشاعر والعواطف من حين إلى حين.

وقد نخطىء فنتوهم أن تلك الخلائق تعجز عن تعقب العيوب فيمن لا يرى فيها غير العيوب.

والمصلح في الجيل الجديد سيُسأل أمام ضميره عن تجسيم المحاسن الأصيلة في المجتمع، وهي سر التماسك الاجتماعي، وبفضلها استطاع المجتمع المصري أن يقهر مصاعب كثيرة عانتها مصر من جيل إلى جيل.

وخلاصة القول: أني أدعو إلى محاسبة النفس قبل محاسبة الحكومة والمجتمع، وأرجو أن يؤمن كل فرد بأنه حجر الأساس في بناء الحكومة وبناء المجتمع، إن صحت النية على أن نكون من رجال الأخلاق.

* * *

وعاد زكي مبارك مرة أخرى إلى الحديث عن محاسبة النفس فكتب على صفحات مجلة الرسالة في الثامن والعشرين من يونيه سنة ١٩٤٣ يقول تحت عنوان: «محاسبة النفس»:

«بدأت أشعر بضجر في هذه الأيام، وأخذت أشعر بانقباض في الصدر من حين إلى حين، فما سبب هذه الحال؟ وما هو الدواء؟

يخيّل إليّ -ولعل هذا هو الواقع- أني لا أؤدي حقوق القلم كما يجب، فأنا أتحامى شؤوناً كثيرة، وأسكت عن آراء لو دونتها لكان لها في عالم الفكر مكان.

ويزيد في الضجر أن لحياتي ألواناً جديرة بأن تقدم أثمن الغذاء لقلمي، فكيف يفوتني أن أنتفع بتلك الألوان؟

قد يقال: إن ظروف الحرب لها دخلٌ في الحدّ من الحرية القلمية، لأنها تقهرنا على مراعاة أمور لم يكن من الحتم أن نراعيها في أيام السلام.

وهذا عذر غير مقبول، لأن الشؤون التي تمس الحرب ليست كل ما يعتلج في صدور الرجال، فهنالك معضلات إنسانية تساور العقول والقلوب في كل زمان، وهي معضلات لا تهادن الناس ولو كانوا في ميادين القتال.

وربما قيل: إن الشؤون التي تعفيها ظروف الحرب لا تعفيها ظروف المجتمع، فقد تكون الرقابة التي يفرضها الجمهور على الأقلام أقسى من الرقابة التي تفرضها الحكومات في أيام الحروب.

وهذا أيضاً عذر غير مقبول، ففي مقدور المفكر أن يعالج شؤون المجتمع بأسلوب يخلق الحب ويبعد العداء.

يظهر أن الآفة هي في طريقة الطب للمجتمع، الطريقة التي تلبس ثوب السيطرة بأقلام الناصحين، ونحن في الأغلب ننسى أن في فطرة الناس ميلاً إلى الدفاع عما يتورطون فيه من ضروب الانحراف، ونجهل أن العنف في النصح قد يخلق للعيوب أنصاراً يجعلون سيئاتها حسنات.

أنا موقن بأن سياسة القلم تعوزنا في أكثر ما نكتب، وسياسة القلم معنىً لم نلتفت إليه. ألا ترى كيف نقضي العمر في شقاق مع القراء؟

أين الذي حاول أن يقدم النصيحة المرة في كلمة مغلفة بمجاج النحل؟

وأين الذي واجه الجمهور بأسلوب منزه عن الاستعلاء؟

هذه الحال تشبه أن تكون مرضاً من الأمراض القلمية، وللأقلام أمراض.

وأعترف بأن تحرير القلم من الآفات النفسية يحتاج إلى رياضات لا نقدر عليها في جميع الأحايين، لأن الرجل قد يقدر على محاسبة الجمهور ثم يعجز عن محاسبة النفس.

* * *

الوطن الذي يحفظ الجميل

مات المارشال جوفر في باريس فخفقت لموته قلوب الفرنسيين جميعاً، وأعلن الحداد العام على الرجل الذي كسب موقعة المارن، وأخذت الجرائد والمجلات تنشر ما عُرِفَ وما لم يعرف من أخباره وصوره وأعماله منذ كان يافعا إلى أن اختطفه الموت.

وقد أثار هذا الحادث في نفسي أشجانا محرقة: فقد التفت الذهن من فرنسا التي تحفظ الجميل إلى مصر التي تنكر الجميل. وإني لأرجو أن يحتمل القراء وقع هذه المؤاخذة، فإني لا أرضى أن أتملق عواطفهم وأهواءهم، وأظهرهم بمظهر الأوفياء لوطنهم وقومهم، على حين يرتطمون في أوحال العقوق.

كل شيء يتقدم في مصر إلا عاطفة الواجب نحو الجنود الذين خدموا الوطن في أمانة وإخلاص.

والذي يعيش في باريس يأخذه العجب مما انتشر في هذه المدينة من مئات التماثيل، ويكفي أن يتجول الرجل من حيٍّ إلى حي على قدميه ليعرف تاريخ فرنسا العلمي والأدبي والسياسي عن طريق التماثيل.

ولكن لا يحسب القراء أن التماثيل هنا تقام لمن هزوا فرنسا وأشعروها بوجودهم، وفرضوا عليها الوفاء لهم... كلا، ففي أكثر الأحيان تقام التماثيل لرجال لم يكن يخطر ببالهم أن سيكون لهم ذكر مأثور بعد الممات، وإنما ينتبه الشعب إلى مزايا رجاله، وخصائصهم، وتفوقهم فيما انقطعوا له من علم أو أدب أو طب أو سياسة أو قانون، وكذلك تنظر فترى تمثالا يقام لرجل نسيه الأهل والأصدقاء والأقربون، وليس له شيعة ولا حزب ولا أنصار، وكل ما في الأمر أن بعض المنصفين تنبه إليه ودعا الحكومة إلى إنقاذ ذكراه من جور الخمول.

والذين يستحقون الذكر في فرنسا لا يمجدون فقط في بقعة واحدة، وإنما تنتشر أسماؤهم في جميع المقاطعات والأقاليم، فاسم فيكتور هوجو مثلا يطلق

على عدد كثير من الشوارع والميادين في مختلف القرى والحواضر الفرنسية، وكذلك اسم جان جاك روسو وفولتير وموليير ومن إليهم من رجال العلم والأدب والفن والسياسة والتشريع.

هذا في فرنسا، أما في مصر؟

أنا لا أذكر أنه أقيمت في مصر تماثيل شعبية، فإن التماثيل القليلة يرجع السر في وجودها إلى بعض الرغبات العالية، أما الشعب نفسه فيحتاج إلى من يهذب ذوقه ويروِّضه على تقديس الأوفياء من زعمائه ومعلميه، وحسب القارىء أن يذكر أنه كان من الممكن أن تتلاشى فكرة تمثال زغلول، ولولا قوة الوفد لوضع ألف غطاء على تمثال سعد وضريحه، وكان من الجائز أن نشهد هذه المهزلة ونحن أحياء.

فإذا خلينا سعد باشا جانبا، ورجعنا إلى مصطفى كامل تبينا الحقيقة، فإن تدهور الحزب الوطني كان كافياً لأن ينسى معه اسم مصطفى كامل ومحمد فريد، وكان على الشعب أن يفهم أن زعماء الحزب الوطني الأولين غير مسؤولين عن «البرودة» التي يخبُّ فيها أشياع الحزب الوطني في الوقت الحاضر، وقد أذكر أن الوفد المصري تقدم في أواخر سنة ١٩١٩ إلى الاحتفال بتأبين محمد فريد، فدل بذلك على تقديره لعظمة الرجل، مع أن الخصومة بين الوفد والحزب الوطني كانت إذ ذاك أحر ما يكون.

هذا حظ رجال السياسة والوطنية في مصر، مع ما لهم من الأثر الفعال في طبع أسمائهم في الرؤوس.

أما رجال العلم والأدب والتشريع الذين يعملون في تواضع وهدوء فإن نسيانهم حتم لا ريب فيه، فكم فكر الناس في إحياء ذكرى إسماعيل صبري باشا ثم سكتوا، وكم صاح الصائحون بإحياء ذكرى الشيخ محمد عبده ثم هجعوا.

ومع هذا العقوق لا يزال في مصر ناس يشقون لتسعد أمتهم ويموتون لتعيش. وبفضل هؤلاء الضحايا، ضحايا نكران الجميل، يحيا الكاندون الجاحدون[1]!

* * *

١ - البدائع ج٢ ص ١٥٨.

الحرية، الحرية!(*)

وقف «المترو» ظهر اليوم عند مدخل مصر الجديدة، ثم طال به الوقوف، فنزلت لأعرف السبب، فرأيت قطارات كثيرة يعاني ركابها مثل ما نعاني من التعطيل، وكان السبب أن قطاراً أصيب بعطب فعطّل جميع القطارات.

والتفت فرأيت الأستاذ سعد اللبان ينتظر مع المنتظرين، فوجهت نظره إلى الفرق بين «المترو» و «الأوتوبيس».

ـ أتريد يا دكتور أن تستغل هذا المنظر لكلمة في مجلة «الرسالة»؟

– أنت تعرف يا صديقي أني أنتفع من جميع مشاهداتي!

– وماذا ترى في هذا المنظر مما ينفع؟

– سأقول لقرائي وأقول ... سأقول: إن «المترو» حين يُعطب منه قطار تُعطَّل جميع القطارات، ولا كذلك الأوتوبيس.

– أوضح ما تعنيه بعض الإيضاح.

– المترو يسير في طريق مرسوم تحدده هذه القضبان، فهو في حقيقة الأمر مسجون؛ أما «الأوتوبيس»، فيسير في الطريق كيف شاء، وهو لا يعطل أخاه إن أُصيب بعطب في الطريق.

– وإذن؟

– وإذن تكون الحرية أساساً لكل فلاح.

– ثم ماذا، على حد تعبيرك؟

ثم تكون الأخلاق الفردية والقومية مما يتأثر بالتفاوت في مثل هذا النظام؛ فالرجل الذي يسير على منهاج واحد طول حياته يُعطَّل عن المسير من وقت إلى وقت، والأمة التي تلتزم خطةً واحدةً في حياتها السياسية والاقتصادية تعطّل عن الانتفاع بما يجد في الدنيا من تطورات وتغيرات.

(*) الرسالة في الخامس من اكتوبر / ١٩٤٢.

- أنت إذن لا تقول بالثبات على المبدأ .

- المبدأ هو الغاية ، وهي لا تختلف ، والوسائل هي الطرائق ، والطرائق تختلف من يوم إلى يوم باختلاف الظروف .

- ولكن الناس لا يفرقون بين الوفاء للغايات والوفاء للوسائل !

- وهل فهم الناس جميع الدقائق في الأخلاق الفردية والقومية؟

وسار المترو فانقطع الحديث .

* * *

المكتبة المصرية

المكاتب من أهم المقاييس في تقدير الحضارة والمدنيَّة، فهل عندنا مكاتب تمثل يقظتنا العقلية والأدبية ؟ لننظر أولاً في القاهرة، هل يوجد فيها مكتبة واحدة تمثل نهضة الأدب الحديث ، هل توجد مكتبة كل ذخيرتها مما أبدع المعاصرون في العلوم والفنون والآداب، لا تذكروا مكاتب الفجَّالة ، فهي على كثرتها مكاتب مدرسية ، والكتب المدرسية لو وضعت عند باعة الخبز والفول لذهب الطلبة فاشتروها من هناك، ولا تذكروا المكاتب الأزهرية ، فليس فيها كتاب من الأدب الحديث، وهي مع ذلك لا تمثل شوق المصريين إلى الدَّرْس، لأنها -في الأغلب- تُباع في غير مصر، ويقرؤها طلاب العلوم الدينية واللغوية في بقية الأقطار الاسلامية . فماذا يبقى في القاهرة من المكاتب؟ كان عندنا ناشر مصري هو صاحب المكتبة التجارية، وكان يهتم بالأدب الحديث ! ولكن الأيام علمته كيف يقبل على الكتب القديمة فيبعثها من مراقدها ليتصل بالمسلمين في جاوى والهند ، وتلك رجعة خطرة ستكون من مقاتل الأدب الحديث .

والاسكندرية ؟! من كان يظن أن تلك المدينة العظيمة ليس فيها مكتبة واحدة مصرية ، مع أن فيها مكاتب كثيرة لنشر المطبوعات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية. قد يكون فيها مكتبة أو مكتبتان من النوع الهزيل الذي يفضحنا إذا قيس بما هنالك من المكاتب الأجنبية . هذا والإسكندرية هي العاصمة الثانية وفيها من المدارس والمعاهد ما يغري بالتفنن في إنشاء المكاتب، لو كان عندنا قراء يقبلون على الأدب الحديث .

وبور سعيد ؟ إن القارىء يجب أن يعلم أن بور سعيد تزدان بطائفة من المكاتب الأجنبية ، وليس فيها مع ذلك مكتبة مصرية واحدة ، فكيف كتب الكسل والتغافل والخمود على أهل هذه البلاد ؟

وأسيوط ؟ أسيوط المدينة الرشيقة التي تعد عاصمة الصعيد ، هل فيها مكاتب مصرية ، وهل يستطيع المتشوف أن يصل إلى كتاب حديث وهو في تلك المدينة الحافلة بالأندية والمدارس والمعاهد .

وأسوان ؟ أسوان المدينة التي يؤمها ألوف الأغنياء والمثقفين في كل شتاء ، هل استطاع المستنيرون فيها أن يبيضوا وجه مصر بمكتبة واحدة تذكر بأمثالها في المدن التي يزورها كبار الناس ؟

إن فقر « المكتبة المصرية » عار على مصر ؛ وهذا العار يحمل أوزاره المتعلمون الكسالى الذين يقل تطلعهم وتشوفهم إلى ما يجدُّ في سوق العلوم والفنون والآداب . وبعض هذا العار يرجع إلى الأساتذة الذين يندر أن يحدثوا تلاميذهم عن كتاب جديد ، وكيف وأكثر المدرسين يبخل على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش ، وهم على غفلتهم يتعالمون ويتفاصحون ، لأن الزمن الغادر مكن الكسالى من دور التعليم والتثقيف ؟ !

في مثل مدينة القاهرة من المدن الأوربية والأمريكية توجد مكاتب خاصة بالطب ، ومكاتب خاصة بالقانون ، ومكاتب خاصة بالفلسفة ، ومكاتب خاصة بالأدب ، ومكاتب خاصة بالطيران ، ولكن عاصمتنا لا توجد فيها مكتبة واحدة تجمع ما أبدع المعاصرون في تلك الفنون ، فياضيعة العلم والأدب في هذه البلاد ! !

٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣
كتاب البدائع ص ٣٧

* * *

مصـــادر الأدب القـــديم(*)

ومراجع العلم الحديث

حضرة الصديق العزيز الأستاذ سامي الكيالي

سألتموني عما أرى في إحياء الأدب القديم، وما أرى في نقل المؤلفات الأوروبية إلى اللغة العربية، وهاتان مشكلتان حار في حلهما كثير من المفكرين، وإنما وقعت تلك الحيرة لأنه لابدّ للباحث من الرجوع إلى مصادر الأدب القديم ومراجع العلم الحديث.

ويؤلمني أن أصرح بأنّ العزائم تراخت في هذه الأيام عن إحياء الأدب القديم، ويكفي أن تذكروا ما صنعت مطبعة بولاق بالقاهرة لتعرفوا أنه لم يتفق لأية هيئة علمية أو أدبية أن تصنع ما صنعت تلك المطبعة في بضع سنين، ومن المحزن أن المؤلفين في تاريخ الأدب للمدارس الثانوية يسكتون عن تاريخ تلك المطبعة وتراجم مصححيها سكوتاً تاماً، ولو وفقهم الله إلى الحديث عنها لرجونا أن يخلق الشوق إلى إحياء الأدب القديم في بعض النفوس.

وما رأيك إذا حدثتك أن الجيل الذي سلف قام بأعباء ستعجز عنها سائر الأجيال، إن لم يرفع الغبار عن بعض ما نعرف من القلوب؟ لقد قام ذلك الجيل بطبع «تاج العروس» فهل تنتظر أن يطبع ذلك المعجم مرة ثانية؟ لقد قام الجيل السالف بطبع «شرح الإحياء» فهل يخطر ببالك أن ذلك الشرح سيطبع مرة ثانية؟ هيهات هيهات.

إن معجم «لسان العرب» وهو أعظم معجم عرفته اللغة العربية طبعه فيما سلف رجل، ثم كان جزاؤه أن يموت تحت أثقال الديون، فهل في أدباء هذا العصر من فكر في كتابة فصل ممتع، أو قصة شائقة، عن حياة ذلك الشهيد؟

(*) وحي بغداد: ص: ٧٩.

و«شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة» الذي نشرته مكتبة الحلبي فيما سلف، وكتاب « الأم » الذي ألفه البويطي ونسب خطأ إلى الشافعي، ونشره الحسيني، وكتاب «المخصص لابن سيده»، أترى تلك المؤلفات تنشر مرة ثانية على أيدي هذا الجيل الكسلان؟!

هناك فكرة ترمي إلى أن يقوم المجمع اللغوي في مصر بإحياء الأدب القديم ، وهذه الفكرة لها خصوم ولها أنصار ، فإن انتصرت يوما فسيحيا الأمل في بعث الأدب ، أما الجهود الحاضرة، جهود الأدباءالذين ينشرون مايقدرون على نشره من قديم المؤلفات ، فهي جهود مشكورة، ولكنها لن تصل بنا إلى ما نريد. وحسبك أن تذكر أن أدباء هذه الأيام لا ينشرون من المؤلفات القديمة إلا ما يعرفون أنه قريب من أذهان المتأدّبين لمتعرف أن هذا النوع من النشر سيقف عند الكتب التي تكثر فيها الأشعار والأسمار والأحاديث، ثم يعجز عن طبع الكتب العلمية التي لا تجد جمهوراً كبيراً من القراء.

وقد جربت هذا بنفسي فأحييت كتاب «زهر الآداب» وأحييت « الرسالة العذراء» أما «زهر الآداب» فقد راج وطبع مرتين، وأما «الرسالة العذراء» فلا تزال نسخها مكدسة في بيتي ، ولا أعرف أين أصرّفها، لأنها تبحث مسألة أدبية دقيقة لا يهتم بها غير الخواص ، والخواص في الأمم العربية لا يحيا بهم كتاب ، لأنهم يدّعون الإحاطة بكل شيء، وأكثرهم يضنّ على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش!

وما جربته بنفسي جربه أكثر المعاصرين، فهم يقفون فيما ينشرون عند الكتب التي يفهمها الجمهور ، ويحجمون عن نشر الكتب التي تنفع الخواص.

وهل هناك أعجب من قصة السيد رشيد رضا مع كتاب «دلائل الإعجاز» ؟ لقد حدّثنا في مقدمة الطبعة الثانية أنه لولا عناية وزارة المعارف لظلت الطبعة الأولى مهجورة لا تعرف غير الصناديق، وكذلك كان حال كتاب « أسرار البلاغة» الذي لم تنفد طبعته الأولى، مع أنه نشر منذ ثلاثين عاماً أو تزيد. . .

فيا صاحب مجلة الحديث تذكّر أن الأدب القديم لن يظفر بالحياة إلا إن وجدت له هيئة حكومية تسترخص في سبيله الألوف المؤلفة من الدنانير ، وتفرضه على الطلبة، والأساتذة أيضاً، إلى أن يخلق الذوق الأدبي الذي يحبب إلى الأفراد "ـمة التضحية في هذه السبيل.

وأما نقل المؤلفات الأوروبية إلى اللغة العربية فلي في شأنه اقتراح قديم أخذت به وزارة المعارف المصرية في عهد الوزيرالأسبق محمد حلمي عيسى باشا وألفت لجنة لتنفيذه، ثم سكتت عنه بعد أن فارقها ذلك الوزير. وخلاصة ما اقترحته على الوزارة أن تفرض على كل طالب من أعضاء البعثات أن يترجم إلى اللغة العربية كتابين من أمّهات الكتب في العلم الذي يخصص فيه، ثم لا تعدّ بعثته قد تمت إلا بعد أن يؤدي هذا الواجب، أي لا يمنح ترقية أو علاوةبعد عودته إلا يوم يتضح أنه نقل إلى أمّته شيئاً من العلم بترجمة كتابين عظيمين.

وكان من فروع هذا الاقتراح أن تقوم الوزارة بطبع تلك المترجمات ثم توزعها على المدرسين والموظفين والمتأدّبين بثمن مقبول، وكان من رأيي أن تخصم الحكومة من كل موظف عشرة قروش في كل شهر، ثم تعطيه في مقابل ذلك نحو عشرة كتب في كل عام، وبذلك تفرض الثقافة العلمية على جمهور الموظفين، ثم تنتقل العدوى العلمية إلى أبنائهم وإخوتهم ومن يتصلون بهم من الشباب والكهول.

ولا أزال أعتقد أن هذا الاقتراح سهل التنفيذ، فهل يمكن بعثه مرة ثانية بفضل نشره على صفحات الحديث؟

أرجو إن راقكم هذا الرأي أن تكتبوا في تأييده مرة أو مرتين فإن الذكرى تنفع المؤمنين، والسلام.

* * *

الجيش المرابط في الميادين الفكرية

هو جيش الأدباء الصابرين على مكاره الحياة الأدبية، وهي حياة لا يصبر على مصاعبها الثقال، إلا من تقهره الفطْرةُ على الأنس بالأدب في جميع الأحوال.

وقد شهد التاريخ واعترف بأن الأَمم لا يقام لها ميزان إلا يوم يثبت أن لها حظاً من الروحانية الفكرية والأدبية، لأن الفكر والأدبَ لا يكونان من أنصبة الشعوب، إلا بعد النضج المنشود في العقول والقلوب.

فما بالُ قومٍ يزعمون أن اشتغال بعض المصريين بالشؤون الفكرية والأدبية في هذه الأيام دليلٌ على أن مصر لا تشعر شعوراً صحيحاً بالمتاعب الدولية؟

هذا كلامٌ قيل في بعض المجلات، وأضيفَ إليه أن فلاناً لا يعيش في زمانه، لأنه نسي أن الدنيا في حرب، فشغل نفسه بالحديث عن الفروق بين رجال الأدب ورجال القضاء.

وأقول للمرة الأولى بعد الألف: إن الأديب المفكر ليس أجيراً لزمانه، وليس أجيراً للوطن ولا للمجتمع، فمن توهَّم أن الأديب المفكّر مسؤول أمام قوة غير قوة الضمير فهو من أكابر الجاهلين!

نحن نخدم الوطن بأقلامنا خدمة لا يعرفها المتحذلقون من عبيد الشواغل اليومية، نخدمه صادقين لا كاذبين، ولا ننتظر منه أي جزاء، لأن خدماتنا تجلّ عن الجزاء.

وماذا يملك الوطن حتى يكافىء المجاهدين من أرباب الأقلام؟

أيمنحهم الألقاب؟ أيمنحهم الأموال؟

وأي لقب أفخم من لقب الأديب؟ وأي ثروةٍ أعظم من روح الأديب؟

أستغفر الله، وأعتذر إلى الوطن الغالي.

فجزاء الأديب من وطنه مضمون مضمون، لأن الوطن لا يتحدث بأفراحه وأتراحه إلا إلى الأديب، ولا يجود بسرائره الروحية لغير الأديب، ولأن الوطن يأبى أن يكون أساتذته من طبقة غيرِ طبقة الأوفياء من الأدباء.

خُدّام الوطن في غير ميدان الأدب يُجْزَون بالألقاب والأموال، لأن خدماتهم تحتاج إلى تشجيع من ألوان الجزاء، أما خدّام الوطن في ميدان الأدب فهم أعزّ وأشرف من أن تصدّهم عن الواجب عوادي النكران والجحود.

وهل نخدم الوطن أو نحب طائعين، حتى نمنّ عليه بالخدمة والحب؟

هيهات ثم هيهات!

إنما نحبّ مصر الغالية مأخوذين بسحرها الأخّاذ، ومفتونين بجمالها الفتّان وهل في الدنيا أكرم أو أجمل من مصر؟

إن مصر لم تبخل بالعيش على من يحارب الأدب والبيان، ولو شئت لقلت: إن مصر تكرم أعداء الفكر والعقل تأسّياً بكرم الله، والكريم يُفضل على الطفيليين بأغزر مما يفضل على المدعوّين.

الدنيا في حرب، والقتال تدور رحاه حول الحدود المصرية، ومجلة الرسالة لا تجد قوتها من الورق إلا بشقّ النفس.

وبالرغم من هذا وذاك فجذوة الفكر في اشتعال، وصوت مصر الأدبي في ارتفاع. والعاقبة للصابرين.

الآن عرفتُك، ياوطني، عرفتُك عرفتك.

لا تستطيع الخطوب أن تُخرس بُلبلاً يغرّدُ في رياضك الغنّاء، ولا يملك الدهر أن يُسكت صرير القلم في صحائفك البيضاء.

وطني!

لو ظهرت أشراط الساعة، نذيراً بقيام القيامة، وخرست الألسنة وجفّت الأقلام، وشُغل المرء عن أخيه، وزوجته وبنيه، لرأيت من واجبي أن أرفع القلم لصوتك وقلمك، وأن أجعل آيتَكَ في البيان خاتمة آيات الوجود.

وطني!

أنت أقدم وطن وأعظم وطن خطّ بالقلم، وسطّر مآسي الأرواح، ومصائر القلوب، فإليك في اللأواء أهب سنان قلمي .

وطني!

إن جهلت مَن أنا، فإني أعرف مَن أنت، والحياة صراعٌ بين الجهل والعلم، واليأس والرجاء، وسأعرف كيف أجزيك على فنائي فيك

٦ يوليو ١٩٤٢

* * *

خواطر ليلة الميلاد(*)

كان لي مع هذه الليلة تواريخ في القاهرة وباريس، تواريخ أبدعها الجوّ الطروب أو الجوّ العبوس ، فقد كان يتفق في أحيان كثيرة أن تحمل ليلة الميلاد أكداراً ومنغّصات ، لأن الغالب في البيوت الفرنسية أن يكون الزوجان عاشقين، وأن تكون نيران الغيرة مما يُشَبُّ في ليلة العيد حول « شجرة الميلاد» . وما أسعدَ من يعيش وهو معذَّب بلواذع الوجدان!

ما أذكر مرةً أن تلك الليلة مضت دون عواصف، إلا أن تكون في بيوت فرغ أهلها من مصارعة الأهواء، وهي فيما عدا ذلك ليلة متاعب وكروب.

وهذه الظاهرة هي سر جمال هذه الليلة، فاصطراع العواطف ميلادٌ جديد، وقد يفعل فعل السِّحر في إحياء المشاعر والقلوب. كنت أقضي هذه الليلة في بيوت أعرف من أحوالها أشياء، فكنت أفهم الرموز والتلاميح، وكنت أجد التفاسير لبعض دقائق الأدب الفرنسي، وهو أدبٌ قام على أساس الفهم للسريرة الإنسانية، وسيعيش إلى أزمان وأزمان، ما دام في الدنيا ناسٌ يحبون الأدب الصادق الصريح.

ثم جاءت هذه الحرب فقضت في مصير فرنسا بما قضت، ولم يبق لأصدقائي الفرنسيين من زاد غير الحزن الوجيع، فأنا لا أزورهم في ليلة الميلاد كما كنت أصنع، ولا ألقاهم إلا في الحين بعد الحين، فهناك أحزان تؤرثها المواساة وتزيدها اشتعالاً إلى اشتعال.

وهنا أذكر أني عرفت أخيراً أن سقوط باريس لم يُحزن أهل باريس بقدر ما نتصور، ولم يشعرهم بمعاني الامتهان. وتفسير ذلك عند الأستاذ توفيق وهبة أنهم قومٌ تعودوا الهزائم والانتصارات، ولم تكن الدنيا في أنظارهم غير مواسم للانخفاض والارتفاع.

* مجلة الرسالة العدد ٤٩٦ في الرابع من يناير سنة ١٩٤٣ .

ولكني مع هذا أقرر أن حال الفرنسيين المقيمين بمصر يختلف عن حال مواطنيهم هناك، لأن المغترب يتعلق بوطنه تعلقاً لا يحسّه المقيم، وقد تأكد عندي هذا المعنى في الأعوام التي قضيتها في باريس وفي بغداد، فقد كان الخبر السيء يؤرق نَوْمي مهما صَغُرَ وهان، وكان أيّ حرف يُكتب ضد مصر يؤذيني، فأردّ عليه في الحال.

أكتب هذه السطور في ليلة الميلاد، وفي خيالي بيوتٌ عزيزة كنت أحب أن أراها وكانت تحب أن تراني. وسيقول قومٌ كلاماً كالذي قالوه يوم نشرت «الرسالة» مقالي في التفجع لسقوط باريس!

كانت فرنسا أمةً استعمارية فشمِت بانهزامها من يؤذيهم بَغْيُ المستعمرين، وفاتهم أن فرنسا أعطت جميع الشعوب دَرساً سينتفعون به حامدين أو جاهدين.

كانت فرنسا ترى أن اللغة هي عنوان الأمة، وكانت ترى أن الوطن الذي لا يسيطر بالفكر على خصومه ومنافسيه وطنٌ ضعيف. ومن أجل هذا أنفقت فرنسا ما أنفقت من الأموال ليكون لها مدارس في جميع البلاد، وبفضل هذه العناية صارت اللغة الفَرنسية لغةً دِولية، وصار من حق الفرنسي أن يعفي نفسه من العناء في تعلم اللغات، لأنه سيجد من يتفاهم معهم بلغته في أي بلد يتوجه إليه، ولو في الصين!

اقترحتُ في سنة ١٩٣٨ أن نُنْشيء مدرسة مصرية تنافس المدرسة الفرنسية في طهران، فلم أجد من يسمع كلامي. وأين من يعرف أن في طهران جريدة إيرانية لغتُها الفرنسية؟

فوجئت يوماً وأنا بدار المعلمين العالية في بغداد بمجموعات فخمة ضخمة من المؤلفات الفرنسية، وحين سألت عن مصدرها عرفت أنها هدية مرسلة من باريس.

وقد استوحيت هذا الشاهد فاقترحت فيما بعد أن ترسل وزارة المعارف المصرية هدايا من الكتب المكدسة في المخازن إلى المدارس الأجنبية، فترددت الوزارة عامين، ثم تلطفتْ فأهدت مجموعات هزيلة، مع أن في مخازنها مجلدات مهجورة ستباع يوماً بلا ميزان، لأن حراستها وصيانتها تجشمان الوزارة ضروباً من التكاليف.

كانت فرنسا تقوم بمبادلة الأساتذة والتلاميذ، لتعطي وتأخذ، ولتفيد وتستفيد، وقد أقامت في إحدى ضواحي باريس مدينة تبني فيها أية أمة لأبنائها ما تشاء، ولقد استفادت أممٌ كثيرة من هذه المزية، إلا مصر، ولهذا تفصيلٌ قد يتأذى «الشمسي باشا» من تسجيله في هذا الحديث.

ونحن اليوم في أوج صلاتنا مع الشرق، فعند الشرق مدرسون مصريون يعدّون بالمئات، ومع هذا لم تفكر مصرفي ردّ الجميل.

ما الذي يمنع من أن تستقدم مصر بعض الأساتذة من الشرق ليدرّسوا في معاهدها العالية بأساليبهم الخواصّ: فهذا في كلية الآداب، وذاك في دار العلوم، وذلك في كلية اللغة العربية، إلى آخر ما يصلح له علماء الشرق؟

ليس معنى هذا أن مصر في احتياج إلى مدرسين، وكيف وفي خريجي المعاهد العالية شبان أكفياء لا يجدون ما أعدوا له من المناصب التعليمية؟

إن لهذه المسألة وضعاً غير هذا الوضع، والمراد هو أن تفكر مصر في إتاحة الفرصة لبعض أساتذة الشرق، الفرصة التي تمكنهم من الوقوف على التيارات العلمية والأدبية في الديار المصرية، فمصر اليوم في ازدهار علمي وأدبي لم تشهد مثله من قبل، وهو ازدهار يوحي إلى الأساتذة أكثر َمما يوحي إلى الطّلاب، وقد يكون في وجود أولئك الأساتذة فرص لمنافسات علمية وأدبية تعود علينا بأجزل النفع، وقد يكون في وجودهم خير للطلبة الذين حضروا إلينا من بلادهم، فأنا ألاحظ أن أكثر الطلبة الشرقيين لا يجدون من يعاونهم على الاستفادة الصحيحة من الإقامة بهذه البلاد.

إن مصر في عهدها الحاضر تنشى تاريخاً جديداً في الشَّرْق، وهي في طريق الوصول إلى عقد معاهدات ثقافية مع أكثر أمم الشرق، وهذا يوجب عليها أن تعرف الشرق أكثر مما تعرف، فيكون لها فيه سفراء روحيون، ويكون عندها منه سفراء روحيون، لو دعونا جماعة من أساتذة الشرق ليحدثونا عما في بلادهم من تقاليد وآراء وآداب لحمدوا لنا هذا الصنيع، وعدُّوه تلطفاً يستحق الثناء.

ويظهر أنه لابد من إنشاء قلم بوزارة الخارجية لمراجعة ما يكتب عن مصر في جرائد الشرق، وتكون مهمته المبادرة إلى تصحيح ما يستوجب التصحيح، وتكون مَهَمَّتُه أيضاً أن يستصدر أعداداً خاصة من بعض جرائد الشرق للتعريف بمصر كالذي تصنع وزارة الخارجية في استصدار أعداد خاصة من بعض الجرائد الإنجليزية والأمريكية.

وهنا أشير إلى حادث ما ذكرته إلا شعرت بالحزن يعصر قلبي، في سنة ١٩٣٩ أصدرت مجلة «الحديث» ومجلة «العرفان» ومجلة «المكشوف» أعداداً خاصة بمصر، أعداداً نفيسة جداً، ومع هذا لم أستطع إقناع «وزارة المعارف» بأن تشتري من تلك الأعداد مجموعات لمكتبات المدارس، ليعرف الذين فكروا في التنويه بمصر أن كرمهم لا يضيع.

وفي تلك الأيام كنت أقترح على الأستاذ الزيات أن تصدر الرسالة أعداداً خاصة عن الأمم العربية، فرحَّب بالاقتراح وأجَّل تنفيذه إلى انقضاء الصيف، ثم بدا له بعد ذلك أن يواجه المشروع من جديد، فصدته أزمة الورق عما يريد.

مالي ولهذا الكلام؟

هذه ليلة الميلاد، والأثير ينقل إلى سمعي بعض ما يثور في شوارع مصر الجديدة من عجيج وضجيج، فكيف آثرتُ الاعتكاف في هذه الليلة، وقد تفضل شهر ذي الحجة فجعلها قمراء؟

لعلني أردت الخلوة إلى قلمي، وهو الأنس الأنيس عند اعتكار الظلمات في دياجي الزمان.

لعلني أردت بهذه الخطرات القومية أن أتجنب الخلوة إلى قلبي، وهو عدوٌّ صديق.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدواً له ما من صداقته بُدُّ

قضيت ما قضيت من حياتي في دراسة الجمال، حيثما كان الجمال، فأنا لا أضيف حرفاً إلى حرف إلا بميزان، وأنا أصادق وأعادي بوحي الذوق لا بوحي النفع، وما الموجب لأن أكون نفعيًّا وقد أغناني الله عن جميع الخلائق، ولم أعرف ما الظمأ والجوع في أي يوم، ولا جاز في وهمي أن أتصور أن الله قد يتخلى عني؟

لي صداقات كثيرة مع أرواح تنطق بالأوراق لا بالألفاظ، وأقسم جهد اليمين أن بحديقة داري في سنتريس أشجاراً يعتريها الذبول إن صدفتُ عنها أسابيع.

لي صديق هو اليوم أحد مدرسي الفلسفة بكلية الآداب وهو الأستاذ محمود الخضيري، وكان لي معه حديث في «إيسكوار مونج» في نوفمبر سنة ١٩٣٠، فما ذلك الحديث؟

كنت أجلس في بعض الضحوات « بذلك الإيسكوار»، وهو حديقة الحيّ في الاصطلاح الفرنسي، كنت أجلس تحت شجرة يؤنسها أن ترى رجلاً بيده كتاب، وكان أصدقائي من بعثة الجامعة المصرية يعرفون كيف يلقونني هناك. وفي ذات يوم حضر الأستاذ محمود الخضيري فوجدني أجادل رجلاً يحاول تشذيب تلك الشجرة بعنف، فأنكر عليّ ما أصنع، فقلت: إن الشجرة تصرخ، ومن واجب من استظل بظلها أن يدفع عنها العدوان. فقال: وهل يحس الشجر والنبات؟ فقلت: نعم، ويتألم الشجر والنبات كما يتألم الحيوان!

وبعد شهور حدّثتنا جرائد باريس أن جلالة الملك فؤاد قد استقدم عالماً هنديًّا اسمه «بوز» ليلقي في الجمعية الجغرافية محاضرات عن نظريته في إحساس النبات!

إحساسي بالوجود هو سبب عنائي، ولو عرف الناس هذا العناء لقاتلوني عليه، فهو أطيب الأطايب في ثمرات الحياة.

لم أدخل بلداً إلا أحببته أصدق الحب، لأني أرى بضميري وجه الله في كل مكان. وما صادقت إنساناً وغدرت به أبداً، لأني أرى الصداقة من أظهر الدلائل على صحة القول بوحدة الوجود.

وأنا أترحم وأتحسّر وأتفجع كلما رأيت إنساناً يكذب أو ينافق في سبيل العيش، فالموت الذي يخافه الناس لن يصل يوماً عن طريق الجوع. ولو نظر الناس في أسباب أمراضهم لوجدوها ترجع إلى الإفراط في الطعام والشراب ولو كانوا من الفقراء.

* * *

الفصل الثالث

الأدب السياسي

الأدب السياسي

كان زكي مبارك في بداية حياته عضوا في الحزب الوطن الذي كان يرأسه المغفور له محمد بك فريد ... وقد نظم قصيدة ونشرها على صفحات جريدة الأفكار التي كان يشرف عليها عبد اللطيف بك الصوفاني وكيل الحزب الوطني، وذلك حين رحل محمد فريد إلى عالم البقاء، وكانت تحت عنوان : «دمعة على رئيس الحزب الوطن المغفور له محمد بك فريد »وفي نوفمبر سنة ١٩١٩ حيث قال :

سلوا برلين عمن حلَّ فيها	يفتِّت كُبْدَهُ المرضُ العنيدُ
مضى يستوهبُ الأيام عمراً	تتم به المساعي والجهود
فلم يذهبْ بعلَّته طبيبٌ	ولم يُكتبْ له عمرٌ جديدُ
وخَرَّ على السرير وَحبٌّ مصرٍ	على تبريح علَّته يزيد
فما ضمن البقاءَ له صديقٌ	ينادي : لا عدمتكَ يافريد

* * *

فيا لهفي عليك وأنت كهلٌ	غريبٌ عن أحبته بعيدُ
تموت فلا ترى مثواك أمٌّ	ولا أختٌ ولا زوجٌ ودودُ
ولا يروي ثراك أخٌ شقيقٌ	بدمعته ولا طفلٌ وليد

* * *

فلا يشمتْ بمنعاك الأعادي	ولا يفرحْ ببلواك الحسودُ
فتلك بليةٌ لم ينجُ منها	على إشراق عزته الرشيد
ومن يك مثلنا حسباً ومجداً	تُشَجِّعهُ الصواعق والرعود
فإن يك سرَّهم منعى فريدٍ	فكل غضنفرٍ منا فَريدُ

* * *

ويقول : إنه بدأ يكتب في جريدة الأفكار منذ سنة ١٩١٤ .

ولقد شارك في الثورة المصرية عام ١٩١٩ ومن أشعاره فيها :

يقولون عام روعتنا خطوبه   وسالت به منا الدماء الدوافق

فقلت لهم لا تتبعوه ملامة   فقد بعثت فيه الأماني الصوادق

وكتب الكثير عن الاستعمار، وكان يخطب في المساجد والكنائس باللغتين العربية والفرنسية ... وكانت السلطة الانجليزية تبحث عنه لاعتقاله، فكان يبيت في الجامع الأزهرأثناء اشتعال الثورة، ولا يدخل غرفته في حي الغورية في الليل[1]، وقد حاصرها الانجليز عدة مرات فلم يجدوه، وقضى ثلاثة أشهر طريداً لا يعرف أين يبيت، وكان مأواه غرفة فوق سطح بيت في السبتية بحي القللي يقيم فيها عند أحد أصدقائه الشبان من سنتريس منوفية وهو أنيس ميخائيل، وفي إحدى الليالي مضى إلى المنزل وأوقد مصباحاً فاستهوته القراءة وهو يجهل ما سيقع، فقد طرق الباب طارق يقول: افتح الباب ياأستاذ... وكان الطارق مأمور قسم الدرب الأحمر ومعه خمسة عشر جنديا، وكان ذلك المأمور هو المرحوم الشيخ محمد فرج، وكان هواه -وكما يقول زكي مبارك- مع الثورة، فلم يعتقل أحداً من الثائرين إلا وهو راغم، فقد كانت أمور الحكومة إلى السلطة العسكرية .

يقول على صفحات ديوانه الثاني «ألحان الخلود» صفحة ٢٧ : إنه تمرد على الظلم كما تمرد أجداده، وكان أوحد خطباء الثورة المصرية عام ١٩١٩ فاعتقله الانجليز وصيَّرُوه «أسيرحرب».

ثم يقول : «إن أيام الاعتقال أورثته أحزاناً كثيرة». ولكنه استفاد من أيام الاعتقال لأنه عرف معنى الاغتراب في الحياة؛ وهو معنى جميل.

وعلى صفحة ١٨٨ في كتاب «ألحان الخلود» أيضاً يقول : «وقد أرسلت وزارة الداخلية مفتشاً اسمه محمد فتحي ليأخذ تعهداً من كل معتقل بأن لا يشتغل بالسياسة، فرآها المعتقلون فرصة للخروج عساهم يجدون للجهاد ميداناً أرحب من ميدان الاعتقال .

---

١ - من كتاب الهلال للأديب العربي المصري محمد محمود رضوان بعنوان : «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك» ١٩٧٤ صفحة ٣٣ .

أما أنا فرفضت إمضاء التعهد بصورة حاسمة وقلت : إنني وطني لا سياسي، ولن أخرج إلا يوم يرى هؤلاء الجنود أنه لا فائدة من حراسة رجل وحيد».

وبعد خروجه من المعتقل داوم على الكتابة في جريدة الأفكار؛ وفي سنة ١٩٢١ كان رئيسا لتحرير جريدة الأفكار.

يقول الدارس محمد جاد البَنّا في رسالته لنيل درجة الماجستير تحت إشراف الدكتور محمد رجب البيومي سنة ١٩٨٤ في كلية الآداب جامعة الأزهر فرع المنصورة، وكان موضوعها «المعارك الأدبية بين زكي مبارك ومعاصريه» يقول : «تولى الدكتور زكي مبارك رئاسة تحرير مجلة الرسالة إبان هروب الأستاذ أحمد حسن الزيات، -صاحب الرسالة- إلى مزرعته في ريف المنصورة خوفاً من آثار الحرب العالمية الثانية على القاهرة».

ويرى أن الأدب السياسي فَنٌّ جديد في اللغة العربية ... ويرى أن المجلات الأدبية تقدم للجمهور شواغل نبيلة بالحديث عن العلوم والآداب والفنون، ولو التفتت الحكومة لأدركت أن انتشار مثل هذه المجلات يريحها كثيراً - أو قليلاً- من شيوع الأكاذيب والأراجيف، ولذلك يرى زكي مبارك أن على الحكومة إعانة المجلات الأدبية.

ويقول على صفحات جريدة البلاغ في العشرين من أغسطس عام ١٩٤٦ : «إن من يكتبون في الشئون السياسية يكتبون في شئون تأخذ وقودها من المشكلات اليومية، أما الأدب فوصوله إلى القادة أصعب من الصعب لأن الدراسات الأدبية والفلسفية تستوجب مراجعات كثيرة، وتستوجب أن تكون في لغة يفهمها قراء

جريدة يومية لها جماهير فيهم العالم والمتعلم، والطالب والأستاذ والمتفلسف والفيلسوف».

وإذا كانت الحياة هي كتاب الأديب -كما يقول زكي مبارك - فإنه يرى أهمية الجلوس في القهوات، وفي ذلك يقول على صفحات جريدة البلاغ في الثلاثين من يوليو عام ١٩٥٠ تحت عنوان «مشكلة المشكلات» :

«المشاهير من الرجال يكثر حولهم القيل والقال بحق وبغير حق لأنهم عرضة لأنظار أهل الفضول. وأنا تعرضت لمتاعب كثيرة من هذا النوع، ولم ينفعني إلا شيء واحد وهو أنني لا أعمل شيئاً في الخفاء، فمن الوجهة السياسية لا يوجد ضدي حرف مكتوب في وزارة الداخلية، لأني لا استبيح الكلام في السياسة إلا في حدود ما يمكن نشره في جريدة يومية، وما لا أملك نشره لا أتحدث عنه في المجالس الخصوصية.

وإني أوصي من يرى شيئاً لا يرضيه من أعمال الحكومة أن يرسل به تقريراً إلى الوزير المختص باسمه الصريح، وكذلك حالي من الوجهة الدينية، فما أتحدث إلا بما يمكن نشره في جريدة يومية.

ولكن هناك مشكلة وهي الجلوس في القهوات لدراسة المجتمع، والعرف يرى أن هذا شيء غير مقبول، وأنا أرى غير ذلك، إن الاتصال بالناس يفتح أفاقا من معرفة أحوال الناس.

وأنا أسمع أن خلائق تتنابني فأتذكر حكاية إبراهيم لنكولن محرر أمريكا، فقد رأى ترقية قائد ينتصر في جميع المواقع، ولكن القوّاد اعترضوا بأنه يكثر من شرب الخمر، فقال لنكولن:

«اذكروا اسم الشراب الذي يشربه لأقدم منه هدايا إلى جميع الجنود».

وفي ظلال هذا الخيال نظمت القصيدة التالية: (*)

تولت أراجيف من يخلقون ... ذنوباً لكل كريم الخصال
لقد قتل الحق ما يأفكون ... حياة الأكاذيب أمر محال

وأنا حين أجلس في القهوة أتذكر السيد جمال الدين الأفغاني حين أقام في مصر، فلقد كان يجلس في قهوة بميدان العتبة الخضراء اسمها قهوة «الشرق» وقد لامه الناس على ذلك فقال: من حق الفيلسوف أن يجلس حيث يشاء ليدرس المجتمع.

سنة ١٩١٩ شبت الثورة المصرية ... ولما شبت الثورة المصرية فكر الإنجليز في حمل الرئيس ولسون على أن يصرح بأن مصير مصر موقوف على مفاوضات ودية

(*) القصيدة بكاملها في ديوان «قصائد لها تاريخ» طبع دار الشعب.

بين مصر وانجلترا، وكان لذلك التصريح أثر سيء في مصر ، ثم جاءت الأخبار بأن ولسون مريض فنشر الشاعر هذه الأبيات في جريدة الأفكار في يناير سنة١٩١٩ :

لعــمري لئـن أمسيت بالسقم ساهـرا
تخال الفراش الغَضَّ من وهج الجمر

فقــدأسهـرت يمـناك بـالأمـس أمــةً
رأت غــبنها فيــما قــضيت مـن الأمر

قمت خير محمود وإن شئت فلتعش
حـليف الضـنى بـين المـهانـة والثبر

وبعد أشهر أشيع أن الإنجليز رشوا ولسون وزوجته بهدايا مختلفة ، ولقيت زوجته عنتا من عمال الجمارك عند عودتها ، فنشر الشاعر هذه الأبيات :

إن الـهدايـا التـي راعـتك قـد ضـمـنتْ
ذهـــاب عـقلك لمـا غَـرَّك الــذهــبُ

سِيـقتْ إليـك فلـم يَخـْرُجْ بها شــرفٌ
يـذودُ عــنــك ولا دِيــنُ ولا حســبُ

عــهـــدي بقومك لا يرضون عن رجلٍ
أجـــلُّ مــا يبتغـيه المــالُ والــنشــب

فَالْـقَ الـعـقاب على ما نلت من تحفٍ
تشــكو الجِّــمارك بــلواها وتنـتحــب

وشاع بعد ذلك أن الرئيس ولسون يحتضر ، فنظم الشاعر عشرة أبيات وقدمها إلى الجريدة ، ولكن اتفق أن ذهب وزير أمريكا المفوض إلى وزارة الداخلية فاحتج على هذا الشعر ، واضطر المغفور له عبد اللطيف بك الصوفاني أن يتعهد بألا ينشر شيئاً من شعر زكي مبارك عن الرئيس ولسون ، وسحبت الأبيات العشرة من المطبعة ، ولم يحتفظ الشاعر بأصلها فضاعت .

والآن مع بعض مقالات زكي مبارك في عالم السياسة :

* * *

خطاب العرش
من الوجهة الأدبية

أخي الأستاذ الزيات!

أحب أن يتسع صدر «الرسالة» لموضوع لم يكتب فيه الباحثون من قبلُ: وهو نقد خطاب العرش من الوجهة الأدبية.

وأسارع فأذكِّر القراء بأن هذا الموضوع لا يحتاج إلى تحفظ واحتراس، لأن خطاب العرش ليس من إنشاء جلالة الملك، وإن كان يُلقَى باسمه الكريم، وإنما هو من إنشاء رئيس الوزراء، وهو الذي يحاسب عليه أمام الشيوخ والنواب، بآية ما نشهد من تأليف اللجان البرلمانية للرد عليه، في حدود قد تصل أحياناً إلى الصرامة والعنف، وقد تعرِّض الوزراء إلى تعديل بعض النصوص أو تستقيل.

ولعل هذا هو السرّ في أن جلالة الملك لا يُلقي خطاب العرش بنفسه كما يصنع حين يتفضل بتوجيه الرأي والتحية إلى شعبه في فواتح الأعوام وفي المواسم والأعياد.

وخطاب العرش في التاريخ الحديث يشبه «العهود» التي كانت تُكتب بأسماء الخلفاء في التاريخ القديم، ونحن نعرف أن كُتّاب «العهود» كانوا يُسألون عما يقع فيها من خطأ أو إسراف، لأنه كان مفهوماً أن الخلفاء لا يكتبون بأنفسهم تلك العهود، ولذلك تفاصيل يضيق عنها هذا المقال، وهي معروفة لجميع المطّلعين على تاريخ الحضارة الإسلامية.

إن خطاب العرش من إنشاء رئيس الوزراء، ولكنه يُلقَى باسم جلالة الملك: فمن الواجب أن يكون صورة رائعة من الوثائق الأدبية التي تمثل عظمة مصر لهذا العهد، فهل كان كذلك؟

إن صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا من رجال مصر المعدودين وهو في أنفُس خصومه أهلٌ للتبجيل، فمن حقنا عليه ونحن نؤمن بكفايته الذاتية أن نطمع في أن يَمنح خطاب العرش عناية خاصة من الوجهة الأدبية ليكون في نَسَق مع مطامحه العالية في خدمة البلاد، وليكون في طراز مع الخطب الجيدة التي كان يلقيها يوم كان وزيراً للمعارف في سنة ١٩٢٥.

وقد يمكن الاعتذار عن خطاب العرش بأنه خلاصة لآراء تصل إلى الرياسة عن مختلف الوزارات، ولكن تنوُّع المصادر التي تؤلف خطاب العرش لا يُعفي الرئيس من إنشائه بطريقة مُحكَمة تضعه في الصف الأول بين الوثائق الأدبية التي يعتز بها العهد الجديد: عهد فاروق بن فؤاد.

ولكن ما هي المآخذُ التي تُوجّه إلى خطاب العرش منَ الوُجهةالأدبية؟

نلاحظ أولاً أن فيه عبارات لا تقال في وثيقة رسمية كالعبارة الآتية:

«قد آن لنا أن نعمل وأن نلبي داعي الوطنية والإيمان، داعي الرجولة والتضحية والكفاح».

لأن الحكومة الجديدة ليست أول من يعمل حتى يشهد لها بذلك، وإنما عملُها حلقةٌ من سلسلة كونتها الحكومات المصرية من قبل، وقد شهد رفعة الرئيس بأن فيمن سبقوه رجالاً كانت لهم وطنية وتضحية وإيمان.

وكذلك نقرأ في خطاب العرش:

« وقد فطن جدي الأعلى محمد علي الكبير إلى الصلة المتينة التي تربط الجيش الوطني القومي بفروع الإصلاحات والإدارة العامة؛ فما كاد الجيش المصري يظهر في الوجود حتى ظهرت في البلاد إدارةمنظمة ومصانع ومعامل ومدارس لا عداد لها».

وليس هناك شكّ في أن المغفور له محمد علي الكبير نهض بمصر نهضة عظيمة، ولكن لا يقال: إن عهد محمد علي كان أول عهد لظهور الجيش المصري في الوجود، فإن معنى ذلك أن مصر لم تكن أمة مهيبة قبل أن تعرف محمد علي الكبير. والرأي الصحيح أن مصر كانت أمة لها وجود أدبي واجتماعي وسياسي، فلما جاء محمد علي عملت يداه في تنظيم ماكان في مصر من قوة أدبية ومعنوية،

فكان لها المكان الذي عرفته الأمم في التاريخ الحديث ... كان محمد علي الكبير تركيًّا، وكان يسرُّه بالطبع أن تكون لغة مصر هي التركية، ولكنه رأى بثاقب الفكر المبدع أن اللغة العربية من أقوى مظاهر القومية المصرية، فساعد على تقوية اللغة العربية ليتأصل حبه في القلوب المصرية، ومن كان هذا حاله لا يقال إن عهده كان أول عهد لظهور الجيش المصري في الوجود.

وفي خطاب العرش أن مصر لذلك العهد ظهرت فيها مصانع ومعامل ومدارس لا عِداَد لها، وجملة «لا عداد لها» جملة يراد بها التفخيم، ولكنها لا تُقبَل في وثيقة مثل خطاب العرش، لأن هذا مقام يفضَّل فيه القصد على الإغراق.

وماذا يريد الخطاب من العبارة الآتية:

«مصر مهد المدنية، وعلى يديها نهضت، ومنها خرجت وإليها تعود».

أيكون معنى ذلك أن المدنية خرجت من مصر إلى مَعاد؟

أيكون معناه أن المدنية يوم تعود إلى مصر ستفارق ماسواها من الممالك والشعوب؟

ويقول خطاب العرش:

«إن التفاتنا إلى الماضي لا ينسينا الحاضر، والذكرى تبعث الذكرى».

فما معنى عبارة: «والذكرى تبعث الذكرى» ؟ أيكون الحاضر أيضاً من الذكريات؟

ويقول خطاب العرش:

«ومما تطيب له النفس أن الأمة متعلقة بعرشها».

فهل يظن أن هذا مما يُنص عليه؟

إن تعلق الأمة بالعرش لا يحتاج إلى هذا النص، لأنه من البَدَهِيّات، ولأنه ليس من موضوع الخطاب.

ويقول:

«كان لابدّ من السير بسفينة البلاد في يقظة وأمن وحذر».

فما موقع كلمة «الأمن» بين اليقظة والحذر؟ لعله كان يريد كلمة: «الإيمان» أو «العزيمة» أو «الثقة» ولم يسعفه التعبير بما يريد.

ويقول بعد أن أشار إلى وجوب العناية بإصلاح جميع المرافق:

«فلا يجدي والحالة هذه أن نعدد برامج الإصلاح في الوزارات القائمة».

فما معنى «الوزارات القائمة»؟ وبأي حق يكون تعدد برامج الإصلاح شيئاً «لا يجدي»؟

إن خطاب العرش يريد أن يقول: إن المقام مقام إجمال لا مقام تفصيل، ثم ضاقت به العبارة عما يريد، فرأى تعديد برامج الإصلاح من الفضول!

ويقول في إعادة إنشاء المجلس الأعلى للتعليم: إن الغاية منه أن «تتحقق مصلحة البلاد العليا التي يجب أن تعلو على كل مصلحة أخرى».

فما موقع كلمة«كل مصلحة أخرى»؟ وما الموجب للنص عليها في هذا الخطاب؟

ويقول:

«وإن حرصنا على الدفاع عن أرض البلاد واستقلالها لا يحدُّه حد ولا يدركه وهن».

وعبارة «لا يدركه وهن» لا تخلو من وهن!

ويقول:

«إن تعاوننا مع حليفتنا سيكون أكبر رائدٍ لنا في العمل».

ونحن حلفاء الإنجليز، ولكن لا ينبغي أن نقول: إن ذلك التحالف أكبر رائدٍ لنا في العمل، لأن لنا إرادة ذاتية هي رائدنا الأكبر في السلم والحرب.

* * *

بقيت مسألة على جانب من الأهمية، وهي سكوت خطاب العرش عن الحياة الأدبية في هذه البلاد.

العمال موضع اهتمام، والفلاحون موضع اهتمام، والجنود موضع اهتمام، كل شيء في مصر موضع اهتمام في خطاب العرش إلا الأدب والأدباء، فكيف جاز ذلك، أيها الناس؟

إن خطاب العرش يتمدّح بما وصلنا إليه في توثيق الروابط الأدبية والثقافية بيننا وبين الأمم الشرقية.

فهل يذكر خطاب العرش أن أدباء مصر هم الذين رفعوا القواعد من تلك الروابط؟

وهل يرى الشرق مصر إلا في مرآة الآداب والفنون؟

إن الأدباء هم سفراء الثقافة المصرية في الشرق، فكيف يكثر على منشيء خطاب العرش أن يشير إليهم بكلمة تشجيع وهو يتحدث عن صلات مصر بأمم الشرق؟

إننا نعتب على رؤساء الحكومات المصرية أشد العَتْب، فلكل هيئة من الهيئات حظ من الرعاية والتشجيع، إلا جماعات الأدباء والباحثين الذين يُقْذون أبصارهم تحت أضواء المصابيح، فهم وحدهم المنسيُّون، مع أنهم يحملون أكثر الأعباء، ويؤدون للأمة وللدولة أعظم الخدمات، وبأعمالهم تظهر خصائص الشعوب.

أين حظ الأدباء من ألقاب التشريف ودعوات التشريف في المواسم والأعياد؟ وأين الوزير الذي يقترح رتبة لموظف أو غير موظف باسم المواهب الأدبية؟ بل أين من يعرف أن أدباء مصر رفعوا لِلُّغَةِ العربية مكاناً عَلِيًّا لم تعرف مثله في عهد بني أمية وعصر بني العباس؟

إننا نرفع هذا الصوت إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول راجين أن يضع سُنَّةً جديدة في تشجيع الأدب والأدباء.

* * *

الحديث ذو شجون(*)

بعض ما علمتني الأيام :

تلقيت عن الأيام دروساً تفوق العدّ والإحصاء، وإن كنت قليل الانتفاع بتلك الدروس... وهل ينتفع جميع الناس بما يتعلمون؟ لو كان ذلك لصرتُ أحكم الحكماء، فلي من الدهر في كل يوم درسٌ جديد، مع الوعي الصحيح لما أسمع من دروس الزمان.

ولكني مع ذلك انتفعت بدرس واحد، وأحب أن ينتفع به قُرّائي، فما هذا الدرس؟

هو الخوف الشديد من أحاديث المجالس، فأنا لا أتكلم أبداً في الشؤون الدينية أو السياسية أو الاجتماعية حين أقابل الناس أو حين أزور الأندية في بعض الأحايين، لأني أعرف أن التزيُّد والتحريف صارا من عيوب بني آدم في هذه الأيام، ولا يجوز ائتمان مخلوقات هذا العصر على مكنون الأفكار والآراء، لأن حظهم من صدق الرواية صار غاية في الغثاثة والهزال.

وذلك هو السر في إقلالي من غشيان الأندية والاتصال بالناس، حتى جاز اتهامي بالنُّفْرَة من بني آدم وإيثار العزلة والانفراد، مع أني في حقيقة الأمر رجلٌ ألوف، ولا أختار العزلة إلا طلباً للسلامة من التزيُّد والافتراء.

فما العبرة من هذا الدرس؟ وما الذي أنصح به قرائي؟

أنا أرى أن نخاطب الناس عن طريق الجرائد والمجلات، أو عن طريق المؤلفات، فلا نعلن رأياً إلا وهو نصٌّ مكتوب يعجز عن تحريفه المفترون، وإلا فمن حق كل مخلوق أن يتزيد علينا كيف شاء.

إن النصوص المكتوبة لا تسلم من تحريف المغرضين، فكيف يسلم الكلام المرسل في أحد المجالس وفيها أوشاب لا تعيش إلا من الإفك والإرجاف؟

---

* مجلة الرسالة ٤/ ٨/ ١٩٤١

إن التحريف الذي ابتُليتُ به آرائي المدونة في مقالاتي ومؤلفاتي قد آذاني، فكيف يكون حالي لو أرسلت نفسي على سجيتها وحدثت الناس بما أراه في الأدب والحياة؟

من الجريمة أن نحدث الناس في شؤون يُخاف عليها من التحريف، ومن الجريمة أن يكون اللسان وحده أداة التعبير وهو لا يرسل غير لفظٍ وصفه القدماء بأنه عَرَض سيَّال؟

يجب أن يكون القلم أداة التعبير في دقائق الشؤون، لأنه يحدد أغراضنا تحديداً يمكن الاحتكام إليه عند اشتجار الخلاف.

أقلُّوا من أحاديث المجالس، يا قُرّائي، لتسلموا من أكاذيب المفترين، فما وثق أحدَ بالناس في غير حذر ولا احتراس إلا سقوه الصاب والعلقم، وأكرهوه على الوقوع في الخطيئة الذميمة وهي اليأس من الثقة بإخوان الزمان.

ما الموجبُ للثرثرة في الأندية والمجالس وعندنا من الجرائد والمجلات ما يتسع لنشر ما نريد من الأفكار والآراء؟

ارحموا أنفسكم من أوزار التحريف لما يصدرُ عنكم واعرفوا جيداً أن المبادىء لا تخدَم بالقيل والقال بين أجواف الجُدران، وإنما تخدَم المبادىء بالقول الصريح الذي يعجز عن تحريفه أصحاب الأغراض المِراض.

ثم ماذا؟

ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم، فلا تقولوا في السر ما تعجزون عن نشره في العلانية، وما أوصيكم إلا بما أوصي به نفسي، فأنا لا أقول كلمة في مجلسٍ خاص إلا إذا عرفت أني أملك نشرها على الجمهور بلا تهيب ولا إشفاق، ولو شئت لقلت بدون أن يكذِّبني أحد المكابرين: إن لساني في غاية من التلطف والترفق، وإن اشتهر قلمي بالشطط والجموح، وما كان ذلك كذلك إلا لأني أكره المواربة وأبغض الاستخفاء، وما حقد عليَّ حاقدٌ إلا بما قلت فيه بكلام منشور في الجرائد والمجلات يملك الرد عليه حين يشاء. أما إيذاء الناس في السر فلا أستطيعه أبداً، لأن اللّه تباركت أسماؤه عصمني من رذيلة الاغتياب، فله الحمد وعليه الثناء.

* * *

أحاديث العيد(*)

لم نقل مع المتنبي : «عيدٌ بأية حال عُدتَ ياعيدُ»[1] فقد وصل ونحن بعافية، فلله الحمد وعليه الثناء، أدام الله علينا وعلى قرائنا نعمة الشعور بكرمه الموصول.

١ - في يوم العيد وصل خطاب من الأستاذ حافظ محمود يقول فيه : إن هجوم السيد حسن القاياتي مدسوس عليه، وإنه لم يخطّ بقلمه حرفا مما دار حوله الجدال في الأسابيع الماضية، ويدعوني إلى كتابة كلمة ترضية يَطيب بها قلب ذلك الصديق.

وأقول : إن المعلومات التي تضَمّنَتها الخطابات المنشورة باسم الأستاذ القاياتي معلومات مريبة لأنها متصلة بشؤون لا يعرفها سواه، فإن لم يكن هو الكاتب فلن ينكر أنه مصدر المكتوب، وبهذا يقع عليه شيء من المسئولية.

ثم أقول : إنه كان يستطيع تكذيب مانشر باسمه لأول مرة فينحسم الخلاف قبل أن يطول، ولكنه سكت نحو خمسة أسابيع، ثم بدأ في التشكي من العدوان عليه، وهذا من أغرب ما يقع في معاملات الناس.

وأنا مع هذا أعتذر للصديق عما بدر مني في مساجلته، وأعلن أني أعتز بصداقته كل الاعتزاز، وأني لن أسمع فيه كلاما ولو نَشر بنفسه في مغاضبتي ألف خطاب.

وهنا أذكر مذهبي في معاملة رجال الأدب ورجال السياسة، وهو مذهب يستحق التنويه ويَصلحُ للاقتداء، فما ذلك المذهب؟

---

* مجلة الرسالة ١١/ ١٠/ ١٩٤٣.

١ - شطر بيت جعله المتنبي مطلعاً لداليته في هجاء كافور الإخشيدي، وتمام البيت :

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم بأمر فيه تجديد

خلاصة هذا المذهب أني لا أتكلم عن أهل الأدب والسياسة بما يشبه النقد في أي مجلس، لأن الكلام عُرضة للتزيّد والتحريف، وإنما أكتفي بما يخطه قلمي في الجرائد والمجلات، إن طاب لي أن أناوش أحد الرجال.

وأذكر أيضاً أني أعيش في عزلة بعد الرجوع من عملي إلى بيتي، فما يحتاج إلى غشيان الأندية غير من يعيشون بمنجاة من متاعب الواجبات، وأنا أحمد الله الذي تفضل فأكثر من أعبائي في حياتي، بحيث لا أجد فرصة لمسامرة المعارف والأصدقاء، فمن زَعَمَ أنه رآني وأني حدثته عن فلان أو علان بكيت أو كيت فهو من الكاذبين.

* * *

ماذا ربحت وماذا خسرت
من أسواق السنة الماضية؟

كتب إليّ أحد تجار الورق يقول : إنه يرجو أن أرسل إليه ما بقي له عندي ليسوي حساب تجارته في سنة ١٩٣٩ .

وأنا أيضاً أريد أن أسوي حسابي مع قومي وزماني، حساب سنة ١٩٣٩ فقط، أما حساب الأعوام السوالف فهو عبء ثقيل والرجوع إليه ضربٌ من الخذلان. وأين أنا مما فات ومات؟ يرحم اللّه جهادي في سبيل الأدب والبيان!

ربحت في العام الماضي أشياء، وخسرت أشياء!

وأعظم ربح ظفرت به في السنة الماضية هو الصداقة العظيمةالتي تفضل بها قراء مؤلفاتي ومقالاتي، فأنا اليوم أشعر شعوراً قوياً بأن لي أهلاً وعشيرة في سائر الأقطار العربية، وهذا الشعور يزحزح ما يعترض طريقي من عقبات وأشواك، وبفضل ذلك الشعور أكاد أنسى الأعاصير التي تثور في وجهي من حين إلى حين.

والكاتب كالموسيقار يسره أن يعرف أنه موصول الأواصر بالعواطف والقلوب، فمن حدثكم أنه لا يهتم بسخط القارىء أو رضاه فاعرفوا أنه يقترف إثم الغرور البغيض، أو الكذب السخيف.

وتعظُم قيمة هذا الربح في قلبي كلما تذكرت أنه بشيرٌ بقيام دولة قوية للأدب العربي، وهو أدب كان يسيطر في ماضيه على كثير من الأمم والشعوب، فإن استطعنا أن ننتفع بعواطف القراء ونجذبهم إلى الأدب من جديد كان ذلك مجداً ندفع به عُدوان أهل البغي على الآداب والفنون.

وما الذي يمنع من أن يكون للقلم دولة في هذه البلاد؟

آتصدِّقون ما يمليه الضجر على أقلامنا من وقت إلى وقت حين نَتَّهِم مصر بالجحود والعقوق؟

إن مصر في تاريخها القديم والحديث قد استمعت كل قول، واستجابت لكل نداء، فكيف يتوهم الكاتبون والباحثون أنهم لن يلقَوا فيها غير الضياع؟

* * *

ثم أقول: إن العام الماضي كان من الأعوام التي اختبرت فيها أخلاقي. ومعاذ الأدب أن أدَّعي التفرد بكرم الأخلاق، وإنما هي حيلة أتوسل بها لخلق فرصة أنوح فيها على أخي وصديقي محمد الهراوي. وهل ذرف الزيات من الدموع على ابنه رجاء، أو ذرف هيكل من الدموع على ابنه ممدوح، بعض ما سكبت من دم القلب على صديقي محمد الهراوي؟

كان من عادتي أن أرتاد ملاهي القاهرة في المواسم والأعياد لأفهم شيئاً من أسرار المدينة التي تصنع اليوم بأذواق الشرق ما تصنع. فمن يصدِّق أن شارع فؤاد صار في عيني صورة من صور الإقفار والإمحال، لأنه خلا من وجه الصديق الغالي، وجهِ محمّد الهراوي، وجه الأخ الذي عرفتُ بفَقْدِهِ كيف يكون الجزع على فقد الرفاق.

وهل تسمح الدنيا مرة ثانية بصديق مثل ذلك الصديق؟

وأين الصديق الذي تصحبه عشرين سنة فلا ترى منه غير كرم العهد وصدق الوفاء؟

أين الصديق الذي يرى من السعادة أن يكون رأيه من رأيك وهواه من هواك؟

إن دموعي على محمد الهراوي دلتني على جوانب من أخلاقي، وشرفتني أمام نفسي، وفرضت عليَّ أن أومن بأني رجل له قلب. فلا كان الصبر عنك يا أكرم ذاهب وأعزَّ فقيد.

* * *

وكان من مغانم السنة الماضية أن تصير اللغة العربية لغة الدرس في كلية الطب وكلية العلوم، وهي دعوة عانيت فيها من الشقاء ما عانيت. فمن قال: إنه دعا إلى

هذه الفكرة مرة أو مرتين أو مرات فأنا جعلتها حلماً أهتف به في يقظتي ومنامي أكثر من خمس عشرة سنة. وبسبب الإلحاح في نشر هذه الدعوة رآني بعض أقطاب الجامعة المصرية من الثقلاء، وأوصدوا في وجهي كثيراً من الأبواب. فإن قال أعضاء المؤتمر الطبي العربي بعد أسبوعين: إنهم قرروا تدريس الطب باللغة العربية في كلية الطب بالقاهرة فليذكروا مشكورين أنهم سفّهوني علانية يوم التقينا في بغداد سنة ١٩٣٨.

* * *

وفي العام الماضي قُدِّمت لكلية الحقوق رسائل لامتحان الدكتوراه باللغة العربية، وقال قائل: إن في ذلك مجاراة للنزعة القومية، فمن واجبي نحو نفسي، وأنا رجل مظلوم في وطني، أن أقول: إن ذلك لم يقع إلا طلباً للسلامة من القلم الذي شن الغارة على من يقبلون رسالة باللغة الفرنسية عن (الدّية في الشريعة الإسلامية) ولتلك المعركة ذيول فصلتها في كتاب «البدائع» وفي رسالة «اللغة والدين والتقاليد» وفي كتاب «الأسمار والأحاديث» فإن غضب وزراء المعارف الذين حاربتهم من قبل فليعرفوا أني أديت إليهم بذلك التوجيه أعظم الخدمات. وحسبهم من الشرف أن يسمعوا كلمة الحق من رجل ليس له في الحكومة عمٌّ ولا خال.

* * *

وفي العام الماضي قررت وزارة المعارف تأليف كتاب للمطالعة في المدارس الثانوية من صميم الأدب الحديث، وأنا صاحب هذا الرأي، وقد شغلتُ نفسي بالدعوة إليه أكثر من عشر سنين.

* * *

وفي العام الماضي قضت الظروف بأن تقبل وزارة المعارف إسناد تعليم اللغات الحية في المدارس الثانوية إلى المصريين، فليتها سمعت الدعوة التي أذعتها منذ أعوام طوال، الدعوة إلى أن يكون مدرسو اللغات الحية من المصريين لنخلق جيلاً من المتفوقين في اللغات الأجنبية، وليكون بيدنا الأمر في تكوين الثقة بالعزيمة الوطنية.

وفي العام الماضي ... ما هذا ؟ ما هذا ؟

أراني أنحدر إلى هاوية المنّ الممقوت، فلأرجع إلى تدوين ما خسرتُ في السنة الماضية:

في سنة ١٩٣٩ نسيت أني موظف بالحكومة المصرية فوقع قلمي في أغلاط لا يقع فيها الموظفون «العقلاء».

أنا من كتّاب الطبقة الأولى بشهادة أعدائي، ولكني لم أخط خطوة واحدة في كسب حق جديد لحرية الأقلام. كنت أستطيع أن أنتفع بالدكتور هيكل باشا، ولكنني لم أقابله إلا حين دعاني ، وقد هجمتُ عليه في (جريدة المصري)مرتين. وكنت أستطيع أن أنتفع بمعالي النقراشي باشا، وهو رجل مُشرق العقل، ولكني قصرت فلم أقابله غير مرتين، كنت في الأولى مهنئاً، وهي زيارة لا تتسع لبحث ولا درس، وكنت في الثانية مقروناً بجمهور المفتشين بالتعليم الثانوي، وهو مقام لا يتسع فيه المجال لغير الشؤون الرسمية.

أليس من سوء البخت أن يكون لنا وزير مثل النقراشي باشا ولا أظفر منه بشيء لحرية الأقلام؟

* * *

كنت أحب أن أطلب إجازة طويلة لعام أو عامين لأحقق مشروعاً عجزت عن تحقيقه في بغداد، وهو تأليف كتاب عن أبي تمام إمام المبتكرين في القرن الثالث، فهل شغلت نفسي بتقديم هذه الرغبة إلى معالي النقراشي باشا وهو من وزرائنا الأدباء؟

وكنت أحب أن أقترح إنشاء قلم خاص بمراجعة ما يُكتب عن مصر في الأقطار العربية ، فهل شغلت نفسي بتقديم هذا الاقتراح إلى رئيس الوزارة المحمدية أو رئيس الوزارة الماهرية؟

دونت هذه الآراء في كتاب «ليلى المريضة في العراق» ولكن مَنْ يضْمَنُ أن يكونَ هذا الكتاب مما يقرأ الوزراء؟

ماذا خسرتُ في العام الماضي؟ ماذا خسرت؟

كان عندي مشروع عظيم هو ربط الأمم العربية والإسلامية برباط وثيق من الحب والعطف.

فما الذي صنعت لتحقيق ذلك المشروع العظيم؟

ضيعت العام الماضي- وأسفاه! - في مجادلات ومشاغبات نفعُها قليل، وانصرفت عن تحقيق ذلك المشروع الجليل.

فمن يُسعدني على بكاء ما ضيعتُ من أمانيّ وأحلامي؟

* * *

وكان في نَيتي أن أخلق عُصبةً للخير من أصدقاء كلية الآداب كنت أحب أن أنظّم سلسلة للدراسات الأدبية والفلسفية أصنع بها في القاهرة بعض ما يصنع أساتذة كلية الآداب في الجيزة، فأين أنا مما أردت ؟ وأين ما صنعتُ لكلية الآداب وفوق ثراها سكبت عُصارة صباي؟

* * *

وكان في نيتي أن أكوّن مكتبة عظيمة مما أصدر المتخرجون في كلية الآداب ثم أسوقها في عربات رزينة إلى قصر صاحب الجلالة الملك فأين ضاعت تلك النية؟ وما مصيرها في تاريخ العقول؟

* * *

وكنت أحب أن أقوم بدراسات قوية أحدد بها اتجاه الأدب الحديث في مصر والمغرب والشام والعراق، فأين من يعزيني على ضياع هذا الأمل الغالي؟

* * *

وكنت أشتهي أن أزور الحجاز لأكتب عن وطن الرسول كتاباً لا يعرف الزور ولا الرياء، فأين ضاعت أحلامي؟

* * *

وكنت أتمنى أن أؤرق غفوات المغرورين من «أعلام» الأدب الحديث، فإلى أي أفق من آفاق الضياع ضاع أملي في تأديب أولئك «الأعلام»؟

* * *

كنت وكنت وكنت، فما الذي صنعتِ السنةُ الماضية بأغراضي وأحلامي[1]؟

* * *

---

[1] مجلة الرسالة ٨ / ١ / ٤٠

تلك أيام خلت

في الكلمة الماضية دونتُ بعض ما ربحت وبعض ما خسرت؛ وسأقصر كلمة اليوم على التنويه بأمور ينفعني النظر فيها من وقت إلى وقت، فإن صح أني قليل الاعتبار بحوادث الأيام، فقد يكون في القراء من ينتفع بالعِبرة التي يسوقها هذا الحديث. وآفة الأدب في بلادنا أن الأدباء لا يتحدثون عن عيوبهم إلا قليلاً، وهذا التحرز من سرد العيوب قد يوهم فريقاً من القراء بأن الأدباء تعصمهم مواهبهم من الوقوع في الأغلاط والهفوات. ولو أنهم عرفوا أن الأديب يخطىء ويصيب كسائر الناس، لأدركوا أن التفوق في الأدب ميسور لكل من يتوجه إليه، وهو مزوَّدٌ بقوة العزيمة، ورجاحة العقل، وصدق الوجدان.

فما الذي فاتني من الفوز والنصر في السنة الماضية حتى أرجع على نفسي باللوم والتثريب؟

أعتقد أني ضيعت على قلمي فُرصاً لن تعود: كنت في العام الماضي مرهف الإحساس، ولكن قلمي لم يستفد من ذلك. والكاتب المخلص لفنه لا يترك عواطفه تتبخر وتضيع، وإنما يسارع إلى الاستفادة من فَورتها، فيكتب وهو مشبوب القلب ليستطيع السيطرة على القلوب...

وما أقول: إني انصرفت عن مصاولة الأزمات الوجدانية، فقرّاء «الرسالة» يذكرون أني كنت أواجههم بهذه الشؤون من حين إلى حين، ولكني أعترف بأني ظلمت نفسي أقبح الظلم حين تغافلت عن تسجيل ما كان يثور في صدري من العواطف في بعض الأحايين.

حدثني الأستاذ الزيات قال: إن بعض القراء لا يستريحون إلى بعض ما تكتب في الشؤون الوجدانية، وإن مِنَ الخير لمن كان في مثل مركزك أن يقف عند حدود الأدب الرزين!

و «بعض القراء» هم المشايخ الذين يسمُرون في نادي «الرسالة»، ليجادلوا الزيات فيما يباح وما لا يباح من المذاهب والآراء، وفيهم من لا يرضى عن كاتب مثلي إلا إن شغل نفسه بشرح «دلائل الخيرات»!.

والحق أني راعيت رأي هذا الصديق بعض المراعاة، والزيات صديقٌ أمين، والانتفاع برأيه من أوجب الفروض، ولكن كيف كانت العواقب؟

أضعت على نفسي وعلى «الرسالة» فُرصاً لن تعود... وهل أملك ردّ العواطف التي ثارت ثم خمدت في تباريح السنة الماضية؟ «تلك أيامٌ خلتْ»، ولن يردّها أسفٌ ولا بكاء!

إذا صح أني مفطور على إحساس الفرح والحزن في الحياة، وإذا صح أني أقوى ما أكون حين أفرح أو حين أحزن، فكيف يضيق صدر وطني وزمني عن سماع سَجعاتي وزفراتي؟ وبأي حق يحرُم عليَّ ما يباح للشعراء في جميع البلاد؟

وهل تصدّقون أن الناس يكرهون حقيقة أن نحدثهم عن أزمات الأفئدة والقلوب؟

وهل صَدَق الأستاذ فكري أباظه حين حدّث الناس عن طريق المذياع باندهاشه من أن يسمع أغاني الهجر والوصل والدنيا في حرب؟

وهل تظنون أن هذا الخطيب يقضي أيام الحرب في التخشُّع والقنوت أمام المحراب؟

الدنيا في حرب، وسيعقُب الحربَ سلامٌ بعد عام أو عامين، ولكنكم تنسون أن الشاعر يعاني حرباً لا يصدّ شرها عنه غير الموت، إن صح أن الموت يريح أرواح الشعراء من البلاء بالتفكير في أسرار الوجود.

وما الذي يوجب الخضوع للأفكار العاتية التي تتوهم أن الحرب تقدر على زلزلة السريرة الإنسانية؟

الحرب تستطيع أن تصنع بالسريرة الإنسانية ما تصنع العواصف بأمواج المحيط، فهي تُقلقل المنافع من وقت إلى وقت، ولكنها تعجز عن اقتلاع ما في السرائر من جذور الحب والبغض والهدى والضلال.

والشاعر ينظر إلى من حوله من الناس نظرات مختلفات: فيرى بكاءهم مرةً بكاء أطفال، ويراه مرةً زئير أسود. فالطفل لا يذكر من الحرب غير تنقل «التسعيرة» من وضع إلى وضع، ويكون مَثَله مَثَل الطباخ الذي انزعج لارتفاع أسعار القطن لأنه رأى ذلك نذيراً بارتفاع أسعار الزيت!

أما الرجل - والشاعر الحق هو الرجل الحق- فيرى أن الحرب لا تكون سيئة العواقب إلا إن استطاعت بفواجعها أن تقتلع من السريرة الإنسانية جذور الإحساس بمعاني الحياة... وهل في الحياة معانٍ أشرف وأفضل من الحرص والشره والطمع في انتهاب أطايب الوجود؟

شغلتُ نفسي مرةً بتأريخ ملاهي الحي اللاتيني في باريس، فجمعت أكثر من خمسين كتاباً تحدث مؤلفوها عن ملاهي ذلك الحيّ، ثم راعني أن ألاحظ أن تلك المؤلفات كُتبت قبل الحرب العالمية، فعرفت أن الباريسيين بعد تلك الحرب فقدوا شعورهم بتذوق الحياة فلم يعودوا يهتمون بتسجيل ما يصادفهم من النعيم في ذلك الحيّ البهيج.

فإن استطاعت الحرب الحاضرة أن تشغلنا عن أحاديث الهجر والوصل فسيكون معنى ذلك أننا صرنا أطفالاً ضعافاً لا يهمهم من الدنيا غير اعتدال أسعار «اللُعب والصواريخ»!

أقول هذا وفي مكتبي مقال لم يسمح بنشره الأستاذ الزيات، لأنه خشي أن يفتح لخصومي باب الأقاويل والأراجيف، وهو مقال سجلت فيه إحساسي بفراغ شارع فؤاد من أقدام المِلاَحِ يوم تجربة الغارة الجوية. فهل من الحق أن الحرب رجَّت مصر رجةً تذهب بما يملك شعراؤها من عواطف وأحاسيس؟

وهل من الحق أن أهل مصر لم يعودوا يأنسون بغير حديث البقول؟

أعترف بأني توجعتُ مرة على صفحات الرسالة من غلاء الورق، وذلك توجُّع مشرِّف، لأن الأمة التي تشكو غلاء الورق هي الأمة التي تُعزّ الأفكار والعقول، وكل شيء في دنيانا من الكماليات إلا الورق فهو عندنا من الضروريات، والمصريُّ المثقَّف قد يكتفي بالقليل من القوتِ، ولكنه لا يستغني أبداً عن زاده من الحِبر والورق.

ونحن قومٌ آذتنا الظروف الدولية أقبح الإيذاء، فليس لنا من السيطرة الاقتصادية أو الحربية ما للأمم الديمقراطية أو الديكتاتورية، ولكن لنا مع ذلك سيطرة عقلية نصول بها في أقطار الشرق. ولو شئتُ لقلت: إننا نملك من هداية الشرق ما لا يملك الانجليز والفرنسيس والألمان، ولهذه الدولة الروحية سلطانٌ يحسدنا عليه من يملكون في تصريف السلم والحرب ما لا نملك، فليس من العجيب أن نشكو غلاء الورق في زمن لا يشكو فيه المسيطرون غير غلاء القُوت.

والشرق ينتظر أن نحدثه عن نفسه بما لا يعرف.

فكيف يغيب عنا أن من الواجب أن نكون أفصح من يذيع في الشرق أحاديث السريرة الإنسانية؟

استيقظوا، أيها الغافلون، واعلموا أنكم لن تكونوا شيئاً مذكوراً إلا إذا استطعتم أن تشغلوا الشرق عما في الغرب من ألحان وأغاريد.

هل فكر واحد منكم فيما عرف الشرقيون من الآداب الفرنسية والإنجليزية؟ وهل خطر في بالكم أن في الأقطار الهندية والأفغانية والإيرانية أقواماً يقرؤون عن العقول الفرنسية والانجليزية أضعاف ما يقرؤون عن العقول المصرية؟ وهذا يقع مع أن مصر في هذا العهد تستطيع أن تكون قيثارة ترجِّع ألحان السماء لو تركت التزمت الممقوت الذي يفرض التغاضي عن أحاديث القلب والوجدان. سألني أحد الأصدقاء منذ أيام عن الظروف التي ألفت فيها كتاب (التصوف الإسلامي) وهو يتوهم أنني لم أذق قطرة من رحيق التصوف، فقلت: ذلك كتابٌ زكّيتُ به عن قلبي. فقال: وهل على القلب زكاة؟

فقلت: آفة الآفات أن تظن أن الزكاة لا تجب على القلوب والأحاديث الوجدانية التي أهتف بها من حين إلى حين هي نفحة من نفحات التصوف، فكيف يراها بعض القراء من مظاهر الفتون؟ وكيف يرى صديقي الزيات أن نشرها يقوّي حجة خصومي وأعدائي؟

بل كيف استبحت ظلم نفسي فلم أهجر مجلة الرسالة لأتحدث عن فؤادي بما أشاء؟

تلك أيامٌ خلَت! فمتى أرجع إلى مناجاة أوهامي وأحلامي؟

إن الحديث عن الظواهر لا يحتاج إلى عبقرية، أما الحديث عن ضمائر النفوس وسرائر القلوب فلا ينهض به غير أفذاذ الشعراء. فمتى أجد آذاناً تطرب لأسجاع الروح المفتون بتهاويل الوجود؟ ومتى أجد قلباً يسمع وسواس قلبي؟ ومتى أجد روحاً يأنس بغناء روحي؟

هل سمعتم بما صنعت وما تصنع مشيخة الأزهر؟

هي تستعدي الحكومة المصرية على كل من يطبع كتاباً دينيًّا تقع فيه غلطة نحوية أو صرفية أو إملائية!

فهل علمتم في يقظة أو في حلم أن مشيخة الأزهر شغلت نفسها بطبع طائفة من الكتب الدينية؟

كذلك يصنع معي خصومي وأعدائي، فلا هم يؤدّون زكاة القلوب، ولا هم يسكتون عمن يؤدي زكاة القلوب.

زُرْتُ السيد آل كاشف الغطاء في النجف على غير معرفة فقال: من أيٍّ بلد قدمتَ أيها السيد؟ فقلت: قدمت من وطن ابن الفارض. فقال: وطن الذي يقول:

كـل من في حماك يهواك لكن أنا وحـدي بكـل من في حماكا

فقلت: بل وطن الذي يقول:

أنت ورد فَهَبْ مـحبّك شوكا أترى الـوردَ عاش من غير شوك

فإن كنتُ من الشوك فلابأس، فالورود لا تعيش إلا في حماية الأشواك، والروح اللطيف لا يعيش إلا في قفص من الجسم الكثيف.

وسمعت في الأيام الأخيرة أن إحدى المجلات تنوشني منذ أسابيع فرفضت الاطلاع على تلك المجلة لأني أخشى أن تروّضني على الشراسة والحقد، وأنا أحب مسالمة الناس لأفرُغ لمحاربة قلبي، القلب الجامح الذي يقهرني على الوفاء لأقوام لا يعرفون معنى الوفاء.

ثم ماذا؟ سأتحدث في الأسبوع المقبل عن لواعج وشجون يضيق عنها حديث اليوم.

* * *

الشعب هو المسئول
عن الاصلاح الاجتماعي(*)

أخي الأستاذ الزيات!

ليتك شهدت المناظرة التي أقيمت بكلية الآداب في مساء الأحد الماضي، لترى مبلغ ما وصلنا إليه من حرية الفكر والرأي، ولترى كيف يستبيح ناسٌ إيذاء إخوانهم بلا استبقاء، ولترى أيضاً كيف تطغى العامية الفكرية على بعض من وُسموا بالتثقيف.

وسأصف جوَّ تلك المناظرة بإيجاز، أداءً لحق «الرسالة»، فمن قرائها ألوفٌ يحبون أن يعرفوا كيف يشتجر القاهريُّون في ميادين الحجج والبراهين.

كانت المناظرة برياسة معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية، وقد سُبِقت بحفلة شاي أعدها عميد كلية الآداب ترحيباً بالوزير وبالمتناظرين وكبار المدعوين.

وبعد الشاي رأينا الوزير ينتحي ناحية ليراجع خطبة طويلة متصلة بموضوع المناظرة، فعرفت أننا سنقضي شطراً من الليل في نقاش وجدال، وقد هممت بمراجعة الوزير، ثم تركت الأمور تجري إلى مداها المرسوم في ضمير الغيب.

وحين وصلنا إلى المدرّج الأكبر بالكلية رأينا جماهير كثيرة وعانينا قيظاً قد اقتُبست ناره من وهج القلوب ... ألقى العميد كلمة ترحيب بالوزير، وألقى أحد الطلبة كلمة ثانية، ورأى الوزير أن يطوي خطبته لضيق الوقت، ثم دعا المتناظرين إلى الكلام.

---

* مجلة الرسالة العدد ٥٠٧ بتاريخ ٢٢ مارس/ ١٩٤٣.

كنت الخطيبَ الأول، وكانت حطبتي مكتوبة، ولكني رأيت الجوّ يوجب أن أعرض الموضوع بصورة خطابية، وفي دقائق، لأستبقي الفرصة الباقية، فرصة المنبر الأكبر على صفحات «الرسالة» الصديق.

لن أحدثك عما قوبلت به خطبتي من الإعجاب، وإنما أحدثك عن مُناظر قصر خطبته على مناوشتي بأساليب يمجّها الذوق، مع أن المناظرة في كلية الآداب، وبرياسة وزير الشؤون الاجتماعية!

حضر هذا المُناظر وفي قلبه أشياء، فهو لن ينسى أني أفحمته منذ عامين في محاضرة ألقاها بأحد الأندية تأييداً لفكرة وهمية نبتت في بعض خرائب الرؤوس، وهو لا يستطيع نشر تلك المحاضرة بأي حال، لأنها من صنوف البهتان.

كان الظن أن يتناسى حضرة المناظر تلك المعركة الأدبية، وأن يجعل همه الأول والأخير في شرح الرأي الذي ارتضاه في مناظرة ذلك المساء، ولكنه جعل همه في التحرش بالدكتور زكي مبارك وتأليب الجمهور عليه بطريقة عدّها الحاضرون ضرباً من التحدي الممقوت.

ليست المناظرة قتالاً بين شخص وشخص، وإنما هي نضال بين رأي ورأي، وليست المناظرة فرصة للتشفي، وإنما هي فرصة للتصافي.

أترك هذا وأذكر أني أعجبت في ذلك المساء بخطيبين مجدّا الفكر والرأي، أحدهما الأستاذ صالح جودت، وثانيهما الأستاذ حسين دياب، ومع أنهما جَرَيا في ميدانين متعارضين فقد استطاعا الظفر بالحمد والثناء.

قال صالح: إن اعتماد الشعب على الحكومة تحوّل إلى طمع في الحكومة. وهذه فكرة دقيقة جداً.

وقال صالح أيضاً: إن الذين يقيمون الحفلات الخيرية لمعونة الفقراء لا يفتحون مغاليق الجيوب إلا بفضل المراقص المسبوقة بأكواب الصهباء.

وهذا كلامٌ يجب أن يقال ولو مرةً واحدة، عساه ينفع بعض الجمعيات.

وقال حسين: إن الحكومة هي التي تُسأل عن الإصلاح الاجتماعي، لأن عندها وسائل يعجز عن مثلها الشعب... وقال أيضاً: إن يقظة الحكومة لا تغني

الشعب عن الاهتمام بما يجب عليه في تدبير أمور المعاش ... وهذا وذاك من الكلام النفيس .

أما لغة المتناظرين فكانت سليمة ، بغض النظر عن اللحن المضحك ، اللحن الذي تكرر ثم تكرر من الخطيب اللحان ، وهو فلان!

أيهون منبر كلية الآداب إلى الحد الذي يسمح بأن يعلوه خطيب لا يعرف الأوليات من قواعد اللغة العربية؟

اتقوا الله يا ناس في منبر كلية الآداب!

ومن ذلك الخطيب؟

سأذكر اسمه يوم يغيّر ما بنفسه بعد قراءة هذا الدرس .

سأذكر اسمه يوم يعرف أن المناظر لا يكتفي بالقصاصات من المجلات .

إن خطبة عميد كلية الآداب لم تزد عن أربعة أسطر ، وهو مع ذلك تلاها تلاوة ليأمن الخطأ في الإعراب ، أما فلان فقد فعل بنفسه ما لا يفعل الأعداء .

ثم ماذا؟ ثم أعلن معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق أن رأيه كوزير أن يستزيد الحكومة من المسئوليات . فقلت : ومن واجب الشعب أن يتحمل جميع المسئوليات .

ثم؟ ثم أسجل خطبتي في «الرسالة» لتُسجَّل في ضمير الزمان ، وليعرف من لا يعرف أن للمصريين جذوات فكرية مقبوسة من نار الخلود .

* * *

أيها السادة :

أحييكم باسم الفكر والرأي ، ثم أشكر من تفضلوا فدعوني للاشتراك في هذه المناظرة ، فقد هيّئوا فرصة جديدة لتوضيح نظرية نفر منها الجمهور حين عرضتُها في بعض الجرائد والمجلات ، وهي النظرية التي تقول بأن الفرد هو الحجر الأول في بناء المجتمع ، وبأن الشعب هو المسؤول في جميع الأحوال عما يتعرض له من متاعب وصعاب .

وسأعرض تلك النظرية في هذا المساء بأسلوب جديد ، راجياً أن تراعوا أننا في رحاب كلية الآداب ، فلا يثور من تعودوا الثورة على الحق في المناظرات

الماضية، وراجياً أن تذكروا أن ما تضيق به صدوركم اليوم قد يصبح من المألوفات بعد حين.

أما بعد: فمن المسؤول عن الإصلاح الاجتماعي: الشعب أم الحكومة؟

في شرح هذه المعضلة أقول:

أنا أقبل إلقاء جميع المسئوليات على الحكومة، ولا يصح عندي أن الشعب طفلٌ لا يفرق بين التمرة والجمرة، على نحو ما كانت الحال في طفولة الشعوب.

أما اليوم وقد اكتملت قُوى الشعب وتخطى العهود الفطرية فمن الواجب أن يُسأل عن كل شيء، وأن يكون إليه الأمر في جميع الشؤون.

وما السبب في إنشاء الحكومات؟

افترض جان جاك روسُّو أن الخلائق اجتمعت يوماً للتشاور في الصورة التي تصان بها الحياة الاجتماعية، وأن كل فرد تنازل عن جزء من حريته. ليتكون من تلك الأجزاء قوة تحمي المجتمع من عدوان الأقوياء على الضعفاء.

وقد آن أن نسترد ما تركنا من حريتنا باسم صيانة المجتمع. آن أن نكرم الإنسان بأن نسأل أمام الضمائر لا أمام القوانين، فإن من العار على الإنسانية أن يطول احتياج بنيها إلى حكام يصدونهم عن تقارض الظلم والاضطهاد.

كل أمة تحتاج إلى وزارة اسمها وزارة العدل، فما معنى ذلك؟ معناه أن الأمم لم تصل إلى الرقي الصحيح، ومعناه أن بغي الناس بعضهم على بعض خطر يرتقب في كل حين.

لا مانع من أن تكون في الدنيا محاكم، على شرط أن لا يُحتكم إليها إلا في القضايا التي تحتاج إلى اجتهاد القضاة، أما القضايا التي يقال فيها: إن الحلال بيِّن والحرام بيِّن فاحتياج الإنسانية فيها إلى القضاة ضرب من الإسفاف.

المثال الصحيح للأخلاق السليمة هو أن تعرف مالك وما عليك، فتحب لأخيك ما تحب لنفسك، وتبغض لأخيك ما تبغض لنفسك، ويكون رأيك في تقدير المشكلات الاجتماعية هو الميزان.

قال فلاسفة الغَرْب: «الإنسان مدني بالطبع»، ومعنى هذا: أنه يكره التوحد الموحش، ويميل إلى الوداد والإخاء، وكذلك كان حاله بالفعل، لولا بدوات ترده إلى عهود الوحشية من حين إلى أحايين.

ويقول التاريخ الاجتماعي: إن الدنيا في عهود الظلمات كان فيها شهود يُستأجرون كما يستأجر الفتاك. وقد انقرض هذا الصنف من الناس أوكاد، وتلك بداية لطيفة، فقد نستغني يوماً عن المحاكم، وقد يصبح كل فرد وهو مسئول أمام الضمير لا أمام القانون.

أليس من العيب على الإنسانية أن تحتاج إلى جيوش من القضاة والمحامين في شؤون يحكم فيها الضمير قبل أن يحكم القضاء؟

في بضع مئين من السنين يتحول بعض الحجر إلى مرمر، وقد مرت ألوف وألوف من السنين ولم يتحول الإنسان إلى مَلَك، فبأي وجه تلقى الإنسانية بارئها يوم يقوم الحساب؟

الحكمة اليونانية تقول: اعرف نفسك بنفسك.

والحكمة الإسلامية تقول: الإثم ما حاك في صدرك.

ونحن مع هذا وذاك لا نسير في الطريق إلا معتمدين على أسندة من رعاية الحكومات... كأننا خلائق تحبو في فجر التاريخ!

أقدم أمة أقيمت فيها حكومة هي الأمة المصرية، وكان ذلك من أبواب المجد، يوم كان النظام حلما يداعب خيال الإنسانية.

وستكون مصر أول أمة تعيش بلا حكومة، وسيكون ذلك أعظم آيات المجد، لأنه الشاهد على السمو الذي تغنى به الحكماء، جيلاً بعد جيل.

نحن سبقنا جميع الشعوب إلى إقامة النظام الحكومي، يوم كان أصلح أداة لكبح الطغيان الفردي والاجتماعي.

وسنسبق جميع الشعوب إلى الاستغناء عن النظام الحكومي، لأنه يطعن في قدرة الإنسانية على مغالبة الأهواء.

وماضينا في التاريخ القديم يطمعنا في تحقيق الأمل الجميل، فنحن الذين أقمنا النظام الشمسي قبل أن تعرفه أمم المشرق والمغرب. ونحن الذين غزونا بالروح

أمماً لم تكن تُغزَى بغير السيف. وقد وصلت فنون أجدادنا إلى أمريكا قبل أن يكتشفها كولومبوس بأزمان وأزمان ... ألم تسمعوا أن أمريكا وجدت فيها آثار بها ملامح من الفنون المصرية؟

وتحرش بنا الأوربيون متجمعين عشرات السنين لعهد الحروب الصليبية، فرددناهم على أعقابهم بعد أن زودناهم بأصول المدنية الشرقية، وهي أساس المدنية الغربية.

ونحن كنا الحصون التي صدت غارات المغول، ومن قبل ذلك بقرون أوحينا إلى الإسكندر الأكبر أن يتجشم متاعب السفرإلى الواحات ليزور معبداً يجمع بين الرحموت والجبروت، وهو معبد آمون، آمون الذي دخل اسمهُ جميع اللغات فصار «آمين» التي تقال عقب الدعاء.

أرضنا هي الأرض، وسماؤنا هي السماء، ومجدنا هو المجد، وخلودنا هو الخلود.

فما الذي يمنع من أن نكون أول أمة تعتز بالقوة الذاتية؟

ما الذي يمنع من أن نكون حكام أنفسنا في جميع الشؤون؟

وما الذي يمنع من أن نسبق جميع الأمم إلى فهم الغاية الصحيحة من قوة الروحانية؟

لكل أمة عذر في التخلف، ولا عذر لمصر في التخلف، وهي أقدم حجاز بين الحق والباطل والهدى والضلال.

وتاريخنا الحديث لا يقلُّ عظمةً عن تاريخنا القديم، فقد حيكت حولنا الدسائس الدولية بالألوف، وكانت بلادنا مصطرعاً لأشتات من الجيوش، فهل غُلبنا في الميادين الفكرية، حين غلبنا في الميادين الحربية؟

أين الدولة التي تستطيع أن تزعم أنها نقلت القلب المصري من مكان إلى مكان؟

أين الدولة التي استطاعت أن تصدّ الفكر المصري عن التغلغل في آفاق الشرق.

لبلادنا خصائص أصيلة أيسرُها القدرة على قهر عوادي الاضمحلال، وكيف تضمحل أرض نجد فيها الماء في كل بقعة، والله جعل من الماء كل شيء حيّ.

أول كُفر عرفته الخلائق هو كفر المصريين، وأول إيمان عرفته الخلائق هو إيمان المصريين، وأشهر الأفراح أفراح المصريين، وأشهر الأحزان أحزان المصريين.

هل عرف تاريخ الجاهلية أعظم من المعابد المصرية؟

وهل عرف التاريخ الإسلامي أروع من المساجد المصرية؟

وهل يوجد للفلاح المصري نظيرٌ في أي أرض؟

وهل يوجد ماءٌ أعذب من ماء النيل؟

وهل عُرفت العظمة في المباني قبل أن تُعرف في هذه البلاد؟

وهل يوجد في الدنيا ناس يفوقون المصريين في حلاوة الشمائل ولطافة الطباع؟

لم يبق إلا أن نتفرد بالابتكار الأخير، وهو الابتكار الذي عجز عنه من اهتدوا إلى البخار والكهرباء، وهذا الابتكار هو الكشف عن الجوانب المستورة من الأرواح والقلوب، الجوانب النقية، ففي قلب كل رجل غابة عذراء لا تغرّد فوق أدواحها غير بلابل الطهر والصفاء.

اجمعوا جموعكم، واستعينوا بمفكريكم، لتكتشفوا الواحة المجهولة في الضمائر المصرية، فقلبي يحدثني بأن في هذا الوادي سرائر مطوية تفوق الأحجار التي يشقى في البحث عنها علماء الحفريات!

أنفقوا في البحث عن الضمائر الحية معشار ما تنفقون في البحث عن الأحجار الميتة، واعلموا أن مصر لن تموت، لأنها مؤيدة بروح الحق الذي لا يموت.

أين مصر التي عرفناها أو جهلناها، وأين مكانها الأصيل في تاريخ الوجود؟

ستكون أول أمة تعيش بلا حكومة، لتقيم البرهان على أنها فوق الشبهات والأضاليل.

قد تقولون: إن واقع الحياة لا يعرف هذا الخيال... وأقول: إن الأمر في هذه الأيام يؤيد ما تقولون، فلو عاشت الأمة بلا حكومة أسبوعاً أو أسبوعين لا نتشرت الفوضى وعمّ الاضطراب وشاع الفساد.

ولكني مع هذا أجزم بأن الحكومة لا تستطيع بأي حال رعاية أمة فقيرة في نواحي التماسك الذاتي والاجتماعي، فخضوع الأمم للشرائع والقوانين لا يكون خضوعاً شريفاً إلا إن صدر عن إرادة ذاتية مردُّها إلى أدب الأحرار لا أدب العبيد.

ونحن في مصر نفهم هذه المعاني، فوزير المعارف يعتمد على ضمائر المدرسين، ووزير العدل يعتمد على إيمان الناس بأدب المعاملات، وكذلك يقال في الأمور التي يعالجها سائر الوزراء.

قد سمعتم أو قرأتم أن وزارة الوقاية وزارة وقتية تنتهي مهمتها بانتهاء الحرب، فما المستقبل الذي ينتظر وزارة الشؤون الاجتماعية؟

أنا أقدِّر أن مهمتها ستنتهي بعد أمدٍ قريب، يوم يفهم الشعب واجبه في الإصلاح الاجتماعي، ويوم يدرك أن احتياجه إلى عون الحكومة في تلك الشؤون ضربٌ من الفقر في الروح والوجدان.

وهذا المستقبل لن يكون بعيداً كما نتخوف، فالشواهد تنطق بأن ضمير الأمة سيستيقظ بعد طول السبات، ولعله استيقظ بالفعل. ألا ترون أن الأمة تتسامى إلى أمور كانت قبل اليوم من تهويل الخيال؟

قبل أن تشب الحرب ويغلو الورق كان متوسط ما تخرج المطابع المصرية في كل يوم اثني عشر مجلداً، وكان لصحافتنا المقام الثالث بعد الصحافة الإنجليزية والأمريكية، وكنا أول أمم الشرق في إحياء الذخائر العربية والإسلامية، وسيكون لنا بعد الحرب ميادين يعتز بها العقل والبيان.

ومعنى هذا أن يقظة الذكاء المصري يقظة حقيقية، وأن تحليقاتنا في سموات الفكر والرأي لم تكن أضغاث أحلام، فكيف تستبعدون أن يستيقظ الضمير المصري فيغني الحكومة عن التعب في مداواة الأمراض الفردية والاجتماعية؟

إنْ تعادل الضمير والذكاء في مصر فستصبح الأمة المصرية أمة نموذجية، وستبدع في الأدب النفسي آيات لا نظائر لها ولا أمثال.

إن أفضل الفروض في وصف الصلة بين الحاكمين والمحكومين هي أن تشبَّه بالصلة بين الآباء والأبناء، فهل سمعتم أن أباً يحب أن يكون ابنه عالة عليه في جميع الشئون!

ونحن اليوم في مطلع حياة جديدة، ولا بد لنا من رياضة أنفسنا على الاضطلاع بحمل جميع الأعباء.

وسنجاهد ونجاهد إلى أن تشعر الحكومة أنها تعيش في أمة مثالية لا تحتاج إلى حكام في أي ميدان.

سنجاهد ونجاهد إلى أن تغلَق المحاكم بفضل اعتماد الشعب على الاحتكام إلى الضمائر والقلوب.

لن يطول صبر الإنسانية على هذه الحياة الوضيعة، وهي الحياة التي لا ينزجر فيها منزجر إلا خوفاً من سطوة القضاء.

إن الاستقامة السليمة هي التي تنبعث من النفس، كما يستقيم العود حين تكتمل قواه، أما الاستقامة التي توجبها قوى خارجية فهي استقامة العود الذي يُستر ضعفه بأسندة من الجريد، وهذا حال الأخلاق التي لا تستقيم إلا بأسندة من القانون.

إن الجوارح الروحية تعطلت بسبب الاعتماد على الحكومة في مختلف الشؤون، وإن المواهب النفسية تهدمت بسبب التفريط في رياضتها على النفاذ والمضاء.

الأمم الضعيفة تكل أمورها إلى الحكومات لتستريح من الجهاد، أما الأمم القوية فتنهض بأحمالها الثقال لتتشرف بالجهاد.

وآفة الاعتماد على الحكومة آفة مخوفة على الأمة المصرية، ويجب النص على هذه الآفة بذكر بعض الشواهد، عسانا نزهد فيما استمرأناه من التواكل البغيض.

التعليم كله مُلْقىً على كاهل الحكومة، وما فكر فردٌ أو جماعة في إنشاء مدرسة إلا على نية التبعية لوزارة المعارف، بأي صورة من صور التبعية.

وقد نهضت الأمة يوما فأنشأت الجامعة، ولكن النهوض ثقل عليها فأسلمتها إلى الحكومة!

وأنشأت الجمعية الخيرية الإسلامية بضع مدارس، ثم أسلمتها إلى الحكومة.

ومنذ أعوام تعرضت مدرسة الأقباط بالقاهرة لمتاعب مالية، فخذلها أعيان الأقباط ولم ينجدها غير الحكومة.

فما هذا الفقر المدقع في العزائم والنفوس؟

أتكون أحوال التعليم كهذه الأحوال في البلاد الإنجليزية والأمريكية؟

وكيف والتعليم في تلك البلاد ترجع أكثر شؤونه إلى هيئات مستقلة عن الحكومة كل الاستقلال أو بعض الاستقلال؟

واعتمادنا على الحكومة ظهر بصورة بشعة يوم خيف على «بنك مصر» من زعازع الحرب، فالحكومة هي التي تقدمت لحماية البنك، وبذلك ضاعت فرصة على أغنياء الأمة، وأي فرصة؟

لقد كان في مقدور الأغنياء أن يتعاونوا على رعاية تلك المؤسسة القومية، وهي رعاية مضمونة الربح، وكان من المؤكد أن تدر عليهم الخيرات في أعوام الحرب، ولكنهم تهاونوا تهاون العاجزين عن إدراك ما ينتظر من المنافع، وتركوا الحكومة تدبر الأمر كما تريد.

وآفة الاعتماد على الحكومة زلزلت الثقة بالكفاية الفردية، وهل يتهالك المتعلمون على وظائف الحكومة إلا ليقال: إنهم وصلوا إلى شيء، في بلد يرى الوظيفة كل شيء؟

كل ما رأيناه من جميع النواحي أهون من الناحية التي تساق في مناظرة هذا المساء، فإن ناساً يرجون أن تنوب الحكومة عن الأمة في الإصلاح الاجتماعي، وقد يرجون غداً أو بعد غد أن توزع الإصلاحات الاجتماعية والفردية في بطاقات؛ وقد يرجون أيضاً أن تنوب الحكومة عنهم في اختيار ألوان الطعام والشراب!

الأساس الذي أراه لبناء المستقبل أن تكون روح الشعب وروح الحكومة ممثلة في كل فرد، فيكون الرجل حاكماً ومحكوماً في آن، حاكما لهواه ومحكوماً لنهاه، ثم تتلاقى قوى الأفراد كما تتلاقى القطرات الطاهرة من الغيوث فتخلق نهراً في مثل عظمة النيل.

أنا أنتظر اليوم الذي يقال فيه على سبيل التفكه بحوادث التاريخ: كان في الدنيا حكومات وبرلمانات، وكانت الدنيا في بعض العهود ميادين قتال بين الآراء والأهواء.

فإن لم نر ذلك اليوم، وهو في رأيي قريب، فلنخلقه في صدورنا، ولنكن رجالاً يستفتون ضمائرهم في جميع الشؤون، ولا يخافون الناس، لأن النزاهة الروحية تخلق الأمان والاطمئنان، ولأن الصدق يحمي صاحبه من عدوان الباغين والظالمين.

وسبحان من لو شاء لحقق هذا الرجاء.

* * *

أحلام العام الجديد

التفت أخونا الأستاذ الزيات فرأى العام الجديد لا يخيفه إلا من ناحية «استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف»، فتوكل على الله وقرر أن «الرسالة ستستمر على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والإهداء مع المشتركين القدماء؛ أما المشتركون الجدُد فيؤدون الاشتراك كاملاً، مقسّطاً أو غير مقسّط». وبهذا ظهر «امتياز» الصديق القديم على الصديق الجديد!

والتفتُّ فرأيت العام الجديد يخيفني من ناحية غير تلك الناحية، فأنا لا أشكو غلاء الورق ولا ارتفاع موادّ الطباعة، بعد أن أرجأت النظر في طبع مؤلفاتي الجديدة إلى أن تنتهي الحرب؛ وإنما أشكو غلاء العواطف وارتفاع أثمان الصدق إلى ألف ضعف لا عشرة أضعاف.

وما ظنُّكم بزمان لا يبرع شعراؤه في غير الحديث عن «الرغيف»، كالذي ترون من يوم إلى يوم في بعض الجرائد والمجلات؟

ما ظنُّكم بزمان يعدّ فيه الحديث عن أحلام القلوب ضرباً من الفُضول؟

إن هذه المحنة العاتية هي الفرصة لاختبار ما عند أدبائنا من عناصر الثروة المعنوية، فيها نعرف ما عندهم من أرزاق الروح والذوق والوجدان.

أيكون الكلام عن «الرغيف» تودداً إلى أهل البطون، وهم ألوف أو ملايين؟

إن كان ذلك فأين الأريستوقراطية الأدبية وهي تسمو على الحاجيات اليومية؟

أيكون الكلام عن الرغيف فرصة من فرص القول يَهْتَبِلُها من لا يصل إلى بعض الجرائد والمجلات إلا بعناء؟

إن كان ذلك فأين تصوّن الأديب عن الكلام المبذول؟

سمعت - بل علمت - أن مدرساً في «قنا» أرسل إلى جلالة الملك برقية يشكو فيها انعدام الرغيف، فماذا وقع من الخطر حتى يجوز مثل هذا الصراخ؟

وماذا نصنع لو أصبحت بلادنا وهي ميدان حرب، وقد تصير كذلك إذا طال استمراء المتحاربين لما اندفعوا إليه من استطابة الجنون؟

وإذا استجاز «المدرس» أن ينظم القصائد الطوال في الشوق إلى الرغيف وهو مدرس يقتات بالعواطف والأحاسيس، فماذا يصنع «الفلاح» أو «الصانع» وهما شخصيتان تعتمدان في القوت على الرغيف؟

لعل الأيام أرادت أن تعلمني ما كنت أجهل، فقد طال مني التجني على الصوفية (وكانوا يدعون إلى التحرر من ربقة الرغيف) فهل كان للرغيف مثل هذه الآفة في العصور الخوالي؟

ولعل الأيام أرادت أن تقنعني بأني صرت من الحكماء من حيث لا أعرف، فقد هجرت الخبز منذ أعوام طوال، واكتفيت بما تيسر من الخضروات، بغض النظر عن اللحم الذي آكله باسم النقد الأدبي، وهو لحم غاب اسمه عن «دولة الحاكم العسكري» فلم يفرض على من ينتاشه أي عقاب!!!

ما تهمني أزمة الرغيف، وإنما تهمني أزمة القلب.

ولو كان في وزراء مصر لهذا العهد من عانى أزمات القلوب لعرف كيف يحارب أزمة الرغيف، لأن القلب هو الأساس في فهم أخطار الوجود.

الظبية تجتزىء بالعشب فتستغني عن الماء، ومن أجل هذا سُمِّيَتْ جازية، و«جازية» اسم من أسماء الملاح في هذه البلاد، وإن لم يعرف الجمهور ما فيه من معنًى ملفوف.

فإذا فقدت الظبية العشب، فكيف تعيش وبه غنيتْ عن الماء؟

لن أنسى أبداً سخرية «فاجيه» من «أفلاطون»، وفاجيه كان أكبر من اهتممت بآثاره الأدبية والفلسفية من بين أقطاب الأدب الفرنسي، ومن سيرته تعلمت أشياء هي الهادي والدليل في حياتي الأدبية، فأنا أسجل كل ما يعتلج في صدري قبل أن يضيع، ثم أقدمه للجرائد والمجلات حين أشاء، بلا تقيد بالمكان والزمان!

وفي هذه المرة أكون أعظم من أستاذي فاجيه، فقد سخر من تسامي الفلاسفة إلى ولاية الحكم وهو ينقد أفلاطون. أما أنا فأرى أن الفلاسفة هم أقدر الناس على إقامة الموازين بالقسطاس.

نحن، رجال القلم، أعرف خلق الله بما يشتجر في الصدر من آلام وآمال.

كانت الحكومة إلى رجال يعيشون في حصون تقفل أبوابها بالنهار وبالليل: فلا يعرفون ما يعاني الشعب من ظلمات الحوادث والخطوب...

ولم نكن كأولئك، فنحن قوم نعيش للشعب وفي صحبة الشعب، ولنا فيه أعمام وأخوال، ولن نتجنى عليه بأي حال.

ونحن مع هذا معرّضون لدسائسَ سود، ومن الواجب أن نبدّد تلك الدسائس، بلا تسويف، تمهيداً للوزارة التي سنؤلفها في العام الجديد.

قيل: إن الزيات متأنق في الأسلوب، فهو يزاوج بين لفظ ولفظ بغير عناء؛ وأقول: إن هذه النزعة تنفع في المزاوجة بين الطبقات والأحزاب، حين يمسي الزيات وهو رئيس الوزراء.

وقيل: إن العقاد مولع بوصل ما بين الشرق والغرب في الآفاق الفكرية، وأقول: إنه أصلح الأدباء لتولي وزارة الخارجية.

وقيل: إن أحمد أمين لا يجيد الكلام في غير البحث المطروق، وأقول: إنه أصلح الناس لوزارة المواصلات، فلن نجدد فيها إلا بعد انتهاء الحرب.

وقيل: إن المازني أول أديب حجّ بيت الله في غير موسم الحج، فهو إذن أصلح الأدباء لأن يكون سفير مصر في الحجاز، وإن قال في صلاة «زكي باشا» ما قال.

وقيل: إن توفيق الحكيم يقدس «السيدة زينب» فهو إذن وزير الأوقاف.

وقيل: إن طه حسين لم يُجد في «هامش السيرة» غير الحديث عن «الراهب» فهو إذن وزيرنا في بلد النجاشي.

وقيل: إن محمود تيمور لا يحسن القول إلا في وصف الطبقات الشعبية، فهو إذن وزير الشؤون الاجتماعية.

ولا موجب للحديث عن الأدباء الغَدَرَة من أمثال: عبد القوي أحمد، ومحمد هيكل، ومصطفى عبد الرازق؛ فقد تولوا الوزارة قبل أن يستأذنوا إخوانهم من رجال القلم البليغ!

بقي مكاني في الوزارة المنشودة، فما عسى أن يكون؟

هل أختار وزارة المعارف؟

وكيف وهي وزارة متعبة، وما تولاها رجل إلا عرف خطر المشي على الشوك؟

صار من تقاليد وزارة المعارف أن يهدم الخلَف ما بنى السلف، وأنا أكره التقلبات الكثيرة، وأبغض الضجيج المفتعَل، والصياح المصنوع.

يضاف إلى ذلك أني نشرت مقالات تفوق العدّ والإحصاء في شؤون التربية والتعليم، ومن الجائز أن يطالبني الجمهور بتحقيق ما اقترحت في تلك المقالات، وهنالك الخطر كل الخطر، إلا أن أروض نفسي منذ اليوم على التنصل من تلك المقترحات.

هل أختار وزارة الداخلية؟

هذا هو المركز اللائق برجل يغضب للشعب، ويثور على الاحتكار والمحتكرين.

إن توليت وزارة الداخلية -وهذا أمرٌ قريب- فسأفرض على رجال الحكومة في مختلف الأقاليم أن يعرفوا جميع البيوت وجميع الناس، ليدلوا الدولة على المستور من الثروات والنيات، وسأجعل من سلطة الشرطة جيشاً يمزق الشراذم الباغية على الأمن والنظام، وهل يهدّد الأمن والنظام بمثل الإصرار البغيض على احتكار الأقوات؟

لن أنتظر حتى ينتفع الناس بوعظ الواعظين، وإرشاد المرشدين، فقد ظهر أن في الدنيا قلوباً لا يقوِّمها وعظٌ ولا إرشاد. لن أنتظر غير حكم العدل، والعدل يوجب أن يعرف وزير الداخلية حقيقة الثروة المدفونة في زوايا البيوت، بيوت الأغنياء والفقراء، فأنا أخشى أن تكون هذه الأيام قضت بأن يكون في الفقر تزوير وافتعال «ولم يكن المصريون كذلك في الأيام الحالية، فقد كانوا يسترون الفقر عن الأقربين قبل الأبعدين».

إن توليت وزارة الداخلية -ويجب أن أتولاها- فسأحرم العُمَدَ نعمة الثرثرة فوق المصاطب، وسأحولهم إلى جنود نافعين، فأولئك أقوام يعلمون من أمور بلادهم كل شيء، ولكنهم يكتمون ما يعلمون، فإن طووا عني ما يجب أن أعرف فسأقضي فيهم بالعدل، وهم يفهمون جيداً خطر العدل.

أليس من العار أن يصبح التموين مشكلة من المشكلات في مثل هذه البلاد؟

وكيف تكون الحال لو شاءت المقادير أن نطالب بتموين مئات الألوف من الجنود يوم يدعو الداعي إلى الجهاد؟

اللعب في أمثال هذه الأيام لا يليق، ومن اللعب القبيح أن يكنز ناس ما يملكون من أصول الأقوات لينتفعوا بالربح الحرام على حساب الشعب المهدد بالجوع.

وأنا مع هذا أعرف ما تصير إليه سمعتي يوم أتولى وزارة الداخلية، فسيقول السفهاء من الناس: إني خليفة الحجاج، وسيتخذون من شراستي دليلاً على أن المواهب الأدبية تنطوي على جحيم من الطغيان المكبوت.

وما خوفي من القال والقيل وأنا في غنىً عن رضا الناس، ولن أتقدم يوماً لخوض معركة انتخابية؟

إن رجال الأقلام هم أصلح الرجال لسياسة الدولة في السنين العِجاف. وهل يشقى أحدٌ في سبيل الأمة كما نشقى؟ وهل يعرف أحدٌ من متاعب الأمة بعض ما نعرف.

الوزراء في الأمم الدستورية لا يقدرون على الحزم إلا في أندر الأحيان، لأنهم مقيدون بعواطف الناخبين، وفي الناخبين خلائق لا تعطي أصواتها إلا لغاية مطوية، هي السكوت عن آثامها الثقال.

ولن أكون وزيراً برلمانيًّا يحسب لعواطف الناخبين ألف حساب قبل أن يُقدِم على إعزاز شريعة العدل.

سأكون بإذن الله وزيراً يُختار لغرض واضح صريح: هو القضاء على البغي والفساد، وزجر من يحرمون الشعب من الأقوات.

وقد فكرت في مصير البرلمان الحاضر، وهو برلمان طال حوله الخلاف، ثم صح الرأي على السكوت عن هذه المعضلة الدستورية إلى حين، فما يتسع وقتي للنظر في شئون تضر أكثر مما تنفع. وهل تحتاج الأمة إلى برلمان إلا حين يعوزها الحاكم الرشيد؟ -«إنما أُسأل أمام ضميري لا أمام البرلمان».

سأفاضل بين الأحزاب على أساس غير الأساس المعروف، فلن تكون هناك أغلبية وأقلية، وإنما يكون التفاضل بقدرة هذا الحزب أو ذاك على توفير أسباب الرخاء.

لن يقول النحاس باشا: «أنا أول من أنذر بأزمة التموين» فسأسوقه سوقاً إلى الطواف بالبلاد لدعوة أنصاره إلى الإفراج عن القوت المحبوس.

ولن يقول الدكتور ماهر باشا: «أنا أول من تأهب للحرب»؛ فسأجره جراً إلى ميدان جديد هو حرب الغلاء!

سأغيّر من أخلاق الناس، إن دُعيت إلى ولاية الحكم في هذه الأيام، وليس ذلك بالأمر البعيد، فقد جُربت جميع القُوَى السياسية، ولم يبق إلا تجربة القوة الأدبية، وهي أقوى من الزمان.

أما بعد! فهذا حُلُمٌ من أحلام العام الجديد، ولكل عام أحلام.

هو لفتة روحية ستؤتي ثمارها بعد حين، فمن الشر الموبق أن يحال بين رجال القلم وما يشتهون من إقرار العدل، وما كانوا في الحاضر والماضي إلا موازين.

دعوْنا كم ألف مرة إلى الاعتراف بالسلطة الأدبية فلم تسمعوا؛ ونهيناكم ألف مرة عن تناسي السلطة الأدبية فلم تنتهوا. فهل جازينا كم صداً بصد، وإغضاء بإغضاء؟

لا، والله، وإنما مضينا على السجية الكريمة، فأوقدنا في صدر الأمة جذوة الشوق إلى التماسك والتساند والتآخي، فما كان في الأمة من خير فهو من صُنع أقلامنا، وماكان في الأمة من شر فهو من جناية الراغبين في المهارة والاستعلاء.

لن تصلُح الأمور إلا يوم تصبح المقاليد بأيدي رجال القلم البليغ، ومن قال بغير ذلك فهو بقية من بقايا الطغيان البغيض.

أتريدون الدليل؟

نحن نبخل بالحكم لقطعة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجيد المستطاب، مع أن الحكم لقطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر في سياسة البلاد.

وأنتم تُضفُون الألقاب السنية على من تحبون بغير حساب، وقد تسندون بعض المناصب إلى من لا يُزكّيه غير رضاكم عن أسلوبه في حفلات الاستقبال.

الأدباء هم أقدر الرجال في مصر على عصيان الأهواء.

ألا ترون كيف نحارب منافعنا في سبيل النزاهة الأدبية؟

نحن نصاول الأحزاب والهيئات في كل يوم لنرفع قدر الفكر والرأي، ونرحب بجميع المتاعب في سبيل تلك الغاية العالية، فأين من يصنع بعض الذي نصنع؟ وأين الذي يعاني في سبيل المبادىء السامية بعض ما نعاني؟

لو سخرنا أقلامنا في سبيل الغايات الوقتية لسددنا الطريق في وجوه الكثير من طلاب النفع الموقوت، وهم أعمدة المجتمع فيما يتوهمون.

إلى أقلامنا يرجع الرأي في سياسة هذه البلاد، وإن بعُدنا صورياً عن المناصب الوزارية والبرلمانية ... لكل وطن روح، وروح هذا الوطن هو رسالة القلم البليغ.

* * *

أين الرسالة؟

حدثت قُرّائي مرة أني رفضت أن تُهْدى إليّ الرسالة، لأني أجد أننا في اشترائها من السوق، كأني أوجه تحية إلى صاحبها الصديق. وبالأمس انقبض صدري حين حدثني باعة الجرائد أنها احتجبت لعدم وجود الورق، ثم لطف الله فعرفت بعد ذلك أنها اكتفت بطبع كمية بقدر عدد المشتركين، إلى أن يأذن الله بالورق الذي يساعد على أن تغمر السوق من جديد. ليتني اشتركت في الرسالة!

هل خطر في بال من تهمهم سمعة مصر الأدبية في الشرق خاطر احتجاب الرسالة عن الأسواق؟

هل آذاهم أن يقال: إن مجلة مثل الرسالة لا تجد قوتها من الورق مع أنه قوت مبذول لمنافع قد تضر بسمعة مصر في أنظار من لا يعرفون غير الجد الصريح؟

ليست الأزمة أزمة الورق، فهو موجود، وإنما الأزمة تنحصر في انعدام التعاون والتساند، هي أزمة الأدب اليتيم الذي لا يَسأل عنه أحد حين يغيب!

هل صلصل الهتّاف في بيت الأستاذ الزيات من إحدى الجهات للسؤال عن الأسباب التي حجبت الرسالة عن الأسواق؟

أكان يجب ألا تقتصر الرسالة على الأدب الصرف لتجد من يسأل عنها حين تحتجب؟

سنعرف طاقة الأدب في اجتياز هذه المحنة العاتية. وإن اقتضى الأمر أن نرجو الحكومة أن تسمح بإذاعة محصول الرسالة عن طريق المذياع فسنفعل.

أيها الأدب!

أنا غير خائف على مصيرك، وهل كانت هذه أول محنة صارَعْتَها وصارعتْك حتى آخاف عليك؟

لا تصدّق أيها الأدب أننا سنفرّط في استقلالك بأي ثمن، ولا تتوهم أننا سنتخلى عنك بما يسمونه الظروف أو الصروف.

سنعرفك في أيام الشدة، كما عرفتنا في أيام الرخاء، والله وليُّ الصابرين.

* * *

الحديث ذو شجون(*)

أزمة المجلات الأدبية:

إنشاء مجلة في مصر أو في غير مصر عمل لا يعرفه إلا من يعانيه، وتزيد متاعب هذا العمل إذا أريد أن تكون المجلة مقصورة على الأدب الصِّرف، بحيث لا تكون لها موارد غير عواطف القراء، والقارىء لا يدفع قرشاً في مجلة أدبية إلا إذا وثق بأنه من الغانمين، ولا تظفر المجلة بثقة القارىء إلا بعد جهود تفر من حملها الجبال.

وقد كنت فيما سلف من الأيام أثني على حصافة الأستاذ الزيات، كنت أقول: إن العقل هداه إلى أن الضمير المصري لا بدَّ له من مجلة لا تهتم بغير الأدب الصِّرف، ولا تقبل مواجهة الجمهور بغير الفكر المُشرِق في الأسلوب الجميل.

ثم جدَّت شواهد أقنعتني بأن روح التضحية هو الأصل في إنشاء المجلة الأدبية، وإن كان الله عزّ شأنه تفضّل فجعل «الرسالة» مصدر خير لصديقنا الزيات، فقد قيل -ولله الحمد-: إنها صيرته من الأغنياء بدليل سيطرته على بعض الشواطىء من «بحرشبين» وهو النهر الذي يسقي سنتريس!

فيا ساكني أكناف دجلة كلكم
إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ
يكون أُجاجاً دونكم فإذا انتهى
إليكم تَلقَّى طيبكم فيطيبُ

* - مجلة الرسالة العدد ٤٧٠ بتاريخ ٦/ ٧/ ٤٢.

ومع هذا فأنا أشعر بقيمة التضحية حين أكتفي بالكتابة في الشؤون الأدبية، ولتفصيل هذه اللمحة أذكر النكتة الآتية:

فلانٌ رجلٌ كريمٌ جداً، وهو حين يراني يطيب له أن يحييني فيقول: «لقد قرأت مقالك في مجلة الرسالة»

ولكن هذا الرجل الكريم لا يُلقي هذه التحية إلا بلهجة التصدُّق!

فهل يكون الحال كذلك لو كنت أكتب في الشؤون السياسية وأستبيح إيذاء الناس بغير حساب، كما يصنع بعض الكتاب السياسيين؟

الصحافة الأدبية مسيَّرة بالضمير الأدبي، وهو يأبى على أصحابه أن يتزيدوا على الناس طاعة للأهواء، أو طاعة للأحزاب، فما خوف الناس منّا ونحن لا نملك غير الصدق، ولا نصاول حين نصاول إلا في حدود الأدب والذوق؟

المجلة السياسية تصل إلى أيدي الوزراء قبل أن تصل إلى أيدي الجمهور، لأن الوزراء يحبون أن يعرفوا ما يقال فيهم بحق أو بغير حق، فهل تَلقى منهم المجلة الأدبية بعض هذا الاهتمام الطريف؟ وكيف وهُم من ظُلم المجلات الأدبية في أمان؟

ثم أثب إلى الغرض من هذه الكلمة فأقول:

أين معالي وزير التموين؟

لقد قرأت خطبته في الرد على الاستجواب المعروف، فرأيته تحدث عن جميع ضروب التموين، إلا الورق، ورق المجلات الأدبية، أما ورق الجرائد اليومية والمجلات السياسية فالمفهوم بداهةً أن الحكومة ستعرف ما تصنع إذا بخلَت به صنائع الجشع من الوراقين!

أنا لا أعرف وزيرَ التموين معرفة شخصية حتى أحكم له أو عليه، ولكني أعرفه معرفة معنوية، وهذه المعرفة توجب أن أذكّره بالواجب في رعاية أقوات العقول والأفهام والقلوب، فمن العقوق لمصر أن يقال: إنها لم تمتحن إلا بأزمة الرغيف، مع أن مصر أقدم أمة كان أكبر زادها العلم والأدب والبيان.

أكتب هذا وأنا أخشى أن يقال بعد أسابيع : إن مجلة (الرسالة) عجزت عن الوصول إلى قُوتها من الورق... وأي قوت؟ ومن يعرف أن مجلة (الرسالة) لا تملك تزويد الأسواق الأدبية بما تحتاج إليه تلك الأسواق؟ من يعرف أن التضامن الصحفي أصبح في حكم العدم، وأن من العسير أن تقول أية مجلة : إن من حقها أن تعتمد على أريحية «نقيب الصحفيين»، وعنده -فيما سمعت- أكبر كمية من الورق المخزون؟

إن مجلة مثل (الرسالة) تقدم للجمهور شواغل نبيلة بالحديث عن العلوم والآداب والفنون، ولو التفتت الحكومة لأدركت أن انتشار مثل هذه المجلة يريحها كثيراً - أو قليلاً - من شيوع الأكاذيب والأراجيف، فهل من الإسراف أن تطالب الحكومة بإعانة أمثال هذه المجلة على الظفر بحاجتها من الورق، لتنهض الحجة على أن متاعب هذه الأيام لا تُنسي الحكومة واجبها في رعاية الأذواق والعقول؟

سأنظر كيف يجيب وزير التموين، إن تفضل بالجواب؟

* * *

الفصل الرابع
أدب الحرب والسلام

أدب الحرب والسلام

اقتضت ظروف الحرب العالمية الثانية أن تشهد الساحة الثقافية الأدبية لوناً جديداً من الأدب اتسم بالحديث عن الحرب والسلام ... فدبجت المقالات ونظمت القصائد حينئذ ودخلت المعركة، معركة الحرب والسلام.

* * *

دار الوجد والمجد

تحت هذا العنوان نظم الشاعر زكي مبارك قصيدة عصماء نشرها على صفحات جريدة البلاغ، وبعد ذلك ضمها ديوانه الثاني «ألحان الخلود» توزيع مكتبة مصر بالفجالة، وقدمها بكلمة نثرية تبدأ من صفحة ٦٥ وقال فيها :

لو عاش «شوقي» إلى أن شهد ما تعاني الإسكندرية من كوارث وخطوب لواساها بأطايب الشعر البليغ .

فإلى روحه في دار الخلود أهدي هذا القصيد :

بأهلِ إسكندريةَ بعضُ ما بي ... من الأحزانِ للثغر المصاب

أدارَ هوايَ ما قلبي بناسٍ ... هُيامي فوقَ أثباجِ العُباب

وهل يَنسى أخو كرمٍ وعهدٍ ... رحيقَ الراحِ يُمزَجُ بالرُّضاب؟

فإن تكن الكوارثُ آثماتٍ ... صببْنَ عليك أسواطَ العذاب

فلن ينسى لك التاريخُ عهداً ... ضحوكَ الوجه مرهوب الجَناب

* * *

حَمَاكِ اللهُ يا دارَ التنادي ... إلى الهيجاءِ أو دارَ التصابي

ألم تمرح بساحتك الجوازي ... لَوَاعبَ في حِمى الأسْد الغضاب[1]

ألم تُلْفَيْ مع الأقدار يوماً ... كتائبَ من لحاظٍ أو حِراب؟

وكيف يطيبُ للدنيا وُجودٌ ... إذا هُدِّدت ظلماً بالخراب؟

وأين تجولُ أفراسُ المعالي؟ ... وأين تصول أحلامُ الشباب؟

* * *

(١) الجوازي : هي الظباء لاجتزائها بالعشب على الماء .

عروسَ البحر، والدنيا سفينٌ | تُروَّع بالقواصف والضَّباب[1]
أعندكِ أن دارَ المجدِ تنجو | على الأيام من كُرَب الصِّعاب؟
أعندكِ أن في الدنيا رياضاً | تصان من الأفاعِي والذباب؟
عروسَ البحر، ما هذي الرزايا | تُصبُّ على بنيك بلا حساب؟
أكنتِ جنيت، والدنيا مجالٌ | لمفروض الثواب أو العقاب؟
جمالك فاتنٌ، والحسن ذنبٌ | لأهل الحسن في شرع الذئاب
فما شكواكِ من ظلماءَ طالت | وتلك جناية المجدِ اللباب؟

* * *

عروسَ البحر، يا مَهْوَى فتوني | ويا مَغْنَى أمانِيَّ العذَاب
عُقلتُ بأرضك العزَّاء عاماً | فكان أعزَّ عام في شبابي[2]
دخلتك عانياً في أسر ليل | أصمِّ القلب زنجيِّ الإهاب
فأقبلَ نورك الروحيّ يسري | إلى أرواحنا من كلّ باب
رأى العقَّال أن نحيا أسارى | حياةَ السيف في سُدَف القِراب[3]
فلا ندري لوجه البحر لوناً | سوى الموهومِ من لمع السراب
ولا نقْتات من زاد الأماني | سوى المظنون من يوم المآب

---

(١) القواصف: هي الرياح التي تثور في البحر. أما العواصف: فهي الرياح التي تثور في البر.
(ألحان الخلود)

(٢) العزَّاء: هي الأرض الصلبة، وكان موضع الاعتقال في بقعة جرداء بناحية «سيدي بشر» قبل أن تصبح تلك الناحية من ملاعب الصيف.

(٣) العقال على وزن سجّان: هو حارس المعتقلين. والسدف جمع سدفة بالضم: وهي الظلمة، والقراب بكسر القاف: هو الغمد.

فـهل سـمعَ الـشَّقِي ُّبما أفـاءَتْ ... علينـا إسكندريـة من ثـواب؟
هَدِيرُ الـبحـر كـان يعجُّ عـمـداً ... لـيطربنـا عـلى بُعْد المثــــاب
وحَبُّ الرمل صــار لنا مــهــاداً ... مُطــرَّزةً بــأزهــارِ الــروابــي
فـأمسى الاعـتـقـال على اجتـواهُ ... رخِيُّ القيد مأنوس الرِّحاب[1]

* * *

عَرُوسَ البحر، حـدَّثنِي شـهـودٌ ... بـأن الـشَّط صــــارَ إلى تَبَـــاب
فــلا غَيْداءُ تـخـطِرُ في حِمــاهُ ... كرقص البدر من خَلْف السحاب
ولا صبٌّ خَتُورُ العــهــد يمشي ... على جَنَبــاته مَشْيَ الحُبــاب
ولا صـــهْبــاءُ يحْسُوها بنوهُ ... وقـد قُبِستْ من الذهـب المذاب
إذا طافتْ بهم هامـوا فـخـفُّوا ... لِمَقْـبــول المجـانة والدُّعــاب
وأمْسَوْا والـكـواكِب في علاهـا ... لهـم أسْلابُ فـتك وانتــهــاب
سُلافٌ صـانها «باكـوسُ» عـمـا ... يشوبُ الراحَ من إثمٍ وعاب[2]
ألـمْ يثـقل على حُكمـاءِ قـومِي ... وقـد عــاقَرتها وِزْرُ اغتـيـابي؟

* * *

أمـيرَ الشطِّ كنتُ فـأين عـهـدي ... برعْي الحسن في الشطِّ العُجاب
وأيـنَ رِمَالـهُ مـني وكـــــانـتْ ... مناسِكَ صَبْوتي في كلِّ (آب)[3]

---

(١) الاجتواء: البغض.
(٢) باكوس: هو إله الخمر عند اليونان.
(٣) آب: شهر أغسطس، وهو من أهم شهور الاصطياف.

إليـهـا كـان حَجِّي واعـتـماري	وفيـهـا كـان خَتْلي واختـلابي
فكيف أذوقُ للصَّبـوات طعـماً	وعن عَرَفـاتهـا طـال احتجابي؟

* * *

ندامَى البحرِ، سوف أعود يوماً	لأُطفىء ما بقلبي من لؤاب(١)
نشيـدي في التصوف كـان لحناً	نقلتُ صداه عن قَصف العُباب
سُواي يَرى الوجـود إن اجتـلاهُ	سطوراً ثاويات في كـتـاب
ويـجْلـوهُ لـوجْدَانـي ورُوحي	إذا ما شئتُ إظلالُ السحاب(٢)
وهل كـانت حـيـاة الناس إلا	قـلائد صـاغـهـا رَبُّ الرَّباب(٣)
عشقتُ البحرَ والصحراءَ عشقاً	به طال اندفـاعي وانجـذابي
أُطِلُّ على الفضـاءِ فـتـزدَهيني	رِحـابٌ غـارقـاتٌ في رِحـاب
وأنظر لـلوجـــودِ فـــلا أراه	سوى خمرٍ تُعاقَرُ أو رُضاب(٤)

* * *

---

(١) اللؤاب: العطش.

(٢) أجمل الشاعر في هذين البيتين معنى فصله في «ذكريات باريس» في بحث عنوانه «بين فصول الكتاب وآيات الوجود».

(٣) الرباب: هو ما دون السحاب، فالسحاب ربه، ورب السحاب هو البحر، ورب البحر هو الله. وللشاعر عقيدة صوفية تقوم على أساس «الحقيقة البحرية» وهي عقيدة لا يتسع لشرحها المجال؛ وقد تفتح أبواباً من الجدل لا يطيقها أكثر الناس، لأنها تخالف ما اصطلح عليه الصوفية.

(٤) يريد الشاعر أن يقول: إن الوجود كله جميل حتى ليحسبه رشفات من خمر أو رضاب.

أخلاَّئي هنالكَ، حــدَّثوني	حديث (الثغر) وانتظروا إيابي
أفـوقَ رُبوعـه غـامتْ سـمـاءٌ	مـؤَجَّجـةٌ بأقبـاسِ اللُّهـاب(١)
ومـا القـومُ الذين عَدَوْا عليـه	كعدوان الذباب على الشراب؟
أكـانوا جِنَّةً صُمًّا فـعـاثوا	بـه عَيْثَ الأراقم بـالوِطـاب(٢)
أكـان (النسر) في التَّحليق أدْنى	إلى الإسفاف من ذاك (الغراب)؟
نِطـاحٌ كُلُّهُ سَفَهٌ ولـؤْمٌ	ولو كَرِهَ الْمُـصـانِع والمحـابي

* * *

أحقٌّ أن مَغْنَى (الثـغـر) أقـوى	وأقفرَ من أحاديث الصحاب؟
فلا «النشارُ» يسأل غير صاحٍ	ولا «شيبوب» يحلم بـالجواب؟
«أبو شادي» أفاقَ، فمَن بَشيري	برَجْعِ الأمْنِ للثغر المَهاب(٣)
وكيف يَعيشُ رُوحٌ كـان أُنْسي	وإنْ أَلِفَ اللَّجاجةَ في الغِضاب؟
أكـاتِمُ حـبَّهُ قلبي وأَمضي	فـأُعلِنُ بُغْضـه عند العـتـاب
هو الدنيا: وقد جُنَّتْ فصاغت	رحيقَ هواه من شهدٍ وصـاب

* * *

(١) اللهاب بالضم: هو اللهب أو اللهيب.

(٢) الأراقم: هي الحيات الرقط. والوطاب مفردها وطب: وهي أوعية اللبن، والحيات تحب اللبن إلى حد الجنون، والعرب يصفونها بالصمم ليبالغوا في قدرتها على الإيذاء؛ وهو الوصف الذي أضافه الشاعر إلى أولئك الجن العاثثين.

(٣) المهاب بفتح الميم. هو المكان الذي يكثر فيه التهيب والخوف. وإفاقة الدكتورَ أبي شادي تستحق التنويه، فقد سقطت قنبلة على بعد خمسمائة متر من داره ولم يصب بسوء، وتلك أول مرة تظهر فيها كرامة «أبوللون»!!

بأهل إسكندريةَ بعضُ ما بي ... من الأحزان للثغر المُصاب
سمعتُ حديثَ نكبتهم فأمسى ... فؤادي في انصداعٍ وانشعاب
ملائك من أديم الخلد صِيغُوا ... ليومْ الوجْدِ أو يوم الغِلاب
أعزَّ البحرُ أنفسهم فعزُّوا ... فهم قوم اعتلاءٍ واصطخاب
هُمُ الحراسُ للوطن المفدَّى ... من العادينَ أبناءَ القُلاب[1]
فكيف تبدَّلوا وأدال منهمْ ... مُديل البأس من وكر العُقاب[2]
تساقُ إليهمُ الأقواتُ، هلاَّ ... تساق إليهمُ عُددُ الحِراب؟
أغيثوهمْ بِسَيْفٍ لا بزادٍ ... فهم خَلَفُ القساورة الصلاب[3]
أمِدُّوهم، إذا شئتم، بجيش ... وقاح الوجه منزوعِ النقاب
فما حَفَظ الديارَ سوى حسامٍ ... به ظمأٌ إلى يوم الضِّراب

* * *

أجِبْ «عبدَ القوي»[4] وأنت شهمٌ ... صريحٌ لا يراوغ في الجواب
أأنت ترى «المخابىء» واقياتٍ ... وهُنَّ أذل من غار الضِّباب؟
وما شرفُ الفتى وقد استنامت ... جوانحُه إلى مثوى الهوابي[5]
لنا ماضٍ نَسِيناه فضِعنْا ... ضَياعَ التِّبر في جوف التراب

---

(١) القلاب بضم القاف: داء يعصر القلب.
(٢) العقاب بضم العين: طائر من الجوارح.
(٣) القساورة: الأسود.
(٤) هو المهندس الأديب عبد القوي أحمد باشا وزير الوقاية المدنية.
(٥) الهوابي: أتربة القبور.

لقـــــد كنَّا، وكنا، ثم كنا | أداةَ الفتك من ظُفْرٍ وناب
ركزنا الرعبَ في مُهج الضواري | فكيف تَرُوزنا مهجُ الذئاب؟
لوادينا القويّ عَنَتْ وُجوهٌ | عززن بالانتساب والاكتساب
ألمْ ندفِنْ بوادينا قُرُوماً | أرادوا الشرب من أمواه (حابي)[1]
فكيف نُكولُنا عن ردع قوم | لئام البغي منكودي الإصاب[2]
هُمُ ظنوا الكنانة زاد يوم | كظن النمل في نسف الهضاب
فإن فازوا فسوف نكون منهم | مكان البحر من لهب الضوابي[3]
وسوف نظل نحن - كما فُطرنا- | أُباةَ الضَّيم أحرار الرقاب
عركنا الدهر جيلا بعد جيل | وكابَدْنا الألوف من الصعاب
فما هُنَّا على الأقدار يوماً | ولا أمست بوارقنا نوابي[4]
ألم نُشرقْ على الشرق المعنَّى | فندفعَ عنه آصار الضباب[5]
ولولا جدنا في الشرق صارت | بقاياه العزاز إلى الذهاب
بنا وثقتْ شعوبٌ لم تواجهْ | بروق الغرب إلا في ارتياب
بنا استَهْدَتْ بصائرُ لم نَرُضْها | خداعا بالمواعيد الكذاب
كدأبِكُمُ وقد مرنتْ نهاكمْ | على ستر الخيانةِ بالخلابِ[6]

(١) حابي: هو اسم النيل عند قدماء المصريين، والحابي: هو الوهاب.
(٢) الإصاب مصدر أصاب، كالإقام مصدر أقام، وفيه إعلال بالحذف.
(٣) الضوابي: النيران.
(٤) البوارق: السيوف.
(٥) الآصار: الأثقال.
(٦) الخلاب بالكسر: هو الخداع.

أكـــان العلمُ في عـــالِي سناهُ | ذريعة الاستراق والاستلاب
أروني منَّةً أسلفــــتُمــــوها | بلا نهب يرادُ ولا اغتصاب
طلائعَ كـــان علْمُكُم ليــوم | يهــونُ بجنبه يومُ الحســاب
ولم يكُ علمُنا إلا نظيــراً | لضوءِ الشمس يزهد في الثواب
أأنتمْ تُفْــتَنون بما ملكتمْ | من العُدَد النذيرةِ بالخــراب
ولا نُزْهَى بـــــآراءٍ صِحَاحٍ | هِي المنشود من فصل الخطاب
فــإن تخلْد مــآثِرنا وتسلم | على التــاريخ من شبُه المعَاب
فــذاك لأنهـــا آثار قــوم | كــرام الروح أطهــارِ الإهاب
لنا الخلدُ الذي لن ترزقــوهُ | ولو أوتيــتُم مُلْك السحــاب
فخبُّوا في المطامع كيف شئتمْ | وخوضوا القاتمات من العقاب[1]
ورُودوا الأرض في شرقٍ وغربٍ | بكِبــرِ الليث أو زهوِ الغــراب
وصـــولوا آثمين بنار حــرْبٍ | تحيلُ المزهرات إلى يبَــاب[2]
فسوف ترُوْنَ بعد مدىً قصيرٍ | فــرائسَ للمحــاقِ وللذهاب

* * *

بأهل إسكندريةَ بعض مــا بي | من الأحـزان للثغـر المصــاب
أتِلكَ قيــامـةٌ قــامتْ فدكَّتْ | حصون البأس من تلك الطوابي؟[3]

---

(١) العقاب: جمع عقبة بالتحريك، وهي الطريق الصعب في الجبل.

(٢) اليباب: الخراب.

(٣) الطوابي: القلاع، وهي كلمة تركية الأصل.

فـمن كـهلٍ سـديدِ الرأي يُمسِي | لوقعِ الـهولِ مـفـقـودَ الصـواب
ومـن رشأٍ تـصـــــيِّرُهُ الـرَّزايـا | وقِيذَ الشيب في شرخ الشباب[1]
ومن عـــذراءَ يلفظهـا حـمـاها | فـتـــخـرجُ للبـلاء بلا نقـاب
قـــــوارعُ لـم تـقـعْ إلا بـأرضٍ | يقـارعُ أهلهـا وَقْدَ الحِـراب[2]
فـمـا آثـامُ أهلِ (الـثـغـر) حـتى | يُشَنَّ عليـــهمُ ويلُ العــذابَ؟
مـضـت زُمـرٌ إلى الأرياف منهم | مُضِيَّ الأُسْد من غـابٍ لغـاب
فكيف استَقبلوا - بعد ارتفاهٍ- | جشيبَ العيش في تلك الشعاب؟
أمِن بَعـد الحـشـايا نـاعـمـاتٍ | يكون بسـاطُهم مَتْنَ الـتـراب؟
إلى جلَواتِهمْ في الصيف كانتْ | تُزفُّ أطايبُ الحـسن اللُّبــاب
وفي داراتـهـم كــــان الـتـنادي | إلى الصَّبوات في الشَّط الرَّغَاب[3]
فكيف مضَوْا حيارَى لم يثوبوا | إلى زادٍ يعــــدُّ ولا ثيــــاب؟
وكيف غدوْا بهذا الصيف صَرْعَى | لمشئوم الشتاتِ والاغتراب؟
كـذاك العـيشُ بؤسٌ بعـد لين | وشـهـدٌ يُسـتَقَى من بعد صاب
ومن عشق السُّلافة في صفاها | أحب لحبـهـا رنَقَ الصُّبـاب[4]

❋ ❋ ❋

(١) الوقيذ: المطعون.
(٢) الحراب: المحاربة.
(٣) الرغاب بفتح الراء: الفسيح.
(٤) الصباب بضم الصاد: بقية الكأس. والرنق: الكدر.

عروسَ البحر، نسرف إن رأينا حياتَك في المزاح وفي اللِّعاب[1]
وكيف وفي معاهدك الخوالي تسابقت العقول إلى الوِثاب؟
بكل محلَّةٍ وبكل أرضٍ مآثرُ منك طيبة النّصاب[2]
وما روما وآثينا إذا ما تبارى الفاخرونَ بالانتساب؟
منارَ العقل كنت بلا امتراءٍ ونارَ القلب كنت بلا ارتياب
بكى التاريخ من عهد لعهد مُصابَ العلم في (دار الكتاب)[3]
فهل كانت بدائعها لقومٍ أجانب عن مرابعك الرِّحاب؟
بَناك اسكندرٌ فيما بَناهُ كذلك قيلَ رَجماً بالمغاب[4]
ولو أَصغى أُولو الألباب يوماً لهَمْس الوحي في تلك الرَّوابي
لآمَنَ فِتيةٌ منهم برأي يَخالُك صادقاً «بِكرَ العُباب»
وهل «فينوسُ» عندَ مُرَبِّيها سوى «راقودَ» في أحلام «حابي»[5]
لِـ «كيمي» أنت، يا دارَ التنادي إلى الهيجاءِ أو دارَ التصابي[6]

---

(١) اللعاب: الملاعبة.
(٢) النصاب: الأصل.
(٣) دار الكتاب: هي مكتبة الإسكندرية المشهورة في التاريخ.
(٤) المغاب: هو الغيب، ومعناه الظن والتخمين.
(٥) يريد الشاعر أن يقول: إن الإسكندرية كانت موجودة قبل الإسكندر بأزمان طوال، وإنما سمي أحد أحيائها باسمه، فغلبت التسمية على مر الزمان، واسمها القديم راقود. وهنا التفت الشاعر التفاتة خيالية، فجعل «راقود» نظيرة «فينوس» و «فينوس» هي ربة الجمال عند القدماء وقد ولدت على شاطىء البحر، وكذلك ولدت «راقود»، وذلك معنى قوله: إنها «بكر العباب». ومن المؤكد أن «راقود» هي أقدم المدائن البحرية، لأن طبيعة ذلك المكان من شواطىء مصر توجب أن يكون أهلاً للحضارة والعمران.
(٦) «كيمي»: هو اسم مصر عند أهلها القدماء، «كيمي»: معناه السواد، وسميت «كيمي» لغلبة هذا اللون على أرضها، ومن «كيمي» جاءت لفظة «الكيمياء» لشهرة المصريين بالتفوق في الاختبارات الكيميائية.

لَـ «كِيـــمي» أنت من أيام نـوح تَوارثَكِ ابنمٌ عن خـيـر آب[1]

* * *

مَضى عـهدُ القياصر في انزعاج بأرضِ اسكندريةَ وانقـــلاب

بـلادٌ لـم تـكن إلاَّ مَجـــــالاً لمشبُوب الصِّيال والاحتراب

بجـمْرِ الثـورة الحـمراءِ يُغـذَى بَنوهـا لا بـزادٍ أو شـــــرابِ

وجـاءَ الفـتحُ فـانقـادوا لقـومٍ مساكنُهم بصهوات العِراب[2]

هوَ الإسـلامُ طَهَّرهم فـأضحـواْ كماءِ المُزْن في شعُبِ اللصاب[3]

فـهل يَدري المؤرخُ كيف صاروا طلائعَ للجـهـادِ وللغلاب؟

عليـهمْ عَوَّل الإسـلامُ فـيـمـا أرادَ من المغـــاربةِ الصِّلاب

فـأمُّوا الغـربَ يحرسهم تقاهم وقـد مشت الملائك في الركاب

وحلُّوا عـادلين به كـــرامـاً حلُولَ الغـيث بالبُقَع الجِداب

فلـمـا أن هوتْ شمس المعـالي بأندلسٍ ولاذت بالحـجـاب

تقـاطرَ أهلهـا يبغـون حـصناً يقـيـهـم شـر أيام التـبـاب

---

(١) «الآب» بالمد: هو «الأب»؛ وهذا المد جاء لعلة صرفية هي تعويض الحرف المحذوف وهو الواو، وهو يعوض في لغة التخاطب بتضعيف الباء فقول النصارى «باسم الآب» صحيح من الوجهة اللغوية.

(٢) «العراب»: الخيل العربية، ومساكن العرب في أيام بأسهم كانت فوق صهوات الخيل.

(٣) «اللصاب» جمع لصب، بكسر اللام: وهو الشّعب الضيق في الجبل، وهو يحفظ الماء من الأقذاء.

إلى جـفن الحِمى بالثغـر عـادوا ... كما عـاد الجُراز إلى القِراب[1]

* * *

أتاريخـاً يحـبِّره قـصـيـدي ... لماضي «الثغر» في عهد الشباب؟

وما الشمس المضيئة إن حكتها ... لرائيـها خيـوط من لُعـاب؟[2]

* * *

عليك اسكندريةُ أجَّ حـزني ... فطار تجلدي وهَوَى صوابي[3]

إذا فكرتُ فـيك غلَتْ دمـائي ... وآذنَ جمـر حِقـدي بالتـهـاب

ألاَ سـيفٌ أجـرِّدُه وأمـضي ... لأدفع عنك عـادية الذئاب؟

ألا جـيشٌ قـويٌّ البطش ضـارٍ ... يذيق عِداك أكـواب العـذاب؟

سأصمت كارهاً، والصمتُ حيناً ... يُعَدُّ من البـراعـة في الجـواب

أول أغسطس سنة ١٩٤١

---

(١) الجراز بالضم: هو السيف القاطع، والشاعر يشير إلى حقيقة تاريخية، وهي أن فريقاً من الجيش الذي فتح أفريقية ثم دخل الأندلس كان من الإسكندرية، فلما غاب نجم الأندلس لا ذ كثير من أهلها بالإسكندرية، فكثير من العائلات بالثغر يرجعون إلى أصول أندلسية ومغربية، وذلك سر الشراسة الغالبة على طباع الإسكندريين.

(٢) لعاب الشمس: شعاع ينحدر من السماء عند الظهيرة، والمراد أن التاريخ لا يصور الحقائق إلا بمقدار ما يصور اللعاب حقيقة الشمس.

(٣) أج الحزن: استعر واضطرم.

مع الدكتور طه حسين(*)

المعروف أن بيني وبين الدكتور طه «ما صنع الحدَّاد» وإن كنت أجهل المراد من هذه العبارة المصرية، ولكن ما صنع الحداد لا يمنع من لقاء الدكتور طه حسين، لأنه جاري بوزارة المعارف، والجيران يتلاقون كارهين أو طائعين، وفي ذلك التلاقي يجري الحديث حول محصول الحركة الأدبية في هذه الأيام، وهو يقرأ جميع ما تنشر المجلات ليعرف إلى أي مدى ينتهي جموح بعض الكاتبين!

– أنت يا دكتور زكي تتجاهل أن الدنيا في حرب.

– وماذا يصنع الكاتب في أيام الحرب، يا سيدي الدكتور؟

– يكتب ثم يطوي ما يكتب إلى أن تجيء أيام السلام.

– وإذا نَشر ما كَتَب؟

– يعاقب بالصمت.

– ولكن الكتابات الأدبية كالود الصحيح، وهو يُطلب في جميع الأوقات.

– هنالك أوقات تكون فيها الصحة ضرباً من الاعتلال، ويكون الفوز لأهل الأمراض.

– وهل وصلنا إلى هذه الغاية يا سيدي الدكتور؟

– لم نصل إلى هذه الغاية، ولكني أخشى عواقب هذه الحال.

– وما هذه الحال؟

– هي ضعف الأعصاب عند جميع الناس، بحيث يجوز الضجر من أجمل الأشياء وأشرف المعاني.

(*) مجلة الرسالة ٢٥/ ٥/ ١٩٤٢.

- ولكن المفكر مسؤول أمام قرائه في كل وقت، وفيهم من يجهل أن الدنيا في حرب.

- من واجب المفكر أن يعلّم قراءه ما يجهلون.
- وهذا ما أصنع يا سيدي الدكتور.
- هل علمتهم أن الدنيا في حرب؟
- قصصت عليهم قصة الطائر الغريب.
- وما قصة الطائر الغريب؟
- هو طائر يساير الأنوار المبثوثة فوق الشواطىء.
- لأي غرض؟
- ليعرف مسابح الأسماك فيهديها سواء السبيل.
- الناس يقولون غير ذلك!
- وماذا يقولون؟
- يقولون: إن الطائر يضع المصابيح ليجتذب الأسماك إليه.
- وماذا أصنع إذا كانت الطبيعة ترى النور سر الجاذبية؟
- ومن أجل هذا تطالب بحرية الفكر والرأي؟
- هو ذلك!
- أكتم هذا الحديث يا دكتور زكي، ولا تخبر أحداً بأنك حاورتني في الأنوار والظلمات.
- سمعاً وطاعة، يا سيدي الدكتور، فلن أنشر هذا الحديث إلا بعد انتهاء الحرب.

* * *

امتحان جديد:

تقوم الشواهد في كل يوم على أن الحكم للسيف والمدفع، وأن المعاني الروحية في سبيل الزوال، فكيف نلقى القراء في حدود ما عودناهم لعهد السلام؟ وكيف نناضل لحفظ سلطان الرأي في زمنٍ تضعضعت سلطنة الرغيف؟

هل نترك معالجة المشكلات اليومية وننصرف إلى معالجة المشكلات التاريخية؟

هل نتحدث عن جبل واق الواق في أساطير الأولين؟ لا هذا ولا ذاك، فسترون كيف نخرج من امتحان هذا الزمان بأمان.

* * *

يقال ويقال

يقال: إن المؤلفات الأدبية ظفرت في هذه الأيام برواج لم تعرفه من قبل؛ ويقال: إن السبب في هذا الرواج هو نفرة العقول من سخف الدعايات الأجنبية.

ويقال: إن الحرب علمت المصريين أشياء وأشياء، ولكنها غفلت عن تعليمهم معنى التضامن الوطني، فجهلوا التعاون في توفير الأقوات.

ويقال: إن وزارة الشؤون الاجتماعية قضت أعواماً في تعريف الصناع والزراع بأنهم تعساء، ولم تعلمهم كيف يدفعون التعاسة بشرف النضال في المطالب الحيوية.

وسمعت ثم سمعت أن الدولة ستحرّم الرّياء الاجتماعي تحريماً قاطعاً.

وحدثني من أثق بصدق روايته أن الميسر سيكون من المحرَّمات، وأن السهر في المنازل سيُمنع بعد صلاة العشاء.

صلاة العشاء؟ ... صلاة العشاء؟

يظهر أنني انتقلت إلى الحديث عن أهواء التاريخ!

* * *

موقعة العلمين(*)

العلَمين: اسم بقعة تقع في الطريق بين الإسكندرية ومرسى مطروح، وهي مثنّى علَم، وقد صارت بفضل حرب الصحراء الغربية أشهر من نار على علَم أو على علَمين!

(*) مجلة الرسالة بتاريخ ٢٠/٧/١٩٤٢.

والذي يراجع أخبار الصيّال بين قوات الحلفاء وقوات المحور في الصحراء يعرف أن تلك القوات لم تقف وقفةً أطول من وقفتها في العلمين، فهل كانت المقادير أرادت أن يكون لتلك التسمية هذا المصير فتكون تلك البقعة مكان الصراع بين العَلَم المهاجم والعَلَم المدافع؟

اللهم حوالَيْنا ولا علينا!!

* * *

ألوان الموت[1]

لك أن تقول: ألوان الموت، كما تقول: ألوان الطعام، أصناف الشراب، ومن حقك أن تختار لون الموت، لأنه فَنٌّ من الفنون، أو صنفٌ من الصنوف، أو «ضربٌ» من الضروب، ولعل من واجبك أن تفكر في اختيار لون الموت، لأن ذلك يشهد بأنك من الأحياء. وهل يفاضِل المرء بين لون ولون إلا وهو في حيوية ذوقية أو روحية تضيفه إلى أكابر الفنانين؟

ولتوضيح هذا المعنى أسوق الحادثة الآتية، وقد وقعت في مساء اليوم السادس من هذا الشهر الميمون:

قُبَيْل الغروب هبَّت عاصفة عنيفة، عاصفةٌ كادت تنقل إلى داري جميع رمال الصحراء، جزاءً بما صنعتُ من التغنّي بإشراف داري على الصحراء!

وفي ثورة تلك العاصفة يترنم الهتّاف، فأسمع صوت المسيو دي كومنين[2] يدعوني إلى سهرة تدور فيها أكواب الحديث، وهو لا يقدِّم لأضيافه غير أكواب الحديث، لأن العقل نهاه عن الشراب قبل أن ينهاه الطبيب.

وما كادت العاصفة تسكن حتى سلكتُ الطريق إلى ذلك الصديق، وهو طريقٌ لا يسلكه عابر في ليلة ظلماء إلا إذا كان على ميعاد مع حبيب.

---

(١) أكتب هذه الكلمة إجابة لاقتراح الأستاذ ابراهيم والي.

(٢) المسيو دي كومنين هو رئيس البعثة العلمانية الفرنسية في مصر ... وكان مديراً لمدرسة الليسية الفرنسية المصرية بمصر الجديدة أيام زكي مبارك.

كان المسيو دي كومنين في توحد الليث، فقد قضت ظلمات الأيام الأخيرة بأن يقرّ الناس في بيوتهم، فلا يسمر صديق مع صديق... ولا تسأل كيف طابت نفسي حين عرفتُ أنني السمير الوحيد في ذلك المساء، مع رجلٍ صِيغَ روحه من لباب الضياء.

كانت غابة الليسيه في تلك الليلة تكابد الشوق إلى من يتنقل بين أشجارها من وقت إلى وقت؛ ليُشعرها بأن في الوجود أرواحاً لم تشغلها مزعجات الحوادث عن الاستماع للأغاريد المطوية في ضمير الحفيف... وهل تصمت أشجار مصر عن التناجي بالحفيف في أي زمان؟

تحدثنا بجانب كل شجرة، وسلَّمنا على كل مكان، حتى المكان الذي أوصى المسيو دي كومنين بأن يدفن فيه، بعد العمر الطويل العريض.

وطال الحديث حتى استغرق أكثر من خمس ساعات، فاستأذنت في الانصراف، بعد أن شكرت للمسيو دي كومنين لطفه البالغ في إمتاع روحي وعقلي بذلك الحديث.

ويهتف هذا الصديق على السائق ليوصلني بالسيارة إلى داري، فلا يجده، وينادي الحارس ليصل جناحي بضع خطوات، فيعرف أنه يرابط في ناحية نائية، فيعلن أسفه على أن أسير وحدي في ذلك الظلام المحفوف بالحتوف، ولكني أُطمئنه فأقول: إني لا أعرف ولا أُصدّق أن في الدنيا رجلاً أقوى مني، فليجرب اللصوص حظهم في مصاولتي، إن كان في «مصر الجديدة» لصوص غير سُرَّاق القلوب، وأنا قد نجوت من المعاطب الوجدانية في مصر الجديدة، فما خوفي على حبيبي وقد نجا قلبي؟!

كان الطريق موحشاً أعنف الإيحاش، وكان الليل كأنه الليل!

طاخ، طاخ، طاخ!!!

والتفت فإذا المدافع تنطلق من كل صوب، ولم يسبقها نذيرٌ من صفارة أو بوق، وأنظر فأرى لهيبها ودخانها يثوران فوق رأسي، فأسرع بالدخول في بيت بلا أبواب، بيت لا يزال في مهد البناء، والمصريون لا يكفّون عن البناء ولو ارتفعت تكاليفه إلى عشرات الأضعاف.

طق، طق، طق!!!

والتفت مرة ثانية فأرى الأخشاب التي تحمل السقف مهددة بالسقوط، فأقفز إلى الفضاء، وقد اخترت لون الموت، وللموت ألوان: رأيت الموت بشظية مدفع أفضل من الموت بسقوط تخشيبة، كما أن الموت بالبِطنة أفضل من الموت بالجوع!

ثم نظرت فرأيت الضرب ابتعد، فهو ضرب طيارة انجليزية تطارد طيارة ألمانية، وقد أفلح الضرب فسقطت الطيارة المطارَدة عند الكيلو رقم٣ بطريق السويس، وكفى الله رأسي شر الهلاك، وضاعت الفرصة على أعدائي، فلم يحبّروا المقالات الطوال في: «مصرع الملاكم الأدبي»: والمستميت لا يموت، كما قال الحكماء!!

أفي هذه الأيام نقرأ ونكتُب، ونحاسب هذا الشاعر، ونصاول ذلك الكاتب؟.

نعم، ثم نعم... فليحاول الدهر بأحداثه وخطوبه زعزعة الفكر الثاقب والقلم البليغ!

* * *

النور أسرع من الضجيج(١)

أضاءت على حين غفلة أضاءت آفاقُ مصر الجديدة، وأضاءت ثم أضاءت؟ فقلت له: حتى هذه اللحظة أُطلقت ثلاثة مدافع؛ فقال: ومن أين عرفت؟ فقلت: من هذه الومضات؛ فقال: ولكني لم أسمع ضجيج المدافع؛ فقلت: ستسمع بعدَ لُحَيظات، وستؤمن بأن النور يسبق الضجيج.

فيا ناشدي الشهرة باسم الأدب، تذكَّروا ثم تذكروا... تذكَّروا أن من يواجه الأدب والحياة بلا قلب وبلا روح وبلا نور، فلن يكون له من مجد الأدب وشرف الحياة نصيب ولا خَلاَق.

---

(١) مجلة الرسالة ٢٧/ ٧/ ٤٢ العدد ٤٧٣.

النور أسرع من الضجيج، لأنه أرقّ وألطف، وأقوى وأغلب، فاستعينوا بحرارة أرواحكم، قبل أن تستعينوا بجهارة أصواتكم، واعلموا أن النور وليد النار، وأن جوهر الفكر المتألق فيه أصالة حيوية لا يدرك مَداها غير أرباب القلوب.

ومن أجل هذا كان الاضطهاد أعجز من أن يخمد حيوية الأديب، لأن الأدب نور، ولأن الاضطهاد ضجيج، والنور أقوى وأسرع من الضجيج.

ثم ماذا؟

إن وضعت أصابعك في أذنيك، فقد حَجَبْتَ عن سمعك ما تحبّ وما لا تحبُّ من الأصوات، وإن أغمضتَ عينيك، ثم عصبتهما بمنديل سَميك، فستحسّ النورَ عيناك، برغم ذلك الحجاب، أو برغم ذينك الحجابين، لأن النور أقوى وأسرع من الضجيج.

فيا أعداء الأدب، متى تعقلون؟!

سنضيء قبوركم إن اعتصمتم منا بظلمات القبور، لأن من واجب النور أن يمزّق الظلمات ... وسوف تعلمون!

محمد زكي مبارك

العدد: ٤٧٣ مجلة الرسالة، ٢٧/ ٧/ ١٩٤٢

❊ ❊ ❊

الحديث ذو شجون

مكانة الأديب في الجهاد[1]

اقترح أحد النواب المحترمين إحياء ذكرى «شوقي» بإقامة تمثال له في أحد شوارع القاهرة، وتلك التفاتة لطيفة تدل على قيمة الشعر في أنفس بعض النواب.

ولكنَّ أديباً فاضلاً تعقَّب هذا الاقتراح في جريدة (الدستور) فقال: يجب أولاً إقامة تمثال لمحمد فريد، وتمثال لمحمد عبده، وتمثال لقاسم أمين، قبل أن يقام تمثال لأحمد شوقي أو حافظ إبراهيم.

ولابأس بهذا الكلام، ولكن الأديب الفاضل علَّله فقال: نحن في عصر السيادةُ فيه للشجاعة والبأس، والعبادةُ فيه للبطولة والأبطال، لا للفن والجمال، وكل مقتحم ميداناً، ودالكٍ سوراً، ومنتزعٍ نصراً، مقدَّم على من يجلس فوق رابية آمنة، ليرسل من قيثارته ألحاناً مشجية.

ومعنى هذا التعليل أن أمثال محمد عبده ومحمد فريد كانوا جماعة من المجاهدين، وأن أمثال أحمد شوقي وحافظ ابراهيم كانوا جماعة من المغنين!!

ومن يعش في مصر ير العجب، وإلا فكيف يجوز القول بأن صورة الشاعر هي صورة «من يجلس فوق رابية آمنة، ليرسل من قيثارته ألحاناً مشجية»؟ وكيف يجوز القول بأن الشعراء ليسوا إلا جماعة يسبّحون للفن والجمال، ولا صلة لهم بالبطولة والأبطال؟

إن هذا الناقد لا يعرف كيف يحيا الشعراء، ولا يفهم من الشعر إلا أنه غناء، والأدب عنده متعة ذوقية يلهو بها الفارغون من أهل العبث والمجون.

فمتى يعرف أهل مصر أن حامل القلم هو الوطنيّ الأول، والمجاهد الأول، وأن معاني البطولة تعتلج في صدره قبل أن تعتلج في صدور القادة والزعماء؟

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٤٨٢ بتاريخ ٢٨/ ٩/ ١٩٤٢ .

وما أساس البطولة الحقيقية عند أمثال: محمد فريد ومحمد عبده وقاسم أمين؟

أساسها الفكر والبيان، ويجب حتماً أن نضيف هؤلاء إلى الأدباء قبل أن نعدّهم زعماء، فما ارتفعوا إلا بالفكر المُشْرِق والبيان الجميل.

وحكاية دكّ الأسوار واقتحام الميادين وانتزاع النصر تحتاج إلى شرح:

فهل من الحق أن الأديب لا يدكّ أسواراً ولا يقتحم ميادين؟

إن الأديب يقضي عُمُرَه في جهاد ونضال وعراك مع الدنيا والناس، ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل، وما شرَّق مشرِّق أو غرَّب مغرِّب في دعوة وطنية أو اجتماعية إلا على هدى من وحي الأديب؛ ولا استبسل جبان، أو استقتل شجاع، إلا بتحريض من عبارة فاه بها شاعرٌ أو كاتبٌ أو خطيب.

في أعقاب الحرب الماضية ظهر كتابٌ فرنسي اسمه : La Barbarle All وهو كتابٌ أُقيم على أساس القول بأن الوحشية الألمانية ترجع إلى إيحاء من شعراء الألمان ومفكريهم في القرن التاسع عشر، وأن السيوف تتلقى الوحي عن الأقلام في تلك البلاد.

وقيل هذه القولة الفرنسية في تعليل الوحشية الألمانية، قال أسلافنا منذ أزمان طوال: إن أبياتاً من شعر عمر بن أبي ربيعة نقلت قلب هارون الرشيد من مكان إلى مكان، فصنع بالبرامكة ما دوَّنه التاريخ بإسهاب. .

وإلى الأدب العربي يرجع الفضل في تأريث البطولة العربية، وكذلك حظ جميع الآداب في جميع الشعوب.

حين تزاور الرؤساء من الإنجليز والأمريكان بعد انتصار الحلفاء في الحرب الماضية لم يجدوا عبارة تفصح عن الألفة بين الأمتين أفضل من العبارة التي تقول: بأن لغة شكسبير هي الرباط الوثيق بين الإنجليز والأمريكان.

فهل سمعتم أن شكسبير دكّ أسواراً واقتحم ميادين؟

ومنذ أسبوع نقلت البرقيات أن المسيو هريو ردّ وسام «اللجيون دونير» إلى المُشير بيتان[1] -كان تلقاه من كليمنصو العظيم- لأن حكومة ڤيشي منحت هذا

(١) المشير باللغة العربية: هو الماريشال باللغة الفرنسية.

الوسام لضابطين يحاربان في صفوف الألمان، فعمّن تَلقَّى هريو هذا الوحي الرائع، الوحي الذي يأبى على الضمير الفرنسي أن يستبقي وساماً يُهدَى إلى من يحارب في صفوف الأعداء، ولو أصبحوا بحكم الضرورة حلفاء؟

هذه التفاتة أدبية لا سياسية، والأدب يوحي معاني تنفر منها السياسة، بحيث يجوز الحكم بأن الأدباء أشجع من السياسيين، وما مُدح سعد زغلول بأفضل من النص على أنه كان خطيباً وطنيًّا لا سياسيًّا، كما قال الأستاذ كامل بك سليم.

التفاتة المسيو هريو التفاتة أديب، وكان هريو في مطلع حياته أستاذ الأدب الفرنسي بجامعة ليون، وكان يعاب عليه الإسراف في شرح أصول الغزَل والتشبيب، فلم يكن يرتاد محاضراته بجامعة ليون غير عرائس ليون.

ثم تحولت العواطف الوجدانية عند المسيو هريو إلى عواطف وطنية، وهل كانت خطبه في مجلس النواب الفرنسي إلا روائع من الأدب المضمّخ بعبير الروح؟

ولم يقف الأدب بالمسيو هريو عند الوطنية المحلية، بل سما به إلى رعاية اللغة الفرنسية في البلاد الأجنبية، فرأس جمعية المسيو لاييك رياسة حقيقية لا صورية، وأمدها بما استطاع من الوقت والمال.

عتب عليه المسيو بينار في المؤتمر الذي عُقد في يوليه سنة ١٩٣٣ خُلْف الوعد بحضور افتتاح الليسيه فرانسيه في حلب، فاعتذر بأسلوب لن أنسى وقعه في نفسي، اعتذر بأنه يبيت في القطار ثلاث ليال من كل أسبوع، ثم أعلن استعداده لدفع النفقات التي توجبها الدعوة لنشر اللغة الفرنسية في البلاد الأجنبية؛ فهل تصدر هذه الأريحية إلا عن أديب؟

وفي ذلك اليوم دعوته لزيارة القاهرة فقال في حماسة: سنلتقي هنالك ياصديقي.

وقد برّ بالوعد فحضر لافتتاح الليسيه فرانسيه بمصر الجديدة في سنة ١٩٣٨، ولكني ما رأيته ولا رآني، فقد كنت في بغداد، عليها أطيب التحيات.

وخلاصة القول: إن الأدب عماد الوطنية، **ولا قيمة لوطن ليس فيه أدباء**.

وإذا تحذلق متحذلق فادّعى أن الأدباء لا يحسنون غير التغريد فوق أفنان الجمال، أجبناه قائلين بعزة وخُيَلاء:

إن الجمال هو أعظم نِعم الله في هذا الوجود، ولا يعيب التغني بالجمال غير مَرْضى الأذواق والقلوب... الأمم العظيمة هي التي تتغنى بالجمال، كما يصنع الإنجليز والألمان، وكما صنع العرب في شباب الزمان... فمن بدا له أن يغض من شعرائنا لأنهم يتحدثون عن الجمال، فليبادر باستشارة أحد الأطباء.

* * *

بين الحب والحرب

كان الصحفي الكبير الأستاذ عبد الحليم الغمراوي سكرتير تحرير جريدة المصري، فطلبني تليفونيًا في الليلة التي أعلنت فيها الهدنة في الحرب الأخيرة ليقول: أسعفني بقصيدة ننشرها غدا في «المصري» فقد اعتذر الشاعر علي محمود طه، ولم يبق أمامي غيرك، وستظهر جريدة الأهرام غدا وفيها قصيدة للأستاذ علي الجارم، ونحن مع الأهرام في منافسة صحفية.

فقلت: إن الخبر وصل إليّ قبل أن يصل إليك، وقد لمحته لمحا قبل شهرين، وأنا في مكتب الأستاذ أنطون باشا الجُميِّل، فقد كان الجارم بك سمع أن موعد الهدنة قريب فنظم قصيدة عن الهدنة وأودعها عند رئيس تحرير الأهرام لتنشر في صباح يوم الهدنة، وليقال: إن الوحي نزل عليه بالليل!

* * *

ثم.. ثم ماذا؟

ثم امتطيت قطار الإسكندرية وأنا حزين، لأنظم القصيدة في المكان الذي اعتدى فيه الإنجليز على كرامة الإسكندرية يوم الاحتلال.

وصلتُ إلى الإسكندرية مع الليل، وهداني قلبي إلى المكان الحزين، وتذكرت أن الجيش البريطاني في مصر كان يقيم احتفالاً في كل سنة بذكرى ضرب الإسكندرية، ولم ينته إلا بعد أن نهيته بمقال نشرته في جريدة البلاغ سنة ١٩٣٣.

* * *

ليت أيامي تعود!

ليت أيامي تعود!

أكاد أتذكر أنني دخلت الإسكندرية أول مرة في قطار الليل مع فريق من كرام المعتقلين، وأكاد أتذكر أيامي في الاعتقال، أكاد أتذكر أنني رفضت جميع الشروط التي عرضها رئيس المعسكر البريطاني، وهي ملخصة في كلمة وجيزة: هي أن أكون صديق بريطانيا العظمى.

فكان جوابي أن العظمة لله وحده.

ويشهد جميع من صاحبوني في مُعتقَل «سيدي بشر» أنني كنت آخر من بَقي في المعتقل.

ورأى الضباط الإنجليز أن من الحماقة أن يشغلوا أنفسهم بأسير له ضمير، فأطلقوا سراحي، والإنجليز لهم ضمائر في القليل من الأحايين!

❊ ❊ ❊

خرجتُ وما أدري كيف خرجت.

كان يجب أن أمرَّ على محافظ الإسكندرية، وهو يومذاك صاحب السعادة حسن باشا عبد الرازق، شقيق الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق.

قال الباشا: أنا أتذكر أنني عرفتك قبل هذا اليوم.

فقلت: وأنا أيضاً أتذكر أنني عرفتك قبل هذا اليوم.

فقال الباشا: ما رأيك في الشيخ عبد المجيد اللبان؟

فقلت: من قال لا أدري فقد أجاب.

فقال الباشا: أنا أخرجته من المعتقل ولم يحفظ جميلي.

❊ ❊ ❊

كان حسن باشا رجلاً أريحيّ الروح، وقد مات شهيداً في سبيل حرية الرأي، قتله جماعة من الأشرار على باب جريدة السياسة، وكانت في المكان الذي تقوم فيه اليوم «دار الهلال».

قتله قاتلوه لأنه كان يناهض سعد باشا زغلول، فبكى عليه الدكتور طه حسين والأستاذ توفيق دياب بمقالات حرار.

ماذا أريد أن أقول؟

أقول: إني خرجت ظمآن إلى الحرية بعد أن قدّم المحافظ تذكرة سفر من الإسكندرية إلى أشمون ... والحرية في ذلك الوقت هي أن أزور الأستاذ محمد الههياوي في جريدة «الأمة» والأستاذ عبد القادر حمزة في جريدة «الأهالي».

ثم سافرت ولم أر البحر، فقد سمعت هديره واكتفيت بما سمعت، كالذي رأيتموه في قصيدة «دار المجد والوجد».

* * *

ثم دارت الأيام على غير ما أريد، فرأيتني بعد ثلاثين سنة أقف نائحاً على الإسكندرية وقد أزعجها الألمان والطليان بقنابل دمّرت منها ما دمّرتْ، ولكنها بفضل الله بقيت خالدةً على الزمان.

كنت أفتش المدارس الأجنبية بالإسكندرية أيام الغارات، فلم أتردَّد لحظةً في أداء الواجب، ولم أنكص على عَقِبيَّ كما نكص بعض المفتشين، ولم أخف كما خاف وزير المعارف واسمه «فلان».

* * *

في ظلال تلك الذكريات نظمت قصيدة «بين الحب والحرب» لتنشرها جريدة «المصري» وليقول الأستاذ عبد الحليم الغمراوي ما نصُّه بالحرف:

«أهدى إلينا الكاتب الألمعي، والشاعر العربيّ، الدكتور زكي مبارك قصيدة رائعة، ضمَّت إلى قوة المعنى دقة المبْنَى، وبذلك جمعت فأوعت، ونحن نزفها هدية إلى القراء».

* * *

إن القصيدة التي أعجب بها الأستاذ عبد الحليم الغمراوي لم تعجب الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف، فكتب في مجلة الصباح كلمة «لطيفة» قال فيها: إنه لم يفهم شيئاً من القصيدة، ولعل ذلك يرجع إلى أن اسمه «فهمي».

أما الأستاذ عباس الأسواني - وأنا أتنبأ له بمستقبل جميل - فقد أعجبته الأبيات الأولى، ولم يفهم ما أريد بعد تلك الأبيات الجميلات ... فماذا أريد؟

في القصيدة تلميح إلى ضرب الإسكندرية بالمدافع ليلة الاحتلال، وفي «التلميح» ما يُغني عن التصريح، وقد أخفيت مرادي عن الأستاذ الغمراوي، ولو أنني أفصحت له عما أريد لرفض نشر القصيدة، لأن سيف الأحكام العرفية كان يتوعد أحرار الرجال مع أنه سيف مفلول، وما كنت أريد أن تغلق جريدة «المصري» من أجل هذه القصيدة الفريدة.

أزرق العين . .

من هو أزرق العين؟

غاب هذا المعنى عن فريق من القراء، فليعرفوا اليوم أنه «الإنجليزي» الذي أدّبتُه تأديباً فترك الاحتفال بذكرى ضرب الإسكندرية الغالية.

* * *

جمال الجمال:

بعد ظهور القصيدة لقيني أخي في الأدب وفي الحب الأستاذ أحمد الصاوي محمد وفي معيتة الأستاذ توفيق الحكيم فقال: أعجبني قولك: «ياجمال الجمال».

أحمد الصاوي محمد. . !!

من هو هذا الصاوي؟

أكاد أتوهم أننا كنا غريبين في باريس.

وأكاد أتوهم أنه كان تلميذي في اللغة الفرنسية يوم كان يقيم بحارة «الصالحية» ... Le passé ést mort الماضي مات ...

ولكنه أحيا من الحياة، ومن حياة الحياة، إن الصاوي هو الكاتب الوحيد الذي لم يكتب حرفاً واحداً في مناوشتي، مع أنني هجمت عليه مرة أو مرتين في جريدة البلاغ قبل سنين قصار أو طوال.

إن الماضي مات، ومات، ثم مات!!!

ولكن شاعراً لم يقرأ هذه القصيدة وهو الأستاذ كامل الشناوي واسمه الصحيح مصطفى كامل، كأنه وُلد يوم وفاة الزعيم الوطني مصطفى كامل.

رأيت هذا الفتى أول مرة في بيت الأستاذ زكي طليمات، وهما يأكلان الفسيخ متربعين على البساط، فرفضت الدعوة لأنني كنت قرأت كتابا بعنوان «ألف سيخ، في عين من أحل الفسيخ».

وما كنت أنتظر أن يصير هذان الفتيان إلى ما صارا إليه، فالأستاذ كامل الشناوي صار من كرام الكاتبين، والأستاذ زكي طليمات صار عميد المعهد العالي لفن التمثيل.

في هذه اللحظة -وأنا أكتب مقدمة القصيدة - يهتف الهتاف لأسمع: أنا محمد الشافعي البنا وسأحضر إليك ومعي طعام وشراب.

تعال: يا شافعي، تعال.

حضر الشافعي ومعه طعام وشراب، كأنه يتوهم أنني جوعان وظمآن على نحو ما كنت في أيام الاعتقال. أنا أعز هذا الأديب المفضال وهو يجمع بين مزيتين عظيمتين: صباحة الوجه، وطهارة الوجدان.

إنه يستريح إليّ بصورة عجيبة، ولا يطيب له الوقت إلا إن كان معي، ولعله يريد أن يتذكر شقاءنا في غياهب الاعتقال.

والمودة التي بيني وبينه لها أصل أصيل، فقد كنا في أيام الاعتقال على مذهبين مختلفين، كان هو يتحزب للوفد المصري، وكنت أنا أتشيع للحزب الوطني، ولكننا لم ندخل في أي جدال سياسي، فزادت مودتنا صفاءً إلى صفاء.

* * *

دخلت إسكندرية أول مرة وأنا «أسير حرب» وهو اللقب الذي خلعه عليّ الإنجليز، والورقة التي تؤيد ذلك تحت يدي وهي البرهان على ما أراد الإنجليز أن يصنعوه في شراء ضميري، ولم أسمح لأحد بالتفكير في شراء ضميري، فالحياة أهون من أن تباع فيها ضمائر الرجال.

* * *

أكتفي بهذا التمهيد في تهيئة الجو الذي يحيط بالقصيدة، وإنها لقصيدةٌ قبستها من نور القلب ونار الفؤاد.

* * *

ما على الغادرين نسكب دمعا … إن فُجعنا بصدّهم والفراقِ
غَرَّهم عطفُنا عليهم فظنُّوا … أنّ هجرانهم مَريرُ المذاق
لا تعودوا، ولا تمنُّوا علينا … بالذي تَمنحون يوم التلاقي
سوف نَصحو، وكل نشوة حبٍّ … سوف تُودي بها الليالي البواقي

* * *

حبُّكم أنجبته أيام حربٍ … صبْحُها في سناه ليلٌ بهيمُ
لا يصون الحليمُ فيها نُهاهُ … ساحةُ الحرب ليس فيها حليم
حبُّكم صيغَ من أمانٍ وخوفٍ … فهو نارٌ يهفو عليها النسيم
حبكم خِدعة السلامِ أشاعوا … قبلَ يومين أنها «تسليم»

* * *

كان ما كان وانقضتْ صَبَوَاتٌ … ثائراتٌ في إثرها صبَوَاتُ
كان عهد الهوى وثيقاً فأودى … بوثيق الوفاء هذا الشَّتَاتُ
قد سكبنا الدمع العزيز عليكم … وعلى القبر تُسكَب العبرات
أدمُعي إن سكبتها في غرامٍ … فهي في شِرْعة الهوى صلوات

* * *

أتروني عـرفت مـا كـان منكم — وقـصـيـدي في عَتْبكم تلمـيحُ
إن يومي بذلك «الثـغـر» يومٌ — أنا فـيـه مـقـاتِلٌ وجـريـح
مَطَرٌ هـاطِلٌ وبأسٌ شـديدٌ — وقـتـالٌ ومَدمَعٌ مـسـفـوح
لن تروني أموت، ما مات قلبٌ — صادقٌ في الهوى، ولا مات روح

***

كَذِبٌ ما سمعتَ من صدق عهدي — ليس للثـائر المجـرَّح عـهـدُ
إن أكن في هواك أخلفتُ وعداً — فلقـد ضـاع فيك وعـدٌ ووعـد
خـاتلٌ أنت، فاحترس من عقابي — كل ختَلٍ له عـقـابٌ وردُّ
مِحنتي فيك، والجروحُ قصاصٌ — لم تُسـدَّدْ ديونهـا السُّود بعـدُ

***

لـيلة الثـغـر لـيلةٌ كَربَتْني — وليـالي الجـوى عناءٌ وكـرب
كلـمـا قلتُ غـاب عني دُجـاها — أجَّ من طيـفـهـا قـتـالٌ وضـرْبُ
أعـيُن الغيـد لا تروم سـلامـاً — إن تسليـمـهـا المهـذَّب حـربُ
بـاطلٌ بـاطلٌ حـديثُ أناسٍ — زعـمـوا أن شرِعـة الكون حُبُّ

***

أيُّ عـــهــدٍ تَرَى وعِندك أني | في حيـاة الغـرام والوَجْدِ طفلُ
ليلةُ «الثغر» أفقدتني رشادي | إن بعضَ الجنون في الحب عَقْلُ
لن تراني إلا غـــريماً أثيـمــاً | وثَبُهُ في هواك خــبلٌ وقــتل
لا تحاولْ ضـلالةً في غـرامي | ليس لي في الضلال والمكر مِثْلُ

* * *

أُعلِنَ الصُّلحُ واطمأنتْ سيوفٌ | ظامئـاتٌ إلى حِمَى الأغـمـادِ
واستطار الهوى فأعلن حرباً | بين سُود العـيـون والأكـبـاد
حَرْبُنَا لـــم تقِف لُمَيْحَةَ طَرفٍ | من قــديم العــصــور والآباد
كل حــربٍ لهــا بشــائر صلحٍ | غير حرب سعيرُها في فؤادي

* * *

أنتَ، من أنت؟ لا أسمِّيك رفقاً | بك يا سُهْدَ أعين الرقـــبـــاءِ
أنت في خـاطري خيالٌ لطيفٌ | كـالخيـال المكنون في الصـهبـاء
لا تَخَلْ أنني جفَـــوتك زهداً | في عــذابي ولوعــتي وعنائي
إنني قـد كتمت حبك خوفاً | من فُضُول العـذَّال والسفـهـاء

* * *

أُعلِنَ الصلحُ بين قومٍ وقومٍ أين صُلحُ العيون صلحُ القلوبِ؟
دارت الحربُ بين قلبي وحبي إن حرب الهوى أمضُّ الحروب
كل خَطْبٍ يهون إلا خداعاً يصطليه متيَّمٌ من حبيبِ
أنا أذنبتُ في اشتياقي إليكم إن صدق الغرام بعض ذُنُوبي

* * *

أقبلَ الصلحُ، هكذا قال ناسٌ يُلبسُون الغروبَ ثوب الشروقِ
صلحُهم خاتِلٌ ضميراً وعيناً كاَشتمال العدوِّ ثوب الصديقِ
إن يخونوا، فما خيانةُ روح سَقَطتْ سِقْطةَ الهوى في طريقي
مكرُهم في هوايَ شارةُ حربٍ تؤْذِن الروحَ بالتهاب الحريق

* * *

أنت، من أنت؟ والسياسة غيبٌ هي رجمُ الظنون بعد الظنون
إنهم صوَّرُوك نُورَ ضميري إنهم صوَّروك نار شجوني
أين ألقاك؟ أين. . ؟ لا أين، إني حائرُ الروح في شعِاب الحنين
حبُّنا مات فابكِ أنت عليه غاض دمعي وغاب عني أنيني

* * *

قـال قـومٌ وقلتَ أنتَ سـلامـاً ... فـعليك تحـيـتي وسـلامي
إنَّ تسليـمكم عليَّ بشـيـرٌ ... بالجـميل النضـيـر من أيامي
ليت ما قد سمعت يؤنس رُوحي ... ويروِّي الظمـآن من أحـلامي
ليـتني أغـتـدي وأمـريَ أمـري ... في ودادي وفي مَرِير خـصـامي

* * *

يا جـمـالَ الجـمـال، هذا رقـيبٌ ... أزرقُ العين؛ يا جـمـال الجمالِ
لا تُصـدِّق كـلامـه في اتهـامي ... إنه يَمـتـري ضـروع الخـبـال
أمْرُ هذا الرقـيب يلغـيـه أمـرٌ ... منك يافـتـنةَ العـصـور الطوال
لم أجد قبل محنتي فيك ليثاً ... يأخـذ الأمـر عن عيـون الغـزال

* * *

مَرْأةُ الحـرب كـيْدُها أبديٌّ ... من هنا قـيل إنهـا هيـجـاءُ
مـرأة الحـرب أَخْطُبُوطٌ عنيفٌ ... كل أسنان ثغـرها هـوجـاء
لم أجـد مـرأةً حـمـيـداً جناها ... في سـبـيل الفناء هذي النسـاء
حُرَّةٌ تلك؟ إن سـمـعتم فـقـولوا ... حُرَّةٌ يعـتـلي عليـهـا الإمـاء

* * *

أقْبلَ الصلحُ، أيُّ صلحٍ؟ أجبني | أبهـذا الوجـود يُعْقـدُ صلُحُ؟
أنا، والحب يغتلي في فـؤادي | من عـتـابي عليك وَخْزٌ وَجَرحُ
لست أنسى أمانياً فيك ضاعت | لا تُصدِّقْ إن قيل في الحب صفح
غـافـر الذنب ليس يغـفـر ذنبـا | لحـبـيب جنَاه كـيـدٌ وشُحُّ

* * *

أَقْبَلَ الـصـلـح، إنـهـم سطَّروهُ | في سِجِلٍّ مُرَقَّم الصـفـحـاتِ
وتنادَوْا بأن عـهـداً جـديداً | يأمـرُ الناس بالذي هو آت
شَبَحُ الحـرب لن يعـود إليكم | فـتناسَوْا مـا كـان من هَنَوَاتِ
واذكروا أنكم غـدوتم جـميعـاً | في ظلال الخيـرات والثمـرات

* * *

شَبَحُ الحرب لن يعود؟ فما لي | ألمح الحـرب فـوق كل مكان
آسرِ شـامتٌ يقـهـقـهُ جـهْراً | وأسيـرٌ يغـتـابُ صَرْفَ الزمـان
أمرُكم للهوى كما صار أمري | إن خـوفي مرُّ الجَنَى من أمـاني
أنا أسـرفتُ في الرجـاء فأمسى | خَيّبُ هذا الرجاء إحدى الأماني

* * *

يا جـمـالَ الجـمـالِ أنت قـصيـدٌ	من رحيق الصبَّـا وهذا قـصيـدُ
لا تقـلْ بالذي يقـال حـديثـاً :	«ليس في الكون سيِّدٌ ومسُود»
كل عــصــرٍ به ظلامٌ وصـبحٌ	وظبــاءٌ تسطو عليـهــا أســود
لا تحـــاول فِرارةً من نبِـــالي	أنت أشـهى الصيُّـود مما أصيـد

* * *

أقبل الصلحُ؟ ذاك قولٌ عجيبٌ	لم «يؤشِّر» عليـه ذاك الرقـيبُ
قد شمِتْنا بكم، شمتنا، فتوبوا	وإلى مَشْرَع النـدامــــة ثوبوا
زمــــلاءٌ وهم لنا رقـــبـــاءٌ	بأسُهم في قــتــالنا مــرهوب
يلعنُ الله حـقـبـةً من زمــان	عاش فيها الأديب وهو غريب

* * *

قلمي، والحــيـــاةُ جَزْرٌ ومَدٌّ	ومَســاءٌ يمضي فـيـأتي صـبـاحُ
زَمَنُ الحـرب ليس عـهـدَ كفـاحٍ	في عهود السلام يُرْجى الكفاح
زمنُ الحــــرب أمــــرهُ لأُنـاسٍ	هم كـبـاشٌ جـهـادُهنَّ نِطاحُ
قلمي، أنت مِشــرط وزمـــاني	طِبُّه من جوّاه هـذا الســــلاح

* * *

يا فؤادي شهدتَ حربين فاقنعْ بالذي قد شهدتَه من خُطوبِ

وتعال استمع لآهات روحٍ هو من صدق حبه في كروب

إن عيشي تغتاله خطراتٌ هي رَمْي العيون حَبَّ القلوب

أنا يا قلب لا أبالي زماناً ضاع حظّي منه وضاع نصيبي

١٩ مايو سنة ١٩٤٥

* * *

الفصل الخامس

الأدب في الدين واللغة

الأدب في الدين واللغة

يقول الدكتور زكي مبارك: إن الوطن في عرف العربي القديم هو داره فقط، وكان العربي يحسن إلى داره يوم كان ضعيفاً، فلما أرشده الإسلام إلى أن الوطن الصحيح هو الكرة الأرضية مضى يصول ويجول من الشرق إلى الغرب، وينشر لغته في رحاب الأرض.

ويرى أن العربي الحق يؤمن بالفناء في سبيل العروبة، وأن الإسلام باب من أبواب الخلود...

وكان زكي مبارك يشتهي أن يزور الحجاز، ومن ذلك كتب على صفحات مجلة الرسالة في الثامن من يناير سنة ١٩٤٠ يقول:

«كنت أشتهي أن أزور الحجاز لأكتب عن وطن الرسول كتاباً لا يعرف الزور ولا البهتان».

ونحن بدورنا نقول: إذا كانت أمنيته لم تتحقق فإنه مع ذلك كتب الكثير عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كنت قد قرأت الكثير مما كتبه فإنني مع ذلك لا أستطيع القول بأنني ألممت بكل ما كتب زكي مبارك عن الدين الإسلامي الحنيف ولا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع هذا فسوف أعرض بعضاً منها لأنها في الطريق إلى القارىء الإسلامي والعربي في كتاب عن الفكر العربي عنده.

يقول زكي مبارك في الرابع عشر من يونية سنة ١٩٤٣ على صفحات مجلة الرسالة:

«لم أسمح لنفسي يوماً بالراحة باسم المرض، ولم أشكُ لغير الله ما يعتريني من التعب في بعض الأحايين، فبيني وبين الله عهود ومواثيق، والعهد بيني وبينه أن

أقضي العمر ساجعاً فوق ما آبدع من أفنان الجمال، فأنا واثق بأن العافية لن تضيع من يدي، وهل يرضى الله أن أسجع سجع الجريح؟

من المستحيل أن ينفصم مابيني وبين الله من عهود ومواثيق».

ومن قبل وفي الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٢ وفي مجلة الرسالة أيضاً يقول تحت عنوان: (النور القدير على تمزيق الظلمات):

«هو نور الله، النور الغلاب القهار الذي لا يصدُّه حجاب، ولو كان في كثافة أنفس المحجوبين عن كرم واجب الوجود».

«وما تمر بنا لحظة من لحظات الكدر أو الغيظ إلا كانت شاهداً على أن إيماننا بالله إيمانٌ مدخول.

ولا تمر بنا لمحة نعتمد فيها على هذا المخلوق أو ذاك إلا كانت دليلاً على أن ثقتنا بالله مزعزعة الأركان.

فما بالُ قومٍ تطير نفوسهم شَعاعاً حين يهدَّدون بغضب بعض الخلائق؟ وما بال قوم لا يستطيبون النوم إلا حين يطمئنون، إلى أنهم تحت حماية بعض الخلائق؟

لا يجوز لمن يخاف الناس أن يرجو الله، فإنه عز شأنه لا يسبغ نعمته الصحيحة إلا على المؤمنين، والمؤمن لا يخاف الفانين.

وما ذا يملك بنو آدم حتى يرجوهم من يرجو، أو يخافهم من يخاف؟

جرِّب الثقة بالله، إن كنت لم تجرِّبها من قبل، فسترى أن الأنس بالله يرفع عنك آسار الثقة بالناس، وما اعتمد أحدٌ على خلق الله إلا باء بالخذلان.

تواضَعْ لله وحده، ولا تتواضَعْ للناس، فهم بحكم فنائهم أذلاّء.

تواضع لله أدباً لا خوفاً، فهو يحب أن يراك في أخلاق السادة لا أخلاق العبيد.

لا تعامل باللطف والرفق إلا أهل اللطف والرفق: ثم أَوْلِ ظلمك وعدوانك لمن تحدثهم النفوس الأواثم بالتطاول عليك.

نزِّه نفسك عن الكفر بالله، ومن صور الكفر الموبق أن تقيم وزناً لمخلوق لا يؤمن بفكرة العدل، ولا يجعل هواه من هواك في الاحتكام إلى صاحب العزة والجبروت.

إنَّ زمانك قد أُصيب باختلال الموازين، ولم يبق من أهله من تحدثك ملامح وجهه بالخوف من الظلم والكذب والافتراء، فكُنْ أوحد زمانك في الفرار من تلك الأخلاق السُّود، ولا عليك أن تعيش عيش الفقراء، فما يغتني في أزمان الانحطاط غير التجار السفهاء.

وما أوصيك إلا بما أوصيت به نفسي، فما يستطيع ابن أنثى أن يقول : إني استعنت به في جليل من الأمر أو دقيق، ولا خطر في بال مخلوق أن ينال ودادي بغير الصدق في الوداد.

دنياكم سخيفة يابني آدم، وأنتم منها أسخف، وسبحان من تجاوزَ عنها وعنكم فأمدّها وأمدّكم بالشمس والقمر، والماء والهواء!

لست منكم، ولستم مني، فبيني وبين الله عهدٌ وثيق، وإلا فكيف جاز أن تحاربوني عشرين سنة، ثم لا تكون شكواي إلا من متاعب الغنى والثراء؟

آمنت بالله، آمنت، آمنت، وإني لأكاد أصافحه بيمناي.

ومن أنتَ ياربي؟ أجبني، فإنني
رأيتك بين الحُسن والزّهر والماء

* * *

النواحي الإنسانيّةْ في الرسول
«صلى الله عليه وسلم»

أحبك أيها الرسول!

أحبك لأنك كنت إنساناً له ذوقٌ وإحساس، ولم تكن كما يصوِّرك الجاهلون الذين رأوا عظمتك في أن تكون حاكياً لوحي السماء، وما أُنكر وحي السماء، ولكني أومن بأن في السريرة الإنسانية ذخائر من الصدق والروحانية، وأنت أول نبي أعز السريرة الإنسانية.

أليس دينك هو الدين الذي تفرد بالنص على أن المرء يتصل بربه بلا وسيط؟

أحبك أيها الرسول وأشتهي أن أتخلق بأخلاقك السامية. أحب أن أكظم غيظي كما كنت تكظم غيظك. أحب أن أسلم بجهادي من شهوات النفس كما سلمت بجهادك من شهوات النفس. أحب أن أفرَّ من الشيطان كما فَرَرْتَ من الشيطان، على شرط أن أحب الحياة كما أحببت الحياة.

أتدري لماذا أحبك أيها الرسول؟

لأنك أول من شرع الديمقراطية بين الأنبياء. ألست أنت الرجل الذي كان يتبذل في أكله ويقول:

«إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد».

أتدري لماذا أحبك أيها الرسول؟

أحبك لأنك جعلت الحرب في سبيل الحق شريعةً من الشرائع وهي مزية إنسانية، وكان الأنبياء من قبلك يكتفون بالتفكير في عجائب الملكوت!

أحبك لأنك أعلنت حبك لطيبات الحياة واحتقرت الرهبنة والانزواء في المعابد والصوامع.

أحبك لأنك انتقلت من المعلوم إلى المجهول.

أحبك لأنك أعززت الشخصية الإنسانية يوم اعترفت بأنها صالحةٌ للخطأ والصواب .

ولكن ما رأيك فيمن يقاومون الحرية الفكرية باسم الغيرة على دينك؟

ما رأيك فيمن لا يرضيهم أن تكون إنساناً يتذوق أطايب الحياة ويلهو أحياناً بالمزاح المقبول؟

ما رأيك فيمن يحاربون الفنون والآداب باسم الدين؟

ما رأيك فيمن يتوهمون أن الشخصية النبوية مجردة من البهجة والأريحية؟

ما رأيك فيمن يُخرِجون من فردوس العقيدة الصحيحة كل من يتَّسم بسمة الحب لأطايب الحياة؟

أنت حاربت الزهد، وحاربت العبوس، وحاربت اليأس، ولكن بعض الناس يرون الإيمان لا يكمل إلا عند من يغرقون في لجج المسكنة والكآبة والقنوط .

كنت إنساناً أيها الرسول قبل أن تكون نبيًّا، وتلك الإنسانية هي التي فتحت صدرك للصفح عن هفوات الناس، وهي التي جعلتك تنظر إلى ضعفهم بعين العطف، وهي التي قضت بأن تذوق ملوحة الدمع في بعض الأحيان .

أنت نزهت نفسك عن الشعر، الشعر المحبوس في قوافٍ وأوزان، ولكني لا أنزهك عن الشاعرية العالية التي تواجه الوجود بنظر ثاقب، وقلبٍ حساس .

وكيف تخلو من الشاعرية وقد خلوتَ إلى مناجاة القلب في غار حراء؟

كيف تخلو من الشاعرية وقد كنت رجلاً فحلاً يجيد افتراع المعاني؟

أنا أعرف لماذا نزهت نفسك عن الشعر أيها الإنسان الحساس، إنما نزهت نفسك عن الشعر لأن الشعراء في عصرك لم يكونوا عظماء الأرواح .

وإلا فأي شعرٍ فاتَك وأنت تدعو إلى التفكير فيما خلق الله من غرائب وأعاجيب؟

أي شعر فاتك وأنت تجعل السير في الأرض من واجبات الرجال؟

أي شعرٍ فاتَك وأنت الذي أشار بالأفضلية في الإمامة لمن وهبهم الله حسن الوجه وجمال الصوت؟

أي شعرٍ فاتَك وكان شخصك الكريم قيثارة تتغنَّى بمحاسن الوجود؟

* * *

الآن عرفتُ لماذا يضن عليك بعض أتباعك بصفة الإنسانية، إنما فعلوا ذلك لأنهم في ذات أنفسهم لا يؤمنون بعظمة الإنسانية، أما أنت فقد رميت بالكفر كل من يريد أن يخلع عليك ثوب الألوهية، لأن الله خصك بأجمل مزية من مزايا الإنسانية وهي الصدق.

لقد فكرتُ مرات كثيرة من الاقتراب من روحك فلم يعقني عائق لأن بيني وبينك وشيجةً من الإنسانية.

ودعاني الشوق مرة إلى مسامرة خيالك فرأيتك إنساناً كاملاً لا تقع عينه على غير الجميل من شمائلِ الأصدقاء.

وصحبتك مرةً في بعض غزواتك فهالني أن تكون رجلاً نبيلاً يصبر على الظمأ والجوع والأذى في سبيل الحق.

وشهدتك وأنت تعاني الكرب من فضول الناس وتزّيد المنافقين وتقوّل السفهاء، فعرفت أنك إنسانٌ ممتاز، لأن الابتلاء بأذى الناس لا يكون إلا من حظوظ الممتازين بين الرجال.

وشهدتك يوم الموت وأنت تواسي ابنتك فتقول: «لا كرب على أبيك بعد اليوم» فعرفت أن الكرب في الدنيا مقصور على عظماء الرجال.

شهدتُ من أخلاقك وشمائلك ما شهدتُ، أيها الإنسان الكامل، فزدتُ اقتناعاً بأنك على خلقٍ عظيم.

ولكن ما هي العظمة في خلقك، أيها الرسول؟

لقد وضعت أعظم دستور للسريرة الإنسانية، وهو دستور الصدق، يا أصدق من عرف التاريخ من الرجال.

***

أما بعد! فقد ارتاض القول بعد جموح، وصار من السهل أن أحكم بأن النبوة عهد من عهود العظمة في الطبيعة الإنسانية، ولولا خوف الفتنة لزدت هذا المعنى تفصيلاً إلى تفصيل.

محمد إنسان، ولكنه إنسان مظلوم، لأن أتباعه جردوه من فضل الاجتهاد في سبيل الخير والحق والجمال.

وهنا تظهر مزية جديدة لذلك الرسول هي نكران الذات، فلو كان محمد رجلاً من أمثال فلان وفلان وفلان من الذين نقلوا أممهم من حال إلى أحوال لملأ الدنيا بالحديث عما وضع للحياة من أصول وقوانين.

ولكن محمداً كان يحبّ أن يعيش مسكيناً وأن يحشر بين المساكين، وقد جزاه الله خير جزاء، فخصه بالعظمة في الحياة وبعد الممات.

محمد بشرٌ مثلكم يا بني آدم، وقد دعاكم إلى التخلق بأخلاقه، ولم يكتف بذلك، بل دعاكم إلى التخلّق بأخلاق الله إلا الكبرياء، فهل رأيتم إنسانية مثل هذه الإنسانية؟

محمد تحدث عن هفواته -إن كان له هفوات- ليدلكم على أن العظمة الحقيقية لا تكون إلا باتهام النفس والحذر من طغيان الأهواء.

كان محمد يقول في صدر خطبته: «أيها الناس» أو «يا عباد الله».

وأنتم تقولون في صدور الخطب: «أيها السادة» أو «سيداتي، سادتي».

فتأملوا الفرق بين العبارتين لتعرفوا أنه كان يبتعد عن تملق الأهواء.

استطاع محمد أن يتحدث عن هفوات الأنبياء، وعجزتم أنتم عن الحديث عن هفوات الزعماء.

فاعرفوا -إن شئتم- أن عظمة محمد من الوجهة الإنسانية هي تمجيد الصدق والخوف من زيغ القلوب.

قد تقولون: إن الله أوحى إليه أن يكون كذلك.

وأجيب بأن أكمل خصيصة من خصائص الرجال هي الصلاحيةُ لتقبُّل وحي السماء.

وللسماء وحيٌ في كل وقت، ولكن أين القلوب التي تسمع؟

إن محمداً حدثكم بأن الرجل يستطيع أن يخاطب ربه بلا وسيط.

فأين المسلم الذي فهم أسرار الحروف واتجه بقلبه إلى مناجاة فاطر الأرض والسموات؟

أين المسلم الذي تأدب بأدب الرسول فعرف أنه مسئول أمام الله لا أمام الناس؟

* * *

والآن أرجع إلى نفسي فأقول:

كان محمد إنساناً، ولكنه كان أعظم من جميع الناس لأنه لم ير الغنيمة في غير المعنويات.

كان محمدٌ يستطيع أن يبني لنفسه داراً تشبه إيوان كسرى؛ وكان يستطيع أن يبني لنفسه قبراً يشبه هرم فرعون، ولكنه آثر أن يحيا ويموت وهو في مَتْرَبَةِ المساكين.

إن محمداً ظلم نفسه لينتصر ويفوز، وقد انتصر وفاز.

إن محمداً حرم نفسه أبهة الملك، وباسمه عاش الملوك.

إن محمداً حرم نفسه الشهرة بإجادة البيان، وبفضل الكتاب الذي بلّغه عاش البيان. فيارسول الله ويا إمام العرب والمسلمين إليك أوجِّه أصدق الثناء.

* * *

الأعياد اليومية
والأعياد الموسمية

خطبة سجلت في إذاعة القاهرة لتلقى في إذاعة فلسطين.

أيها السادة(*)

أقدم إليكم أصدق التحيات، راجياً أن يصل صوتي إلى أسماعكم وأنتم بخير وعافية، وآملاً أن تعيشوا إلى أمثال هذا العيد في رغد وطمأنينة وصفاء.

أما بعد! فلكل منا أعيادٌ يومية، وأعياد موسمية، فما الفرق بين هذه الأعياد وتلك الأعياد؟

الأعياد الموسمية أعيادٌ شرعها الأنبياء ليوقظوا روح السرور في الناس، عساهم يلتفتون إلى موكب الحياة من حين إلى حين.

هل تعرفون السر فيما قضت به الشريعة الإسلامية من جعل الصوم حراماً في يوم العيد؟

كان ذلك لأن الرسول خاف على أمته أن تتنسك تنسك الأموات فلا تفرح ولا تبتهج في أي يوم، ولو كان يوم العيد.

هل تعرفون السر في أن يقول القرآن: «خذوا زينتكم عند كل مسجد»!

إنه يدعوكم إلى لقاء الله في الصلوات وأنتم في أجمل ما تملكون من الثياب، لتفهموا أن الله يحب أن يراكم في نضارة النعيم لا في قساوة الشقاء.

إن الأعياد الموسمية توحي بالسرور الشامل حين تصوِّر الناس وقد احتشدوا للفرح والابتهاج، وحين تدعو كل فرد إلى التجمل، وحين تدعو كل بيت إلى

(*) مجلة الرسالة بتاريخ ١١/ ١٠/ ٤٣.

إعداد الأطايب من الطعام والشراب، فمن تلك المظاهر المتجمعة يسري روح المرح في الجماهير، وتشعر النفوس بمعاني البِشر والأنس، وتلتفت القلوب إلى حظوظها المنسية في دنيا السعادة والهناء.

ولعل زكاة الفِطر لم تُشْرع إلا لهذا الغرض، فالمراد منها أن تثور موجةٌ من البر والإحسان، موجةٌ رحيمة تقضي بأن يجد الفقراء والمساكين ما يغنيهم عن التفكير في هموم العيش أيام العيد.

تصوروا كيف تكون الحال لو أدى الموسرون جميعاً زكاة الفطر بإخلاص.

تصوروا كيف يعمّ الفرح في مثل هذه الحال، فيفرح الغنيُّ بالتوفيق إلى أداء الواجب، ويفرح الفقير بأن يجد جاراً يواسيه باسم الشرع لا باسم الإفضال، فما كانت الزكاة إفضالا وإنما هي واجب مفروض لا ينتظر صاحبُه من الناس أي ثناء.

في هذه الحال يكون الفقراء ضيوف الله في أيام العيد، لا ضيوف الموسرين من الجيران، ومع هذا تذيع القالة الجميلة فترفع أقدار المزكّين، وتزيدهم إيماناً بأن المعروف لا يذهب بين الله والناس.

ومن مزايا الأعياد الموسمية أنها تذكّر بحقوق ودية ينساها الأهل والأقارب في أكثر الأحايين، فما في كل يوم نسأل عن أقربائنا وأصدقائنا، ولا في كل أسبوع ولا في كل شهر أو كل شهرين، ولكننا نشعر بوجوب السؤال عنهم في أيام العيد لنجازيهم لطفاً بلطف ووفاءً بوفاء.

والأعياد الموسمية تقهرنا قهراً على تحية من يئسوا من التحية، لأنهم ذهبوا إلى العالم البعيد، عالم الموت، ولم تبق فرصة لتحيتهم غير فرصة العيد.

أتدركون معنى الجمال الروحي في أن يكون أول من نحيّيهم في ليلة العيد هم الأموات؟

تلك التفاتة معنوية لها قيمة عظيمة، والوفاء الحق هو الوفاء لمن لا يملك الجزاء.

أيها السادة :

إن فضائل الأعياد الموسمية أوضح من أن تحتاج إلى شرح، فتفضلوا بسماع كلمة وجيزة عن الأعياد اليومية، الأعياد التي تواجهنا في كل يوم، لو عرفنا كيف نروض النفس على إدراك الخفايا من نِعم المنعم الوهاب، وهي نِعم تتجدد في كل لحظة، فنحن بها كل يوم في عيد.

تشرق الشمس والعافية في بدنك، والزاد في دارك، فيومك يوم عيد.

تغرب الشمس وحولك أهلك، والنوم يداعب جفونك، فليلتك ليلة عيد.

قد تطوف بك أحزان تثير دموعك، وهذا يقع من وقت إلى وقت، ولكنه شاهد على أنك في عيد، فالدموع في عيون الباكين أدوية ربانية تصنع في طب العيون ما يعجز عنه أطباء العيون، والأحزان في صدور المكروبين مراهم روحية تصنع ما يصنع المرهم الواقي في شفاء الجرح البليغ.

هل تعرف حكمة الله في الألم؟

إن الألم نعمة نفيسة، فهو بشير العافية، لأنه ينبه إلى المرض، والتنبه للمرض يدعو إلى العلاج وهو باب الشفاء.

والآفة الخطيرة هي انعدام الإحساس بالآلام، فإن تألمت فاعرف أنك في حيوية، وتذكّر حكمة الله في الألم، لتعرف أنك في عيد.

الحزن علامة قوة لا علامة ضعف، لأنه يشهد بإدراكنا لقيمة ما نفقد، ولا نكون كذلك إلا ونحن أصحاء، فإن حزنت فاعرف أنك بعافية وأنك في عيد.

وكيف تكون العاقبة لو عشنا بلا أحزان وبلا دموع؟

إن الأحزان والدموع كانت ولن تزال من أنصبة الموهوبين **والحزن العظيم لا يكون إلا من نصيب الرجل العظيم، ولو كان البكاء عيباً لنزه الله الأنبياء عن البكاء، فلم يبك يعقوب على يوسف ولم يبك محمد على إبراهيم، فإن بكيت فاعلم أنك بخير وأنك في عيد.**

إن كنت غنياً فتذكر أن الغنى من النعم السوابغ، فأنت كل يوم في عيد.

وإن كنت فقيراً، فما عيدك؟ وهل تكون للفقراء أعياد يومية؟

افتح قلبك واسمع هذا الدرس :

الفقراء في كل زمان وفي كل مكان هم عماد المدنية ، فبجهودهم تُقام الصروح الشوامخ ، وبأيديهم تُحفَر الأنهار ، وتُزرع الحقول ، وتُنشأ البساتين ، فإن كنت من هؤلاء فمن حقك أن ترى أنك كل يوم في عيد .

خزان أسوان من صنع يدك ، كما كان برج بابل من صنع يدك ، وكما كان سور الصين من صنع يدك ، وما قام في الدنيا بناء وأنت غائب ، يا فقيراً يعمل ليجد القوت ، فأنت بجهادك مصدر العيد لمن ينعمون بالعيد ، ولو عقلتَ لأدركتَ أنك كل لحظة في عيد .

ولنفرض أنك كنّاس يكنس الشوارع ويملأ عينيه ورئتيه بالتراب في كل يوم ، حتى يوم العيد ، فهل تعرف نعمة الله عليك؟

تذكّر أن الغبار يقذي العيون ولكنه لا يقذي عينيك ، لأن الله يحميك ، وتذكّر أن الغبار قد يُورث مرض السل ، ومع هذا لم نسمع أن كناساً مات بالسل ، فما يرضى الله بالمرض لمن يحاربون المرض ، كما تحاربه بالمكنسة يا حضرة الكناس ، فأنت كل يوم في عيد .

* * *

أيها السادة :

في ظلال هذا الفهم لنعم الله ندرك أننا كل يوم بعافية ، وأننا كل يوم في عيد ، وأننا مسئولون في كل لحظة عن إعلان السرور بما يجود به المنعم الوهاب .

الطفل يطالب أهله بحلة جديدة في العيد ، لأنه لا يعرف غير الجديد ، فما حاجتنا إلى حُلل من القطن أو الصوف أو الحرير ونحن في حُلل من العافية للجهاد في سبيل الرزق الحلال .

أنا لا أرى الله خص بالشقاء جيلاً من الناس .

البصير في نعمة لأنه يرى محاسن الوجود .

والضرير في نعمة لأنه لا يرى مساوىء الوجود .

والأصم المحروم من لطائف الأنغام صانه الله عن سماع المرذول من الاغتياب .

نحن جميعاً في رعاية الله ، فنحن كل يوم في عيد .

لقد غلا كل شيء في أعوام الحرب، إلا الماء، لأنه أنفس موجود، والله يجود بالنفيس قبل أن يجود بالخسيس، وليس في نعم الله خسيس.

أيها السادة:

إن الأعياد الموسمية أعياد العوام، أما الأعياد اليومية فهي أعياد الخواص، وأنا أدعوكم إلى التأمل في نعم الله عليكم لتكونوا كل يوم في عيد.

نعم الله لا تعرف شعبان ولا رمضان، ولا تلتفت إلى المواقيت. نعمُ الله تُساق مع الأنفاس فليس لها رسوم ولا حدود، والسعادة من نصيب من يؤمن بأن الله منعمٌ ومتفضل في جميع الأحوال.

ولكن هذه الغاية لا تبدو بوضوح في كل وقت، لأن قلوبنا معرضة لغشاوات من الجهل والغرض والطمع والإسفاف.

نحن نباتٌ ظهر فوق الأرض، وأغصاننا مع هذا أطول من جذورنا، لأننا مجذوبون إلى السماء لا إلى الأرض، فماذا تريد بنا يا فاطر السماء؟

نحن منك وإليك، ولن ننحط في أي حال، فما ينحط من يؤمن بك ولو عاش في ظلمات الأدغال.

سمعنا وقرأنا أن عندك نعيماً وسعيراً، فلمن أعددت نعيمك وسعيرك؟

نحن لا نطالب بأن نكون من أهل رحمتك، فلسنا لذلك بأهل، وإنما نرجو أن تجعلنا من أهل عذابك، لنثق بالصلاحية لأن تضع أعمالنا في الميزان.

العيد هو يومنا عندك، ولو في أسوأ الفروض، فمن السعادة أن نقف بين يديك مسئولين.

والعيد الأعظم هو أن توقظ ضمائرنا في كل وقت لنعاني ألف حساب قبل يوم الحساب.

لا عيد ولا جديد إلا إن رجونا رحمتك وخشينا عذابك، فامنح قلوبنا نعمة الخوف منك والاعتماد عليك لنشعر بأننا كل يوم في عيد.

السماء في عيدك، والأرض في عيدك، والشمس في عيدك، والقمر في عيدك، والنجوم في عيدك، وأنت العيد لما نجهل من المواجيد، فأنت في غضبك ورضاك عيدٌ وألف عيد، فهل تسمح يا إلهي بأن نكون بفضلك كل يوم في عيد؟

* * *

صلاة الجمعة في مسجد باريس

ما شهدتُ باريس إلا خطر بالبال ما يجب على المؤمن من الرجوع إلى ربه لحظة أو لحظتين في هذه المدينة العجيبة التي طغت على كل ما تصوره الأقدمون من نعيم الجِنان، وكان يرضيني في تهدئة الروح الظامىء إلى سَلسبيل السلام والسكون أن أذهبَ إلى جامع باريس فأطوف به ساعة من الزمان بين النقوش العربية الدقيقة التي تزدان بها الجدران والسقوف، وبين خرير المياه في تلك الأحواض البديعة التي تذكِّر بأفنية المساجد الأندلسية عليها السلام، ثم آوي إلى قهوة الجامع فأتناول كأساً من الشاي محفوفاً بالألحان العربية يهديها إلى السمع أولئك المغنون الذين يُسمعونك في باريس بعض ما تسمع على ضِفاف النيل.

ولكن أين هذا كله من ذلك الخاطر الغَريب الذي يعتادني منذ ثلاثة أعوام: فقد فكرت غيره مرة في أن أشهد صلاة الجمعة لأرى ماذا يقول الإمام في نصح من يعيشون في باريس، وما هي قائمة المنكرات التي يحاربها الخطيب في مسجد باريس، وكنت أقدّر أنني سأجد أجمل فرصة أفهم بها تأثير الزمان والمكان في تلوين النصائح الدينية وتكوين عقليات الواعظين.

وهنا لا أكتم القارىء أني انصرفت عن صلاة الجمعة في مساجد القاهرة منذ أعوام. ويرجع السبب في ذلك إلى حادثة صغيرة زهدتني في أصحاب الخطب المنبرية: ذلك أنني كنت أحرر جريدة الأفكار في سنة ١٩٢١ فزارني بعض خطباء المساجد وفي يده مقالة يلح في نشرها، ولكني وجدتها مملوءة بالطعن في الحكومة، لماذا؟ لأنها لا تمنح خطباء المساجد من المرتبات ما يعينهم على المظهر اللائق بهم. وفي اليوم التالي ذهبت أصلي الجمعة في أحد المساجد فوجدت صاحبنا بعينه يلعن الدنيا ويذم أهلها ويزعم أنها جيفة وأن طلابها كلاب!

وليس من التحامل في شيء أن أذكر أن جمهور المثقفين في مصر لا يجد ما يشجعه على الحرص على فريضة الجمعة، وقد يكون في هذه الإشارة ما يحمل

فضيلة الأستاذ الشيخ المراغي على وضع منهاج جديد تحيا به الخطب المنبرية، ويدخل فيها من الجِدة والروح والحياة ما يجعلها وِرداً سائغا تهرع إليه النفوس المتعطشة إلى الحكمة والموعظة الحسنة، فقد دبّ الشباب في كل شيء إلا خطباء المساجد عند المسلمين.

ذهبت إذن إلى مسجد باريس وفي نيتي أن أقف موقف المشاهد الذي يقيد ما يرى من الظواهر والفروق، ولكنني لم أكد أتخطى عتبة المسجد حتى شعرت بأن «روح النقد» انصرف عني، وشعرت بأن «روح الإيمان» أخذ يحتل مشاعري وحواسّي، وابتدأت فصليت ركعتين لله، وكنت حُرمت هذا منذ أزمان، ثم جلست أتأمل فيما يحتوي المسجد، فإذا المنبر مُهْدَى من «فؤاد الأول ملك مصر» وهو منبر جميل يحمل إلى باريس نفحة مصرية تذكر بأقدم أرض شُغلت بالآداب والفنون، ونظرت إلى المصلين فإذا هم قوم قد أخلصوا لربهم وبدت علَيهم سيماء الخشوع، ومن ذا الذي يهرب من فتنة باريس إلى المسجد من دون أن يجد في قلبه روح التقوى وحرارة اليقين؟ ولأمرٍ مّا عددت المصلين فإذا هم خمسون أو يزيدون. وانتظرت سورة الكهف. ولكني وجدتها لا تقرأ قبل الصلاة، فتذكرت أن قراءتها على هذا النحو بدعة، وعجبت كيف يخلو ذلك المسجد من هذه البدعة وهو في باريس أمّ البدع والضلالات!

وبعد برهة فتح باب صغير أقبل منه الخطيب، ثم صعد المنبر، وأضيئت جوانب المسجد، ثم كانت تقدمة صغيرة قام بها أحد المؤذنين، وافتتح الإمام في أثرها الخطبة، وقد نظرت فإذا هو يحمل طائفة من الأوراق تشبه أن تكون مَلزمة مفردة من كتاب. فتذكرت الخطب المنبرية التي تطبع في مصر ويستظهرها الخطباء ليعيدوها بنصها في كل عام على اختلاف الجمع والشهور، وتوقعت أن تكون هذه أيضاً مقتطفة من بعض الدواوين المصرية. ولكن هذا الخطيب طالعنا بخطبة فصيحة، بريئة من اللحن ومن الضعف كأنه السيد البلاوي في مسجد الحسين. لقد ترك هذا الخطيب كل شيء من حياة باريس، كأن النصح فيها لا يغني ولا ينفع، وأخذ يحدثنا عن شهر ربيع الأول وما وقع فيه من الحوادث الجِسام في عهد الرسول، فسألت نفسي: أتكون هذه المرة الأولى التي يتحدث فيها الخطيب عن

ربيع الأول مع أننا في الجمعة الأخيرة منه، أم هذه خطبة ثانية أو ثالثة من هذا الشهر الميمون؟!

ورأيت لأول مرة في حياتي خطيباً ينشد الشعر في خطبة الجمعة كلما بدت مناسبة، فقد أنشد هذا البيت:

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد
ذُخرا يكون كصالح الأعمال

وإذا صح أن هذا البيت من شعر الأخطل - وكان نصرانيا لا يفارق الشَراب- فإنه لدليل على أن للشعراء لحظات تصفو فيها نفوسهم فتفيض بالحكمة العالية يبقى أثرها بين مختلف الفرق والملل وعلى اطراد الأجيال.

وأنشد في مكان آخر الأبيات التي يقول في بدايتها الحريري:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها   شرَكُ الردى وقرارة الأكدارِ
دارٌ متى ما أضحكت في يومها   أبكت غدا تباًّ لها من دار

وفي مكان ثالث أنشد أبياتا في مناقب أبي بكر رضي الله عنه غابت عن الذاكرة. وكنت لا أعرف لأي سبب يترك خطباء المساجدالاستشهاد بالشعر، ولكن بعض رجال الدين له رأي في الشعر قد يكون السبب في العدول عن الاستشهاد به، إذ لا يراه من الأمور ذوات البال!

ولاحظت أن خطيب جامع باريس يملأ خطبته بالنفحات الوجدانية، فهو يقول مثلا: «وأين ربيع الروح من ربيع العين» هكذا وقعت الجملة لضرورة السجع، وكنت أحب أن تكون «وأين ربيع العين من ربيع الروح» على أن السجع يقع خفيفاً جداً في خطبة ذلك الرجل، فقد كان يتكلم بطريقة خالية من التكلُّف ومن اللَّبس، وكان له في تصوير الظروف التي اقتضت الهجرة ذوق جميل.

وبعد انتهاء الخطبة نزل الإمام فصلى بنا صلاة خفيفة جدا، رجونا أن يكون في بساطتها ما يؤكد لها القبول، فإن الرياء والتصنع لا يغنيان فتيلا عند علّام الغيوب. ثم قرأ المصلون جميعا دعاء شائقاً لاحظت أنهم كلهم يحفظونه ولا أحفظ منه حرفا واحداً، وإن كنت هينمت منه بضع كلمات لأستر جهلي بفقراته

الحسان، وأنا والله معذور فإني لم أسمع مثله حين كنت أواظب على الصلاة قبل أن أعرف (بونجور مدموازيل) و (بونسوار مدام)!

فلما انتهى المصلون من قراءة ذلك الدعاء مشيت إلى ذلك الخطيب الفصيح فسلمت عليه تسليم المعجب بإخلاص.

- أحب أن أتشرف بمعرفة اسمكم الكريم.

- أنا الفقير إلى الله زكي مبارك.

- أهلاً وسهلاً! يا سيد قدُّور، تعال سلم على السيد مبارك.

فالتفتُّ فإذا السيد قدور بن غبريط يصافحني، فتأملت في وجهه طويلاً، وكنت سمعت أنه سعى في إنشاء هذا المسجد ليخدم فرنسا! ولكني تيقنت الآن أنه خدم دينه وبلاده حين استطاع أن يبني مكانا للصلاة في باريس وفي جوار حديقة النباتات، وصدق الإمام الغزالي حين قال:

«طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله»(*)

باريس ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٩

❊ ❊ ❊

(*) من كتاب «ذكريات باريس».

الأدب شريعة ربانية

يُنَزِّه الدكتور زكي مبارك الأدب عن الصغائر فيقول على صفحات مجلة الرسالة في أول يونيه سنة ١٩٤٢ تحت عنوان:

بين الكفر والأيمان

«قِيل وقيل: إن الأدب سيجوز فيه ما يجوز في جميع الصناعات، فيحترفه من يشاء حين يشاء، ولو كان صغير الرأس أو نحيل الوجدان.

وأقول: إن الأدب شريعة ربانية لا يصلُح لها غير المصطَفين من أرباب القلوب، فمن العسير أن يضاف إلى أهل الأدب من لا يخطُّ حرفاً إلا وهو مَسُوقٌ بإرادة خارجية، على نحو ما يصنع الفارس الذي رسمتْه يد البهلوان في أحد الأشرطة السينمائية.

الأدب إيمانٌ وثيق لا يعرف الأشخاص ولا الأزمان ولا الظروف، فليس بأديب من يفرح لأن صدراً يحتضنه بلؤم أو بشوق، ليجعل من أنامله أداة يلتقط بها الأشواك، وليس بأديب من تخدعه الخوادع الوقتية، فيتوهم أن الخلود نعمةٌ يجود بها أهل الفناء.

الأدب فوق ما يتوهم الأصاغر من طلاّب المِنح الذواهب، الأدب قوةٌ ذاتية يتوحّد بها صاحبها توحد الليث، فليس منا من يرى الحياة أو الجاه في التشرف بخدمة هذا المخلوق أو ذاك، وليس منا من يعقّ إخوانه ليظفر بالزاد المأدوم بالزور والبهتان... الأدب الحق منحة ربانية يجود بها الله على أرباب القلوب».

ويدافع عن اللغة العربية لأنها لغة القرآن.

سئل مرة: ما هو قولك يوم الحساب؟

فأجاب على صفحات جريدة البلاغ في الثالث عشر من نياير سنة ١٩٥٠ «سأقدم إلى الله مقالاتي وبها خدمت لغة القرآن».

* * *

عيد اللغة العربية(*)

اخترت هذا الموضوع لأنبه على حقائق أدبية ولغوية واجتماعية أرى في التنبيه عليها فائدة تنفع الأمة العربية أجزل النَّفع، لأنها تزيد في ثقتها بوجودها الأدبي، ولأنها تنير الطريق أمام المهتمين بالوحدة العربية، وهي فكرة يمكن تحقيقها بسهولة، إن تعاونا على رفع ما يعترضها من العقبات والأشواك.

ولأجل أن يتضح موضوع هذا الحديث أرجو أن تتذكروا ما كنا عليه قبل أعوام قصار لا طوال، فقد كان في كل قطر عربي جماعة يدعون إلى إيثار اللهجة العامية المحلية في الخطابة والكتابة والتأليف، ومع أن هذه الدعوة واهية الأساس فقد كانت تجد سبلاً إلى بعض الأسماع والأذهان، وكان العقلاء يخشون أن تنخدع بها الجماهير هنا وهناك.

والدعوة إلى اللهجة المحلية دعوة سهلة القبول، لأنها تبشر سامعيها بالإعفاء من تكاليف الفصاحة العربية، وهي تكاليف لا يقوى على حملها غير الأقوياء من أهل البيان.

كانت هذه الدعوة تجد من يسمع وتجد من يجيب، ثم خفت صوتها بعد أن جلجل وصلصل عدداً من السنين، فما الذي أسكت ذلك الصوت؟

يرجع السبب إلى النهضة الأدبية الحديثة التي ظهرت طلائعها في الديار المصرية والسورية واللبنانية والعراقية، ولم يكن لهذه النهضة غنى عن لغة قوية تستطيع التعبير عن الدقائق والجلائل من المعاني والأغراض.

عند ذلك انهزمت اللغة العامية، لأنها لغة العوام، والعوام لا يحتاجون إلى لغة غنية، لأن مطالبهم في التعبير لا تزيد عما تحتاج إليه الحياة اليومية في المنازل والأسواق.

(*) مجلة الرسالة بتاريخ ٢٠/ ١٢/ ٤٣ العدد ٥٤٦.

ومما يثير الضحك أن الذين دعوا إلى اللغة العامية لم يشرحوا قضيتهم إلا باللغة الفصيحة، وهذا شاهد ناطق بأن العامية أضيق وأعجز وأفقر من أن تعين أنصارها على التعبير عن أغراضهم بإسهاب وإطناب.

اقترحت مرة أن يصدر قرار وزاري يجعل اللغة العامية لغة المصريين، لنرجع جميعاً إلى اللغة الفصيحة بعد أسبوع أو أسابيع ولكن كيف؟

كنْت أنتظر أن يفكر كل كاتب وكل شاعر وكل خطيب في تجميل لغته العامية، ليتفوق على النظراء، وليمتاز بالأناقة في البيان، ولا يتم له ذلك إلا إذا استعان بذخائر اللغة الفصيحة، وقد تحمله الرغبة في التفوق على أن يعود طائعاً مختاراً إلى اللغة التي مجدتها الشعوب العربية في عشرات الأجيال، بذلك ينهزم دعاة العامية إلى آخر الزمان.

وما الذي منع دعاة العامية من أن يجعلوها لغتهم في الشعر والكتابة والخطابة والتأليف؟

هل صدر قرار يحرم عليهم أن يكونوا عاميين؟

هل حاربتهم الحكومة؟ هل حاربتهم الأمة؟

لا هذا ولا ذاك، وإنما أوحت إليهم عقولهم وأذواقهم أن يسموا بأنفسهم عن الابتذال، واللغة العامية كالثوب الذي نلبسه في البيت، ونحن نعرف أننا لا نتأنق في الملبس بين جدران البيوت.

إن اللغة سلاح من الأسلحة، وهي في يد الخطيب كالسيف في يد المحارب. ولا حجة للعاقل أن يدخل الميدان وفي يده سيف مفلول.

نحن لم نهزم دعاة اللغة العامية بالقوة، وإنما انهزموا بأنفسهم لأنهم خاضوا غمار المعركة بغير قلب، ولا عزم لمحارب لا يؤازره القلب.

وهل انهزم دعاة اللغة العامية حين حرصوا على التسلح باللغة الفصيحة؟

إن مكرهم أغرب من مكر الشياطين، فقد رأوا أن يسابقوا الإفصاح، وأن يحاولوا نزع راية الفصاحة من أيدينا ليتفردوا بغنيمة المجد الأدبي، فلنكن أول جيش يسلم وهو فرح جذلان.

لقد أراد خصومنا أن يرفعوا أنفسهم فيكونوا خلفاء لأكابر المفصحين، لا خلفاء لعوام المتحدثين في الشوارع والقهوات والبيوت.

أقول هذا وأنا أعترف بلغة الشارع والقهوة والبيت، لأنها أماكن يجوز فيها التحلل من التأنق، والتأنق حلية بيانية لا نفكر فيها إلا حين تقف موقف المحاربين بلسان البيان.

اللغة العامية هي ثوب البيت عند رفع التكليف، ومن هنا جاز أن تكون لكل أمة لغتان: لغة عامية ولغة فصيحة، وهذه قضية لا تحتاج إلى براهين ولا محامين.

وأين خصومنا في هذه القضية؟ أين؟ أين؟

للنوابغ منهم قوانين أدبية واجتماعية، فهم يحاولون أن يصلوا إلى أسماع العرب في المشرق والمغرب، وهذا لا يتيسر بغير الأسلوب الفصيح، لأن الأسلوب العامي بعجز عن تخطي الحدود.

لم يبق إلا الجهلة من دعاة اللغة العامية، وهم أطفال يهمهم أن يتحذلقوا بمضغ الحديث عن فكرة نبتت على شواطىء الجهل، كما تنبت البقلة الحمقاء على مدارج الغدران.

نحن في هذه القضية بين صورتين اثنتين: صورة العواطف وصورة المنافع، فما موقف خصومنا من هاتين الصورتين؟

إن فرضنا أنهم لا يبالون ما صنع آباؤهم وأجدادهم في إعزاز اللغة الفصيحة إعزازاً حماها من الانحدار في عصور كانت كلها ظلمات في ظلمات، فكيف نفرض أنهم لا يبالون منافعهم وهي من الصميم في وجودهم الحيوي؟

أيستطيعون الاستغناء عن الشرق؟

هذا ممكن، إن أرادوا العيش في ظل الخمول، ولكنه مستحيل إن أرادوا الاتصال بالشرق، في الحدود التي توجبها أواصر الأدب ومنافع الاقتصاد.

لو انتصرت دعوة خصومنا - ولن تنتصر - لكان من الحتم أن يحتاج المصري إلى مترجم حين يزور فلسطين أو الشام أو لبنان، وقد يحتاج إلى مترجمين حين يزور العراق، وإن الدعوة إلى العامية قد تحيي في العراق عدداً من اللغات.

وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقرر أن العصبية المحلية قد تحرج القاهريين إلى مترجمين حين يزورون بلاد الصعيد، بغض النظر عن بلاد النوبة والسودان ودارفور وكردفان!

يجب حتماً أن نترك هذا السخف الممقوت، سخف الدعوة إلى اللغة العامية، لأنه من شواهد الانحطاط، ونحن في طريق الاستعلاء.

ويجب أيضاً أن نقتدي بما تصنع الأمم القوية، وهي تفكر في توحيد اللغة قبل أن تفكر في توحيد الأقاليم، لأن وحدة اللغة هي حجر الأساس في بناء القومية.

يجب أن تكون للعرب والمسلمين لغة واحدة في المشارق والمغارب، لغة يتلاقون عندها كما يتلاقون في جبل عرفات، وكما يتلاقون في توحيد الله عند الصلوات.

فإن لم يفعلوا -وسيفعلون- فستضيع جهودهم في الدعوة إلى الوحدة العربية والوحدة الإسلامية، ولن يضيعوا أبداً، لأنهم أعقل من أن يتعرضوا إلى مخاطر الضياع.

* * *

لقد استقر الرأي في البيئات الفنية المصرية على أن من حق لغة المسرح والسينما أن تتحرر من القيود التي تثقل اللغة الفصيحة ما دام موضوع القصة المسرحية أو السينمائية موضوعاً خاصاً بالمجتمع المصري الحديث، وتلطف الفنانون المصريون مع اللغة الفصيحة فجعلوها لغة الروايات المنتزعة من حوادث التاريخ.

فما الذي وقع بعد ذلك؟

رأينا أولئك الفنانين يقبلون على اللغة الفصيحة في المواقف التي تحتاج إلى روعة البيان، وهذا ما يصنع الفنان يوسف وهبي وما يصنع زملاؤه من المؤلفين المسرحيين والسينمائيين.

وأنتم في غنى عمن يدلكم على تلك المواقف، فما خلت رواية مسرحية أو

وأنتم في غنى عمن يدلكم على تلك المواقف، فما خلت رواية مسرحية أو سينمائية من مشاهد لا يستطيع الممثل أن يؤدي فيها واجبه الفنّي بغير الأسلوب الفصيح.

كانت (الفرقة المصرية) تلتزم اللغة الفصيحة، وقد نجحت كل النجاح، ولكن ناساً قالوا: إنها عجزت عن غزو الأوساط الشعبية، واقترحوا أن تتحرّر من قيود الإفصاح.

وقد غير نظام تلك الفرقة إجابة لصراخ الصارخين من عوام الناس، وألقى الأستاذ محمد «بك» صلاح الدين خطبة قرر فيها أن المسرح ليس مدرسة لتعليم اللغة الفصيحة، وأنه لابأس من أن يجري الحوار باللغة التي يتكلم بها الناس فيما يتصل بموضوع المسرحية.

ولكن الأقدار قضت بغير ما قضى به هذا الرجل الأريب، فقد بدأت الفر قة موسمها في هذه السنة بمسرحية شعرية، هي قصة قيس ولبنى، وأقبلت الجماهير على شهود هذه القصة أكثر من عشرين ليلة، مع أن المفهوم أن الشعر الفصيح أصعب من النثر الفصيح.

فما تفسير هذه الظاهرة الأدبية؟

تفسيرها سهل، فالجمهور المصري يؤمن بأن اللغة الفصيحة هي لغته الأصيلة في المواقف الجدية، بدليل أنه لا يتصور صحة صلاة الجمعة إذا ألقى الخطيب خطبة الجمعة باللغة العامية.

ومن أغرب ما يقع في هذا العصر أن يجهل بعض رجال الآداب والفنون روح الشعب المصري، فهم يتوهمون أنه شعب يستريح إلى المطالب الهينة، ويثقل عليه الجد الصريح.

وبسبب هذا الفهم المنحرف ضاعت جهود ذلك من الأدباء والفنانين.

أتحدّاكم أن تقيموا مباراة (في حديقة الأزبكية) بين شخصين أحدهما خطيب فصيح، وثانيهما مهرج ظريف.

إن أجبتم دعوتي فسترون أن الجمهور يقبل على الفصاحة وينصرف عن التهريج.

كان في عصر شوقي وحافظ ألف زجّال وزجّال، فإلى من استمع الشعب المصري؟ استمع إلى الزجالين وتصام عن شوقي وحافظ!

اتقوا الله في وطنكم يا دعاة العامية بهذه البلاد، فإن لم تتقوا الله في وطنكم فاتقوه في أنفسكم، قبل أن تحل عليكم عواقب الإهمال.

وما آقوله عن المصريين أقوله عن إخوانهم في سائر الأقطار العربية، وهي أقطار تنتظر من يسمو بها إلى أرفع منازل البيان.

لقد جدَّت بنا الأيام، والأيام لا تعرف الهزل، فلينصرف الهازلون عن إفكهم المرذول، إن كانوا يعقلون.

اللغة الفصيحة هي لغة العرب في هذا العهد وفيما يليه من العهود فليعرف من لم يكن يعرف أن اللغة العامية لغة العوام لا لغة الخواص، وأن العرب قد برئت عيونهم من غشاوة الإسفاف والابتذال.

* * *

أنا أدعوكم إلى الاحتفال بعيد اللغة العربية، فقد انتصرتْ على أبنائها، لا على أعدائها؟ فما كان للغة العربية أعداء غير أولئك الأبناء.

في إنجلترة وألمانيا وفرنسا وإيطاليا إذاعاتٌ عربية لا تعرف غير اللغة الفصيحة، لأنها تريد أن تخاطب العرب بلغتهم الدولية لا المحلية، واللغة الفصيحة هي لغة العرب الدولية، كما يفهم الأوربيون والأمريكيون، وهم أهل الخبرة بطبائع النفوس في هذا الجيل.

اسمعوا صوت الزمن، إن لم تسمعوا صوت الحق، واحتفلوا معي بعيد اللغة العربية في عيد القمر، وهو عيد التضحية، وعيد الوفاء

* * *

في كلية الآداب

كتب إليّ طالبٌ لا أسميه «إشفاقاً عليه من بعض المصاعب» كلمةً يقول فيها:
إن المحصول الأدبي في مجلة الرسالة قد استهواه فنقله من قسم اللغة الإنجليزية إلى قسم اللغة العربية، فماذا أقول في توجيه ذلك الطالب الأديب؟

أقول: إن قسم اللغة الإنجليزية مَطالبُه أسهل من مَطالب قسم اللغة العربية، وإليه البيان:

المتخرجون في قسم اللغة الإنجليزية لا يطالَبون بالتفوق الذي يسمح بأن يكونوا من شُرّاح الأدب الإنجليزي في مناحيه العقلية والاجتماعية، ولا يراد منهم إلا أن يكونوا أساتذة صالحين لتدريس اللغة الإنجليزية في المدارس الابتدائية والثانوية.

أما المتخرجون في قسم اللغة العربية فهم مطالبون بالتفوق المطلق، التفوق الذي يسمح بأن يكونوا من أئمة الأدب العربي في هذا الجيل.

يضاف إلى ذلك أن كلية الآداب شحيحة بالرجال، فمنذ إنشائها في سنة ١٩٠٨ إلى اليوم لم يبرز من أبنائها غير آحاد، لأن المثل الأعلى في تصور كلية الآداب لا يسمح بنبوغ العشرات والمئات. ومن حسن الحظ أنها كانت كذلك، ليظل النبوغ الأدبي بعيداً من أوضار النسبة العددية، ولتظل كلية الآداب كلية آداب.

والحياة الجامعية في مصر تؤرخ بنشأة هذه الكلية فهي النواة الصحيحة للجامعة المصرية وهي الفيصل بين عهدين:

عهد المحاكاة وعهد الإبداع.

وكان قسم اللغة العربية أساس كلية الآداب، كما كانت كلية الآداب أساس الجامعة المصرية وهي عصارة الأماني الوطنية فقد أنشئت لأسباب ما أظنها تخفى عليك إلا أن يجب العلم بالتاريخ القديم مع جواز الجهل بالتاريخ الحديث.

وكليتنا الغالية موسومة بقوة الروح فما ذكرت الحياة الجامعية إلا كانت أول ما يخطر في البال، ولا جاز الاضطهاد إلا على أبنائها الأوفياء، لأنهم سبقوا زمنهم بأزمان.

فإن وجدت من قوة العزيمة ما يساعد على أن تكون من أساطين قسم اللغة العربية فأقبل غير هياب، حرسك الله ورعاك.

*** مجلة الرسالة ١٤ سبتمبر ١٩٤٢**

* * *

شبهة لغوية(*)

هي شبهة من يتوهمون أن اللفظة الفصيحة هي اللفظة المخدَّرة، ويريدون بها اللفظة التي لا يعرفها سواد الناس، فالكاتب العظيم في نظر هؤلاء هو الكاتب الذي يتحامى المأنوس من الألفاظ، ويؤثر الألفاظ التي عاشت في المعاجم بقوة التحنيط وإن حُرمت الحياة منذ أزمان.

وأنا لا أقيم وزناً لهذا الرأي، وأضيف أصحابه إلى الجهلاء، ولا يؤذيني أن يتهموني بالتسامح في اللغة، كما طاب لأحدهم أن يقول ذلك في إحدى المجلات.

الألفاظ تتقاتل في سبيل العيش كما يتقاتل الناس، فينتصر فريق وينهزم فريق، ثم يجيء الكاتب الحصيف فيعانق اللفظ المنتصر، ويتقدم الكاتب المخذول فيعانق اللفظ المخذول.

كان أحد أعضاء المجمع اللغوي - وهو السيد حسن القاياتي - أنكر عليّ في مقال نشره في جريدة البلاغ منذ سنين أن أستعمل لفظة «يستأهل» بمعنى «يستحق» فكتبت في الرد عليه مقالاً بعنوان: «والله تستأهل ياقلبي».

واستعملت مرة كلمة «شافَ» بمعنى «رأى» فثار خلْقٌ من خلق الله وعدُّوني من المتسامحين في اللغة، فسألتهم عن «تشوَّف» وهي كلمة كثيرة الورود في قصائد التشبيب، ثم أكدت لهم أن العرب في جميع الأقطار يقولون: «شافه» بمعنى «رآه» وقد «شفتهم» بعيني!.

أتريدون الحق؟

الحق أن النقد اللغوي غلبت عليه الصبغة الببغاوية، وإليكم هذا المثال:

---

* الرسالة العدد ٥٢ بتاريخ ٢١/ ٦/ ١٩٤٣.

قضى علماء البلاغة نحو عشرة قرون وهم يقولون في مؤلفاتهم وفي دروسهم بأن المتنبي أخطأ في جمع بوق على بوقات حين قال :

فإن يكُ بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ

ففي الناس بوقـــاتٌ لها وطبول

وكان العجب كل العجب أن يتحامل علماء البلاغة على المتنبي نحو عشرة قرون، ولا يجدون من يهديهم إلى الصواب .

وأثني على نفسي «للمرة الأولى بعد الديشيليون» فأقرر أني تَفَرَّدت برفع الظلم الذي عاناه المتنبي في تلك القرون، ولكن كيف؟

ليست البوقات جمع بوق، كما توهموا، وإنما هي جمع بوقة، والبوقة هي اللفظة الاصطلاحية في موسيقا الجيش العربي، كما تشهد نصوص رأيتها في بعض كتب التاريخ .

وهنا أسوق فائدة لا أذكر أني رأيت من نبه عليها في كتب الصرف، وهي جعل التأنيث من صور التصغير، فالبوقة أصغر من البوق، والطبلة أصغر من الطبل، والبحرة أصغر من البحر، وقد بولغ في تصغيرها فصارت بحيرة .

و«طُونس» الساقية في عُرف أهل الريف له وصلة يسمونها «الفرخ» إن كانت طويلة، ويسمونها «الفرخة» إن كانت قصيرة وفي شوارع القاهرة نجد بائعاً يتغنَّى :

«حَبِّ العزيز الرُّبعة بقرش»

فما الرُّبعة؟ هي مصغَّر الرُّبع، بلا جدال .

إن الصفة الببغاوية في النقد اللغوي أضرت باللغة وآذتها أعنف الإيذاء، فقد كتب كاتب في الرسالة ينقد استعمال كلمة «مَرِير» بمعنى مُر، وحجته أن المرير هو الحبل المحكم الفتل، ثم اتفق أن رأيت الشريف الرضي يستعمل كلمة «المرير» ويريد بها المر، فنظرت في أساس البلاغة فوجدت الزمخشري نص عليها بوضوح لا يحتمل الخلاف .

وأنكر قومٌ جمع «صناعة» على صنائع، وألحوا إلى أن حملوا وزارة المعارف على تغيير اسم مدرسة الصنائع، مع أن لهذا الجمع شواهد تفوق العدَّ، وعلى أقلام كبار البلغاء.

وأنكروا أن تنسب إلى «الطبيعة» فتقول: طبيعي، مع أن العرب لم يقولوا طَبَعِيّ، ومع أن «فَعَلِيّ» في «فَعِيلة» هو في ذاته شذوذ.

والجرائد تقول: «القتيل» وهي تريد القتيلة، لأن قائلاً قال بأن «فعيل» يستوي فيه التذكير والتأنيث، وهذا خطأ، إذا كان فعيل بمعنى مفعول، وهل أخطأ صاحب لسان العرب حين قال: رجل دفين وامرأة دفينة؟

ولم يفهم النحويون علة التذكير في آية: «إن رحمة الله قريب من المحسنين» فعدوه تذكيراً أوجبته المجاورة ونسوا أن «قريب» في معنى الفاعل لا معنى المفعول.

والمراد من الصفة الببغاوية في النقد اللغوي هو أن يحكي بعض الناس ما يقرؤون حكاية الببغاوات. فأكثر ما نرى من اعتراض هو ألفاظ منقولة عن ناس تعرضوا للنقد اللغوي بلا بصيرة ولا يقين.

لغة العرب لغة آبائنا وأجدادنا، فليعرف من لم يكن يعرف أن خطأنا فيها أفصح من الصواب، وإننا لن نسمح لأي اعتراض بعد أن ركزنا الراية فوق ناصية الخلود.

* * *

من وحي الطبع

ومن مجلة الرسالة وفي أول يونيه سنة ١٩٤٢ يرى زكي مبارك أن القليل من وحي الطبع أنفع من الكثير المصنوع فيقول تحت عنوان:

نهاية فلان

هو كاتبٌ فصيح يعرفه قراء اللغة العربية من أعوام طوال، ثم تحوّل فجأةً إلى كاتبٍ عاميّ اللغة والمذهب، فما سببُ هذا التحول المزعج؟

كان في بداية حياته الأدبية يرتاب في قدرته على الإنشاء الفصيح، فكان يبحث عمن يقوّمون عباراته، ويرفعون عنها آصار العُجمة والتهافت، وبهذه الخطة كانت ثقته بنفسه تضعُف من يوم إلى يوم، ثم رأى أن يتحرر من سيطرة المراجعين والمصححين فأعلن أن اللغة العامية أحسن اللغات وأنه سيجعلها لغته المختارة إلى أن يقضي الله في أمره ما هو قاض.

كان فلان ولن يزال من أهل الرأي وأصحاب الخيال، وكذّب من ادّعوا أنهم قوّلوه ما لم يقُل وأنهم مصدر الوحي لأدبه الجميل.

فهل نرجو أن ينظر فلان في هذه الكلمة الخالصة لوجه الأدب والحق، فيكتب اللغة الفصيحة على سجيته وفي حدود ما يطيق ليصبح بعد قليل وهو من أساطين البيان؟

فلان شخصية كريمة الجوهر، وضياعُها على الأدب الفصيح ضربٌ من الخُسران، فهل يرفق بنفسه فيروّضها رياضةً جديدة على أساليب الفصحاء بلا تكلف ولا افتعال؟

القليل من وحي الطبع أجدى وأنفع من الكثير المصنوع، فارجع إلى طبعك يا فلان، وانتفع بما فيه من ثروة أصيلة، قبل أن يصعُب انتشالك من هُوّة مذهبك الجديد، صانك الله وحَماك!

* * *

من أقوال زكي مبارك
في هذا الصدد

يرى زكي مبارك أن النهضة الأدبية الحديثة في حاجة إلى لغة قوية تستطيع التعبير عن الدقائق والجلائل من الأماني والأغراض، ولهذا يجب على من يكتبون باللغة العربية الحفاظ على اللغة العربية الفصحى؛ فاللغة سلاح من الأسلحة وهي في يد الخطيب كالسيف في يد المحارب، ولا يجوز للعاقل أن يدخل الميدان وفي يده سلاح مفلول. ويقول: «في إنجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا إذاعات عربية لا تعرف غير اللغة الفصحى، لأنها ترى أن تخاطب العرب بلغتهم الدولية لا المحلية، واللغة العربية هي لغة العرب الدولية كما يفهم الأوربيون والأمريكيون وهم أهل خبرة بطبائع النفوس في هذا الجيل»[١].

ومما كتبه عن أهمية اللغة العربية والحرص عليها رده على الكاتب سلامة موسى على صفحات جريدة البلاغ في الرابع من يناير سنة ١٩٣٥ حيث كتب يقول تحت عنوان: «**اقرؤوا ثم احكموا بيني وبين الأستاذ سلامة موسى**»:

«اسمع يا أستاذ سلامة! ما رأيك فيمن ينقض مقالك ويأتي عليه من الأساس، ولنبدأ بالعنوان وهو (**اللغة لخدمتنا ولسنا نحن لخدمتها**) عنوان جميل حقا، ويرجع جماله إلى أنه يذكرني بصديق عزيز كانت لي معه نوادر وأحاديث.

كان ذلك الصديق يسير في الطريق يستطلع أحوال الناس، فاتفق له مرة أن رأى رجلاً مشغولاً بترميم بيته، فصاح في وجهه: أيها الرجل إن البيت خلق لخدمتك ولم تخلق لخدمته.

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٦٤.

وحدث مرة أخرى أن رأى شابا مشغولاً برفو ثوبه، فالتفت إليه وقال: يا عبيط أنت لم تخلق لخدمة الثوب ولكن الثوب خلق لخدمتك.

كان ذلك الصديق يحسب أن الصناعات والفنون والآداب سخرت تسخيراً لخدمة الإنسان.

وكان يعتقد أن مَهَمَّةَ الإنسان أن يلهو ويتمتع، وكنت أظن أنه على حق، فلما قال الأستاذ سلامة موسى: «اللغة لخدمتنا ولسنا لخدمتها» عرفت أني كنت مخطئاً وأني لم أظفر من العلم إلا بالنزر القليل.

معنى كلام الأستاذ سلامة موسى أن اللغة دابة تمشي على أربع، وأنها تأكل وتشرب وتعقل، وأنها كالبقرة الحلوب تملأ الذهن.

لا يا سيدي، يفتح الله علينا وعليك... نحن صاغة اللغة، وهي تضعف وتقوى وفقا لما فينا من ضعف وقوة، فللأمم القوية لغات قوية، وللأمم الضعيفة لغات ضعيفة، فالناس هم الذين يخلقون اللغات، وبمقدار حرصهم على تهذيبها وإصلاحها وإحيائها يكون نصيبهم من المدنية.

فإن رأيت إنساناً يعنى بلغته فلا تحسب أنه يلهو ويلعب، ولكن تذكر أنه يؤدي مهمَّةً عقلية لا يزهد فيها إلا من يجهلون قيمة اللغات من الدلالة على حضارة الشعوب، ولو كان رأيك صحيحاً لكانت إنجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا أمما متأخرة، لأنها تشغل نفسها بما لا يفيد حين تنشيء مختلف المعاهد للدراسات الأدبية واللغوية؟!!».

زكي مبارك يحرص إذن على اللغة الفصحى كما رأينا، وهو مع ذلك لا ينسى الفائدة من دراسة أخيلة العوام، فلقد كتب على صفحات جريدة البلاغ في الثالث عشر من مارس سنة ١٩٣٦ يقول:

«نحن نؤمن بأن كل شيء يصلح للبحث إذا تنبه إليه الفكر ونظر إليه الباحث نظرة علمية، فالأخيلة العلمية تستحق الدرس لأنها من الأدب الفطري الذي كان ولا يزال نواة للأدب الرفيع الذي يصدر عن كبار الرجال. وفي أدب العوام ألفاظ

وتعابير تنفع الباحثين من علماء النفس، ولا يعيبها أن تصدر عن العوام لأن هؤلاء يمثلون الفطرة التي لم يفسدها التكلف والافتعال.

والأدب بالرغم من ميله إلى الارستقراطية العقلية لا ينبغي له أن يتجاهل أخيلة العوام وأن يعدها كلها من سقط المتاع. فالعوامُّ هم ذخيرة الأمم في الحروب وهم عدتها في الصناعات، وإليهم المرجع في وزن حيوية الشعوب، ولا يمكن لفكرة دينية أو اجتماعية أن تنمو وتترعرع إلا إن اعتنقها العوام وبذلوا في سبيلها الأموال والأنفس.

فدراسة أدب العوام ليست من اللغو والفضول، وإنما هي مفتاح لمعرفة ما تنطوي عليه أفئدتهم من أصول «**المعاني والأغراض**».

ويرى أن الأدب العربي سيكون له الفضل في صلة الوصل بين الشرق والغرب، ويتساءل:

«هل كتب على لغتنا في العصر الحاضر ألا يكون فيها أدباء يقدرون على الاتصال بمصادر الثقافة في الشرق والغرب كما كان ذلك من حظها في الأعصر الماضية؟

إن الأديب هو أحوج الرجال إلى اعتلاج العواطف والأفكار والأحاسيس، ولا يتم له ذلك إلا إذا استطاع معاشرة الناس من جميع الأجناس.

إن المزية الصحيحة للأدباء الذين سبقونا بالتفوق هي اتصالهم بالآداب الأجنبية، وقدرتهم على التجول في أقطار المشرق والمغرب، وشبابنا الأغنياء سيؤدون هذا الواجب حين يصبحون من أدباء اللغة العربية».

* * *

الـفصل السادس
الأدب والشباب

الأدَبُ والشباب

يرى المفكر التربوي الدكتور زكي مبارك أن الأساس لبناء الجيل الجديد هو خلق الأيمان بالعدل في تقسيم الحظوظ، بحيث يكون من المفهوم عند الجميع أن في مقدور كل فرد أن يصل إلى أعظم المناصب إذا زود نفسه بالزاد الذي يؤهله لما يتسامى إليه، بلا احتياج إلى وسيط أو شفيع.

وفي البداية نقدم للقارىء حديثه إلى عالم الشباب من خلال رده على رسالة تلقاها من أحد الشبان وتعليقه عليها، حيث يرى أن اعتماد الشبان على الحكومة هو السبب في قتل عزائمهم.

عزيزي القارىء:

إذا كانت الرسالة هي رسالة لشابٍ مصري فإن ما يشكو منه صاحب الرسالة ينطبق تمام الانطباق على شباب العالم الثالث في كل مكان، ولذا وجب عرض الرسالة بنصها ليقرأها الشباب، وكل من يهمه أمر الشباب:

* * *

الشباب المصري
بين التردد والإقدام

كتب إلي موظف شاب لم يشأ ذكر اسمه رسالة جاءت فيها الكلمة الآتية:

«كتبت إليك رسالتي هذه راجيا منك أن تطرق موضوعاً ما أحوجنا نحن شبان مصر إليه، ألا وهو مرض التردد وخور العزيمة فكثيراً ما يحاول الإنسان تنفيذ خطة يرسمها، فإذا به بعد أن كان متحمساً نحو هذه الخطة وما يعود عليه من نتائجها خامل يؤثر الكسل والاسترسال في الأماني والأحلام، وأصارحك يا سيدي بأني من هؤلاء وأن مثلي كثيرون. فإني اقتطعت دراستي والتحقت بوظيفة وأصبحت أندب حظي لعدم استكمال تعليمي، وكل همي أن أواصل الاستذكار والتهام العلوم حتى أحصل على شهادة أقنع بها نفسي ولكني رغم هذه الرغبة أجد عزيمتي الخائرة تخونني في تنفيذ ذلك رغم محاولتي مقاومتها... وتنقضي الأيام والشهور بل والسنين فأراجع نفسي فأجد أني لم أتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، وهذا ما أفزعني من نفسي وجعلني أقصدك كي تعالج هذا المرض. وقد اخترتك من بين الأدباء والمصلحين لعلمي أنك الرجل العصامي الذي طلب العلم وما زال يطلبه دون أن يقف في وجهه ما يعوقه - وما أكثر تلك العوائق- فأرجو أن تقبل رجاء شاب كل ما في استطاعته أن يدعو لك الله من قلبه ليحفظك، والله ولي جزائكم بما تخدمون به الوطن والإنسانية».

ويستخلَص من هذه الرسالة ما يأتي:

أولا - عندنا شبان لا يرضون بالدون من حظوظ الحياة وتسمو بهم أنفسهم إلى احتلال الصفوف الأولى في ميادين العلوم والآداب.

ثانيا ـ يقاسي أولئك الشبان مرارة الخيبة والإخفاق أحياناً ويودون أن لا تقف بهم جهودهم عند الأماني والأحلام.

ثالثا – بين أولئك الشبان من يدرس نفسه ويحاسبها حساباً عسيراً يصل به إلى الخوف والفزع والإشفاق.

رابعاً – من أولئك الشبان من يطلب الغوث ويستعين من يرجو أن تكون لديهم كلمة طيبة تنتشلهم من وهاد التردد والخور والخمود.

أما أنا فلست أخشى خطراً على صاحب هذه الرسالة؛ فإنها تدل على أنه يستوحش من الكسل ويتطلع إلى حياة الجد والإقدام. والشعور بالنقص هو الخطوة الأولى نحو الكمال. وسأحتفظ برسالته ليظل اسمه عندي أعرفه به يوم يقدمه جدُّه وسعيه، وترفعه نفسه إلى بعض ما يريد، لأنه لا يصل إلى «كل» ما يريد إلا القانعون بالقليل، والإنسان أسمى من أن تقف نفسه عند مطمع مهما ابتسمت له الحظوظ. وقديماً حدثنا ابن المقفع أن الرجل الكامل المروءة لا يرى إلا في مكانين ولا يليق به غيرهما: إما مع الملوك مكرماً، أو مع النساك متبتلا، كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين: إما في البرية وحشياً، أو مركبا للملوك.

على أنه من الخير أن نبحث الأسباب التي تقتل رجولة الشباب في العصر الحاضر وتحبب إليهم الكسل والخمول، وأهم تلك الأسباب:

أولا – شعور جمهور الشباب بأن المناصب الرفيعة لا يصل إليها الرجل بالعلم الواسع والخلق المتين؛ وإنما يصل إليها عن طريق السفالة والنذالة والانحطاط. وبرهانهم على ذلك أن هناك ناساً ارتفعوا بلا مؤهلات، وأنهم يتطلعون فيرون المرونة والليونة والوصولية هي المؤهلات النافعة في هذا العصر، وأن الاستعداد لبيع الضمير والخلق كاف لأن يصل بالمرء إلى ما يريد من المنازل العالية، وأنهم يرون في المعاهد العلمية وفي الدواوين شواهد كثيرة لهذه الحال. فكم من رجل تبوأ منصباً وهو لا يدرك خطره ولا يعرف قيمته، وإنما وصل إليه عن طريق التزلف والتسفل والإسفاف، ومن البلية أن يكون فيمن يشغلون مناصب التعليم نفسه أشخاص لم يصلوا إلى مراكزهم إلا لأن رؤساءهم رأوا فيهم صلاحية للتجسس ونقل الأخبار، وهذه ظاهرة شنيعة ملموسة الأثر في كل مكان.

وتلك الفئات الوضيعة تنشر الشر ذات اليمين وذات الشمال، وأهون ما ترمي به الشبان من المآثم هو ما يقررونه في أذهان من يلاقون من زملائهم وأصدقائهم من أن الفضيلة خيال في خيال، وأن الحزم في اقتناص الفرص قبل أن تشرد، وأن الشخصية الكريمة وبال على صاحبها لأنها تحول بينه وبين طيبات الأرزاق.

ولعل الدنيا لم تفسد يوماً كما فسدت في هذه الأيام، فقد استطال الأوغاد، وأصبح الأحرار يعيشون في أوطانهم كأنهم غرباء. وكثيراً ما نجد الوصولي السافل يقول عن رفيق له نأت به كرامته عن مواطن الضيم والهوان:

«حضرته عامل راجل»!

والمسئول عن هذا التدهور هو الفريق الجبان من الرؤساء الذين لا يأنسون بغير الضعفاء؛ ولا يسلمون الأعمال إلا لكل شاب رخو لا ينتظر منه إلا كلمة «بيك أفندم» كما كان يقول الأتراك.

وأين أين الرئيس الذي يحب في مرءوسيه إباء النفس، وقوة الشكيمة، وصلابة العود؟

أين أين الرئيس الذي يعد مرءوسيه ليكونوا ذخر الوطن ورجاء البلاد؛ فيوصيهم بالترفع عن الصَّغار والذل، ويغريهم بحب البأس والاستطالة والكبرياء، لأنه لا يسقط المصري إلا حيث تخذله نفسه ولا يجد من مضاء العزيمة وعزة النفس ما يدفع به عادية الطامعين.

ونتيجة هذا أن أصبح الشبان يرون أن سلاح العلم والفضل والنبل والشهامة سلاح مفلول، وأن الزاد الأنفع هو التملق والمداهنة والرياء.

وقد أذكر أني لقيت مرة شابا أعرفه فسألته عن عمله وقد قضى عهد الدراسة العالية فأجاب:

«أتمرغ في تراب الميري».

فابتسمت وقلت: لابأس!

ثم علمت بعد حين أنه يتولى عملاً يلحقه بمن يتمرغون في وحل الميري لا في ترابه!

هذا مع أن الشبان أولى الناس بالكرامة وأجدرهم بالحرص عليها، لأن الشباب في ذاته قوة يجب أن تعصم صاحبها من التسفل وهو وحده حصن يجب أن يمنع صاحبه من الابتذال، والمرء إن لم يقف على قدميه في شبابه فمتى يرجى أن يستقيم له رأي، أو تصلح له حال! وإذا كان أصحاب السواعد الفتية لا يستطيعون النهوض بأنفسهم فكيف يلام الكهول على تخاذلهم وهم مهيضو الجناح. ورحم الله من قال:

إذا المرء أعيته المروءة يافعاً ... فمطلبها كهلاً عليه شديد

ثانيا - غفلة الشبان عن تقدير الحرية، فإن الزاهدين في الرقي ليسوا إلا قوماً ألفوا الاستعباد، ولو عشق الشبان الحرية وعرفوا فضلها لما سكتوا عن تكميل أنفسهم وتزويدها بالعلوم والآداب.

والفتيان الذين نراهم يدأبون على الدرس بعد التوظف ويطمعون في حال أحسن من حالهم يمثلون الرغبة في الحرية أشرف تمثيل، فأكثرهم يعز عليه أن يظل طول حياته تابعاً ذليلاً يُزْجَرُ فيزدجر ويؤمر فيطيع.

والعلم هو الذي يصيرنا سادة أنفسنا ويمكننا من نواصي المراتب الرفيعة. ولا يطمع في السيادة إلا من يعد نفسه لها إعداداً صحيحاً، أما الخامل الراضي عن حاله فلا حظّ له من الرفعة، ولا نصيب له من الاستقلال. وفي خلق الله ناس فطروا على العبودية وهؤلاء خلقوا لحكمة يعلمها الله، فليكن في ضمير الرجل الحر أنه خلق خلقاً آخر، وأن له أن يبحث عن مكانة عالية تليق بمن خلق ليسود.

ثالثا - اعتماد الشبان على الحكومة هو من أخطر الأسباب في قتل عزائمهم، فهم ينتظرون أن يكونوا دائماً «مسنودين» بقوة الدولة لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا في ظلال من يملكون الأمور. ولكل شاب عذر من حكومته: فهو يعلل تأخره بتأخر الحكم في زمانه، ويأسى على أن لم يولد في عهد من كانوا يمنحون الحظوظ بغير حساب! وقديماً قال المتنبي:

أتى الزمـانَ بنوه في شبيبته فسرَّهم وأتيناه عـلى الهرم

فتلك إذن علالة قديمة يستريح إلى ترديدها المتخلفون. ونحن لا نريد لشبابنا أن يعتمدوا على الدولة في إنهاضهم من كبواتهم فإنه لا خير فيمن يعتمد على سواه، إنما نريد لهم أن يكونوا أقوياء بأنفسهم، وأن يكون الفتى قوة كاملة هي في ذاتها دولة ذات حول وطول وسلطان.

٢١/ ١٠/ ١٩٣١

من على صفحات كتابه (البدائع)

الجزء الثاني، ص: ٩١.

* * *

أخلاق الناس(*)

قلّب ما شئت من مؤلفات القدماء فسترى أن المؤلفين كانوا يهتمون في أكثر الأحيان بمحاربة الرذائل الاجتماعية، لا سيما الغيبة والنميمة لأنهما من أخطر أسباب القطيعة بين الناس. أما المؤلفون في العصر الحاضر فيرون الغيبة والنميمة من الموضوعات البالية التي لا تصلح لأقلام المحدثّين، وإني لأكتب هذه الفقرات في هيبة وحذر خشية أن يقول قائل: ما هذه الرجعة إلى أوهام الأولين!

ويسألني من أرى من الأصدقاء: أين تسهر؟ وأين نراك؟ والسهرات عند هؤلاء هي جلسات سخيفة تؤكل فيها لحوم الناس ويجري فيها من السفه والبذاءة ما يندى له الجبين! ويا ويل من تكرم عليه نفسه فلا يشترك في لغو الحديث، فهو عندهم ثقيل الظل بارد الأنفاس!

والتظرف في عصرنا هو مضغ أخبار الأدباء والشعراء والمؤلفين. وفي شباب اليوم أفراد يعيشون من هذا الرزق الحرام، فهم زينة الأندية الرقيعة التي لا تجري فيها كلمة خير، ولا تعرف زواياها غير الإفك والبهتان من عبث القيل والقال. وفي كهول اليوم طوائف تتلمس هذه الأنواع البشرية التي تحسن تلفيق الأراجيف والأكاذيب، وإنك لتعجب كيف يتفق لمن يسمونهم أدباء الشباب وأدباء الكهول أن يجيدوا شيئا، وهم يقضون ثلاثة أرباع الوقت في تلك الأحاديث المجوجة التي تتنافر مع سماحة الطبع، وسلامة الذوق، ورجاحة العقل.

أين أسهر؟؟ أنا أسهر في بيتي حيث آنس بوحشة الليل، فقد ضجرت من إخوان الزمان، وعادت الوحدة أحب إلى نفسي من صحبة من يلبسون ثوبا للمحضر وثوبا للمغيب!!

(*) كلمة لزكي مبارك من على صفحات كتابه. البدائع الجزء الثاني، ص:١٨.

أين من يعـرف أدب النفس في هذه الأيام؟ وأين الرجل الذي تثق بكرمـه ومروءته، وتطمئن إلى أن أذنه لا تفتح لأهل اللغو والفضول ممن يبعثرون النمائم ذات اليمين وذات الشمال؟ وأين من يزن ما يقول، ويفكر في عواقب ما يقول؟ وأين من سلم أديمُه في هذا البلد فلم تمزقه الأقاويل والأراجيف؟ دلونا أيها الناس على رجل واحد سلم عرضه وشرفه، وحُفظ معروفة وجميله، واستطاع الفضل أن يحميه من لغو المرجفين، وكيد المفسدين.

لقد صحبت طوائف من المصريين وطوائف من الأجانب وانتهيت إلى النتيجة الآتية: الغيبة والنميمة من الرذائل الإنسانية يقع فيها المصريون وغير المصريين، ومع هذا لاحظت أن المثقفين من الأجانب قد يستبيحون الاغتياب، ولكنهم لا يستبيحون البهتان. فالرجل قد يغتابك ولكنه يتحرج من أن يصفك بما ليس فيك، وقد ينم ولكن نمائمه خالصة من المفتريات.

أما المثقفون منا - واأسفاه! - فيجمعون بين الرذيلتين: النميمة والافتراء.

ومعنى هذا أن من الأجانب من يعصمه الحياء من خلق الأكاذيب، وأن فينا من تنقصه فضيلة الحياء.

إننا نتحدث كثيراً عن الوطنية، والوطنية لا تقوم إلا على فكرة الوطن، والوطن لا يُحَبُّ إلا حين يكون لنا فيه أصدقاء وأخلاء، فإن المودات والعلاقات هي أساس التقديس للأفكار والأشخاص.

أيها المغتابون والنمامون! أنتم أعداء الصدق والكرامة والوطنية وأنتم أعداء أنفسكم لو تعلمون[1]!

* * *

---

(١) - ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣١.

جيل الشباب سيكون صلة الوصل
بين
الشرق والغرب

يهتمُّ المرحوم الدكتور زكي مبارك بمصير الأدب العربي، ويرى أن الشباب سيكون صلة الوصل بين الشرق والغرب، ففي كتابه «ليلى المريضة في العراق» وفي الطبعة الثالثة توزيع مكتبة مصر بالفجالة وعلى صفحة ٣٧٢ يقول:

«الذي يهمني هو مصير الأدب العربي، فأنا أعتقد أن تلاميذ المدارس الأجنبية بمصر هُمْ جيلٌ مُخَضرَمٌ سيكون صلة الوصل بين الشرق والغرب، وهؤلاء قد يمدّون الأدب العربي بمحصول نفيس إذا استطاعوا إجادة الإنشاء باللغة العربية.

وانضمام هذا الجيل المخضرَم إلى جيش الأدب العربي قد يعوِّض النقص الذي تتعرض له لغة العرب في هذه الأعوام، فالعرب في أعوامنا هذه يريدون أن يخلُوا إلى أنفسهم، وهم يصرّحون بانسلاخهم عن الأمم الإسلامية، وهذا المسلك قد يقوِّي الرابطة العربية لأنه يحصرها في حدود مأمونة الثغور، ولكنه يسوق الأدب العربي إلى هاوية الخمود.

فإذا استطعنا أن نضمن تفوُّق أبنائنا بالمدارس الأجنبية في اللغة العربية فقد نكوِّنُ منهم جبهة أدبية تُعيد للأدب العربي مجدَهُ يوم كان من الآداب العالمية، ويوم كان في لغتنا أدباء من الفرس والروم والهنود والأسبان.

وهناك جانبٌ لم يلتفت أحدٌ إليه، وهو الحالة الصحية لأبنائنا بتلك المدارس، فهم في الأغلب من أبناء المياسير، وعلى وجوههم نَضرةُ النعيم والعافية.

والأدب العربي سيقوَى ساعدهُ حين تَسنده سواعد أولئك الشبان الأصحاء.

وما رأيت أولئك الشبان إلا تذكرتُ الحديث الشريف «**لأن يَهدي الله بك**

رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم» فنقلُ شابٍّ واحد من أولئك الأصحاء إلى ميدان الأدب العربي قد يحوِّله إلى رياض وبساتين.

وأقول بصراحة: إن الأدب العربي قد شبع من أخيلة الضعفاء والمهازيل من الذين يأكلون الفول ويشربون الماء.

والأدب العربي ينتظر طلائع من أصحاب الأريستوقراطية الفكرية والمعانية.

الأدب العربي ينتظر كتّاباً وشعراء ومؤلفين ينهضون به نهضة الأمراء لا نهضة البؤساء.

ولستُ بذلك أتجنَّى على الفقراء من أصحاب المواهب، وإنما أقول: إن الأغنياء يعانون من المشكلات والمعضلات أضعاف ما يعاني الفقراء، وهم لذلك أقدر على تصوير المآسي الإنسانية. وابصرُ بتقلبات النوازع والأهواء والميول.

وقد عرفتُ حافظ إبراهيم وأحمد شوقي معرفة شخصية، وعرفتُ أسرارهما عدداً من السنين، وصَحَّ عندي بعد الدرس أن أحمد شوقي أقلُّ ذكاءً من حافظ إبراهيم، ولكن اصطدام شوقي بهموم السياسة وهموم المعاش حوَّله إلى عبقرية ترى بالوهم ما لاتراه العيون.

والأديب الفقير تُغْلَق أمامه أبواب كثيرة من فهم المجتمَع، لأنه لا يرى غير ألوان قاتمة من العيش، أما الأديب الغنيّ فيحسُّ فرح الحياة وحزن الحياة، ويصل إلى دقائق لا يصل إليها الأدباء الفقراء.

الشبان الأغنياء سيكون إليهم الأمر في الأيام المقبلات وإنْ كثر التهويل بسيطرة الديموقراطية. فليست الغنيمة في أن يكسب الأدب العربي شابًّا فقيراً ضعضعه الجوع، وإنما الغنيمة في أن يكسب الأدب العربي شاباً غنيا يدرك قيمة الأناقة في الفكر كما يدرك قيمة الأناقة في الثياب.

وأقول مرةً ثانية: إني لا أتجنَّى على الفقراء من أصحاب المواهب، فلله حكمةٌ في رفع الفقير الموهوب، وإنما أنتظر أن ينتصر الأدب بالأدباء الأغنياء، كما انتصر الإسلام بالمؤمنين الأغنياء.

وإنما أُلِحُّ في شرح هذا المعنى لأني أرى الأدب العربي يقصّر تقصيراً ظاهراً في وصف الحياة الاجتماعية، الحياة الشاملة التي تنتظم ألوان البؤس والنعيم من

جميع الصنوف، فما عندنا اليوم من رسائل وأشعار وأقاصيص يدور في الأغلب حول جانب واحد من جوانب المجتمع، وهو مجتمعٌ تعددتْ ألوانه وعُدِّدتْ واشتبكت، وهو ينتظر أدباءَ يتذوقون طُعومهُ المختلفات ليعرضوه للقارئين في تهاويلَ مختلفات.

وإن صحّ شيءٌ مما أرجوه فقد نبعث دولة الأدب من جديد، وهل يرتاب عاقلٌ في أن الأدب العربي لم يزدهر إلا حين قَدَرَ على تصوير ألوان الحضارة في العصر العباسي؟

إن المزية الصحيحة للأدباء الذين سبقونا بالتفوق هي اتصالُهم بالآداب الأجنبية، وقُدرتهم على التجول في أقطار المشرق والمغرب. وشباننا الأغنياء سيؤدُّون هذا الواجب حين يصبحون من أدباء اللغة العربية.

وهل كُتِب على لغتنا في العصر الحاضر ألاّ يكون فيها أدباء يقدرون على الاتصال بمصادر الثقافة في الشرق والغرب، كما كان ذلك من حظها في الأعصر الماضية؟

إن الأديب هو أحوج الرجال إلى اعتلاج العواطف والأفكار والأحاسيس، ولا يتمُّ له ذلك إلا إذا استطاع معاشرة الناس من جميع الأجناس.

وأنا أنتظر أن أجد هذا الجوهر النفيس بين أبنائنا بالمدارس الأجنبية، لأنهم أغنياء، ولأنهم يجمعون بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية.

فهل نصل في تثقيفهم إلى ما نريد؟

* * *

العائق الوحيد هو الطريق التي ندرِّس بها اللغة العربية.

وقد عرفت بالتجربة أن تلاميذ المدارس الأجنبية يرون أساتذتهم في اللغة العربية من الغرباء في بيداء الحياة، وكان الأمر كذلك، لأنهم يرون في الأساتذة الأجانب شمائل لا يرونها في الأساتذة الوطنيين، فالأستاذ الأجنبي رجل يتصل مباشرةً بالحياة الاجتماعية، وهو يحدِّث تلاميذه بما يفهمون، لأنه يعيش كما يعيشون، ولذلك شواهد فصَّلتُها في كتاب «ذكريات باريس» وكتاب «البدائع» فلا أعود إليها الآن.

واتصال الأساتذة الأجانب بالحياة الاجتماعية يعطيهم فرصة الابتكار في موضوعات الإنشاء، وفي المحادثات الشفوية، وجعل ظلّهم خفيفاً حين يحاورون التلاميذ.

والأستاذ الأجنبي يرى من حقه؛ بل من واجبه، أن يشارك التلاميذ في ميادين النشاط الاجتماعي، وتدفعه الحماسة إلى دعوتهم لمشاهدة ما في مصر من متاحف وحُصون.

أما الأستاذ المصري - ولا سيما أستاذ اللغة العربية- فهو شخصٌ «مَلّخُوم» يرى الحركة تنافي الوقار، ويرى الابتسام من أخلاق السفهاء!!

وقد رأيت منهم أستاذاً يفتخر بأنه لم يدخل دور السينما مرةً واحدة، فهو خليفة الشيخ خليل، وهو رجلٌ من أئمة المالكية كنتُ سمعت أنه افتخر في بعض كتبه بأنه لم ير النِّيل، وإنما قضى حياته كلها فوق حصير الأزهر الشريف!!

* * *

ماذا أصنع في توجيه هؤلاء المدرسين لأحولّهم إلى قلوب تفرح بالحياة لتغرس في نفوس التلاميذ حُبَّ الحياة؟

ماذا أصنع وأنا أول مفتش من الجامعة المصرية، وآرائي قد تجد من يسيء التأويل؟

رأيت أن أسأل التلاميذ من وقت إلى وقت عما يقرؤون من المؤلفات الجديدة وما يشاهدون من الأفلام، ورأيت أن أعرف الفروق بين صلاتهم بالحركة الفكرية في الغرب وصلاتهم بالحركة الفكرية في الشرق، فهالني أن أعرف أنهم يعرفون من الغرب كل شيء، ويجهلون من الشرق كل شيء.

هم يعرفون الغرب لأن أساتذتهم في اللغات الأجنبية أحياء، ويجهلون الشرق لأن أساتذتهم في اللغة العربية أموات!

وكيف لا يموت من يبخل على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش؟!

لقد حدّثت تلاميذ بعض المدارس بأني سآخذ عناوينهم من إدارة المدرسة لأزورهم في بيوتهم على حين غفلة، عساني أعرف كيف يكوّنون مكتباتهم الخصوصية.

مع أني واثق بأن أكثر أساتذة اللغة العربية ليس في بيوتهم مكتبات .
أليس منهم فلان الذي يعتقد أن كتاب «النثر الفني» من تأليف الجاحظ ؟
أليس منهم فلان الذي يظن أن «حديث عيسى بن هشام» من تأليف بديع الزمان؟
لم يبق بدٌّ من توجيه أساتذة اللغة العربية إلى فهم العصر الحديث ليستطيعوا الوقوف على أقدامهم بجانب الأساتذة الأوروبيين .
ولكن هناك ما هو أوجب من ذلك .
هناك تغيير الطريقة التي تُدرَّس بها اللغة العربية في المدارس الأجنبية .
ولكن كيف أغيِّر طريقة نزلتْ من قلوب الأساتذة منزلة التقديس؟
كيف أغير تلك الطريقة وحولي أرصادٌ وعيُون؟
إن كلمةً واحدةً من فلان وفلان قد تقصيني عن التفتيش بحجة أني أخاطب المدرسين بما لا يفهمون .
ولكن الله قدَّر ولطف :
فالرجل الذي أقدِّم إليه التقارير هو الأستاذ محمد رضا بك وهو رجلٌ مُشرِق العقل إلى أبعد الحدود .
وقد حدَّثته بما تساميتُ إليه في إصلاح الطرق القديمة لتدريس اللغة العربية .
وأنا أحدِّث هذا الرجل عن كل شيء ، وللتقارير التي أقدمها إليه صوانٌ خاص ، والمفهوم بيني وبينه أن مصر لها في أعناقنا ديون ، وأن الصدق في تأدية الواجب هو أشرف ما يتحلى به الرجال .
وقد دخلت عليه منذ يومين ، فدارتْ بيننا المحادثة الآتية ، وهي نموذج لما نفترع من فنون الأحاديث :
ابتدأ فسألني عن الليسيه الفرنسية المصرية بمصر الجديدة ، فقلت : إن مديرها هو المسيو دي كومنين ، أعظم أصدقائي في دنياي . فاستطرد وقال : وما رأيك في ذلك المعهد بعد أن زرته مرتين؟ فقلت : إن الغاية نبيلة ولكن تحقيقها صعب ، لأن هذا الرجل يريد أن يصل تلاميذه إلى البكالوريا المصرية والبكالوريا الفرنسية في وقت واحد ، وهذه الغاية مع صعوبتها ليست من المستحيلات .

ثم انتقلنا بسرعة إلى الأصول التي يجب أن يراعيها أساتذة اللغة العربية في المدارس الأجنبية، فقلت: إن الخطر كلَّ الخطر أن يفهم تلاميذ تلك المدارس أن عندنا لغتين: الفصيحة والعامية، فهذا الفهم الخاطيء يُشعر التلاميذ بأن اللغة الفصيحة لغةٌ ميتة، وأن مكانها يشبه مكان اللاتينية بالنسبة إلى الفرنسية والإيطالية.

وهنا يحسن أن نسجل ما اتفقنا عليه في ذلك الحوار الطريف:

اتفقنا على أن التلميذ إذا كتب «محطة باب الحديد» فليس من واجب المدرس أن يشطب كلمة «محطة» ويضع مكانها كلمة «مَحَطّ» بحجة أن هذا هو اللفظ المختار في كتب المطالعة المدرسية.

وإذا كتب التلميذ «بائع متجوِّل» فليس من حق المصحح أن يشطب كلمة «متجول» ويضع مكانها كلمة «جائل».

والتلاميذ جميعاً يقولون «قُط» بضم القاف كما يقع على ألسنة الناس في أكثر البلاد العربية، فليس من الحتم أن نصحِّحَ هذه الكلمة كل يوم وأن ننص على أنها بالكسر: لأن سَيْرورتها مضمومة تشهد بأن الضم لغة من اللغات، وإن لم تنص المعاجم على ذلك.

وإذا قال التلميذ: «فُرشة» فليس من الواجب أن نفرض عليه أن يقول: «فِرْجَون» لأن الفرشة ذاتها مخففة من الفرجون.

وإذا قال التلميذ: أجفف وجهي «بالفوطة» فلا نفرض عليه أن يقول: «القَطيلة» لأن الكلمة الأخيرة مهجورة ومنسية وثقيلة، ولا كذلك الكلمة الأولى فهي مأنوسة ومألوفة لجميع الناس.

وإذا قال التلميذ: جلست على «السُّفرة» فلا نحتم عليه أن يقول: «المائدة» لأن السفرة كلمة فصيحة وإن كان العرف نقلها من وضع إلى وضع.

وإذا قال التلميذ: «الليالي القمراء» فلا نلزمه بأن يقول: «الليالي القُمر» لأن الكتَّاب في العصر الحديث تسامحوا في هذه القضية، ولأن أسئلة الامتحان بوزارة المعارف جاء فيها مرةً كلمة «الليالي القمراء» ولأن للشيخ النجار كتاباً اسمه «الأيام الحمراء»، ولأننا نستثقل عبارة «الحدائق الغنّ» ونستخفّ عبارة «الحدائق الغنَّاء».

وإذا قال التلميذ: «خَطوة» بالفتح فلا نوجب عليه أن ينطقها بالضم، لأن الفتح لُغَيَّة، وهو اليوم أسهل وأفصح.

وإذا سكّن التلميذ بعض أواخر الكلمات فلا نفرض عليه أن يراعي التحريك في كل وقت، إلا إذا كان يهمك أن تختبره في الإعراب، لأن من المستبعد أن يكون العرب التزموا الإعراب في جميع المواطن، وهم قد نصُّوا على أنه يجوز نصب الفاعل ورفع المفعول عند أمن اللَّبس، ومعنى ذلك أن الإعراب لا يُطلب إلا لتحديد المعاني.

وأغلبُ الظن أن العرب لم يلتزموا الإعراب إلا في موضعين اثنين: الشعر والقرآن.

وإنما التزموا الإعراب في الشعر لمراعاة الوزن، والتزموه في القرآن لأن القرآن نُظِم نظماً غنائيًّا فهو في أغلب أحواله كلام موزون رُوعِيَ في وزنه أن يصلح للترنم والترتيل.

واتفقنا على أن اللغة العربية ليست بدعاً بين اللغات. فالتعبير بها يختلف باختلاف أقدار المخاطَبين؛ والمدرس الحق هو الذي يفرق بين ما يعبِّر به وهو يُلْقي درساً في مدرسة أولية، وما يعبر به وهو يلقي درساً في مدرسة ثانوية؛ والمدرس الغافل هو الذي يتكلم بطريقة واحدة في جميع الفصول.

واتفقنا على أن أساليب التعليم لا يجب أن تكون واحدة في جميع المدارس، وإنما يجب أن نراعي مقتضيات الأحوال فنسلك في المدارس الأجنبية غير ما نسلك في المدارس المصرية.

وأصول التربية نفسها توجب ذلك، إنها توجب أن نُخاطِبَ كل تلميذ بأسلوب خاص بعد أن ندرس نفسه حق الدرس، لأن الناس يختلفون في العقول كما يختلفون في الوجوه. وهذا لا يمنع من أن تكون هناك سياسة عامة يعامَل بها جميع التلاميذ.

واتفقنا على أن مدرس اللغة العربية يحق له أن يكون أقرب الأساتذة إلى قلوب الطلاب، لأن عنده فرصاً لا تتاح لسواه، إذ كان يقدر بلباقته أن يجد في دروس المطالعة والمحفوظات والأدب مجالاً لمحادثة الطلبة في معان كثيرة تتصل بالعقل والقلب والوجدان.

ومدرس اللغة العربية يستطيع إذا كان من أصحاب المواهب أن يضع في صدور تلاميذه بذور الشوق إلى المشاركة الجدية في الحياة الأدبية والفنية

والاجتماعية، وفي مقدوره إن أخلص لواجبه أن يدفع تلاميذه دفعاً إلى رحاب الواجب في خدمة الوطن الغالي. وهو يستطيع أن يخلق منه رجالاً يفرقون بين المعاني الوطنية والمعاني الإنسانية، بحيث يصبحون فيما بعدُ من دعائم الحياة القومية.

مدرّس اللغة العربية مسئول قبل سواه عن خلق الروح المعنوي في المدارس لأنه يملك التعبير الجميل، ولأنه ارتاض على سياسة القول، ولأن لديه فرصاً كثيرة يستطيع بها توجيه التلاميذ إلى شريف الأغراض وكريم المعاني.

***

ثم انتقلنا إلى موضوع شائك هو تحديد الفروق بين المدارس المصرية والمدارس الأجنبية.

والظاهر أني أحب المدارس الأجنبية حبًّا يجعل ذنوبها حسنات، وقد فصلت رأيي في حضرة رضا بك وارتضاه، فما هو ذلك الرأي؟

من بين أبنائي ثلاثة يتعلمون بمعهد الليسيه في مصر الجديدة. وهؤلاء الأبناء الثلاثة يختلفون عن أخيهم الأكبر الذي يتعلم في مدرسة مصرية: فأخوهم الأكبر يأخذ مصروفه على أسلوب رتِيب لا يتغير ولا يتبدل، أما أولئك الثلاثة فيزعجون المنزل بالمطالب المتنوعة في كل يوم، وقد قاست أمهم ما قاست حين كنت بالعراق، فلما اختبرتُ الأمر بنفسي ضِقْتُ به ذرعاً لأول وهلة، ثم تبينت أن تلك المطالب المتنوعة هي شواهد الحيوية في الحياة المدرسية، فالتلميذ لا يجد الفرصة ليهدأ ويسكن، وإنما يشعر بالمسؤولية تتجدد أمامه في كل لحظة: فهو اليوم في حاجة إلى كتاب، وكان بالأمس في حاجة إلى كراس، وهو غداً في حاجة إلى ثوب جديد للحفلات، وهو بعد شهر سيقدم إلى المدرسة ديناراً للاشتراك في رحلة مدرسية، إلى آخر ما لا آخر له من موجبات اليقظة في المدارس الأجنبية.

أقول: إن هذه المطالب راعتْني لأول وهلة، ثم رأيت أن هؤلاء الأبناء حالهم أحسن من حال أبيهم، الأب المسكين الذي يخترق شوارع القاهرة في كل يوم ولا يراها، لأنه لا يمتطي تراماً أو سيارة إلا وهو مشغولٌ بمطالعة الجرائد والمجلات أو مراجعة بعض الأوراق.

أترونني على حق في استحسان هذا المذهب في التثقيف؟

إن كنت مخطئاً فاعذروني، لأن اتصالي بالأجانب حبَّب إليَّ الحركة وزهدني في السكون!

هل تصدِّقون أنني لا أستريح إلى الدعوة التي تكررها الجرائد في الصبح والظهر والمساء، الدعوة إلى الوفاق والاتحاد والائتلاف؟

هل تصدِّقون أني أعتقد أننا نختلف أقلَّ مما يجب، وأنه ينبغي أن لا نعرف غير النضال والصيال؟

هل تصدقون أن التجارب علمتني أن الراحة نذير الموت؟

هل تصدقون أني نفرت من منزل جميل في باريس لأن أصحابه كتبوا على بابه عبارة تشير إلى أنه معروف بالهدوء؟

هل تصدقون أني لم أسترح في بغداد إلا حين اهتديت إلى منزل تحيط به الضوضاء؟

الحق أن مزاجي أفسدته المدنية الحديثة فساداً لا يُرجى له صلاح.

ولكن هذه هي المدنية، وهذا هو عقل العصر الحديث، وأنتم تطلبون أن نروضكم على التخلق بأخلاق العصر الحديث.

* * *

ثم ماذا؟ ثم ماذا؟

ثم انتقلنا إلى تعليم البنات، فعرفنا بعد الأخذ والردّ أن البنت في المدرسة المصرية تُقتَل قتلاً بالدروس، فلا تستطيع أن تكون بهجة البيت في المساء.

والواقع أننا كنا أخطأنا في تقدير مناهج التعليم بمدارس البنات: فقد كانت البكالوريا واحدة للبنات والبنين، مع أن المزاج يختلف بين النوعين أشد الاختلاف.

وقد لوحظ أن البنات في المدارس الأجنبية يعاملَن معاملةً تقوم على أساس العطف والرفق، والمفهوم عند الأجانب أن البنت إنما تتعلم لتصلُح تمام الصلاحية لتكون ربة بيت.

ولوحظ أيضاً أن مديرات المدارس الأجنبية يحاولن أن يعرفن كيف تعيش العائلات التي تجيء منها التلميذات، ليستطعن تلوين الحياة المدرسية بألوان مختلفات.

وهذا شيء قد لا تعرفه المدارس المصرية، لأن الصلات قد تكون مقطوعة بين المدرسة والبيت.

والظاهر أني لا أزال أستجيد الوصف الذي أطلقتُه على مدارسنا منذ أكثر من عشر سنين حين سميتها «مجازر بشرية»، فنظام هذه المدارس لا يتيح فرصة للتعمق، وإنما يُلهى الطلبة بالقشور لكثرة ما يعرض عليهم من العلوم والفنون.

وسيجيء يوم يعرف الناس فيه أن أسلافنا كانوا أبصر منا بالمذاهب التعليمية، لأنهم كانوا يعرضون على الطالب علوماً قليلة ثم يفرضون عليه أن يتعمق.

ولو شئت لقلت: إن المدارس الفرنسية تُريح التلاميذ من الدروس يومين كاملين، ومع ذلك لم يقل أحد بأن الفرنسيين تخلفوا في الميادين العلمية.

ولو شئت لقلت: إن الامتحانات عندنا لا تزال جائرة الميزان، فليس من المعقول أن يكون تلاميذنا من الضعف والجهل بالمنزلة التي توجب ألا ينجح من كل مئة غير عشرين أو ثلاثين.

وهناك مجموعة يعرفها جميع المعلمين، وهي مجموعة الأسئلة الخاصة بالامتحانات العمومية، ونظرة واحدة إلى تلك المجموعة تشعر المنصف بأن الممتحنين لا يرون التيسير من الأمور ذوات البال، والأساتذة أنفسهم يحتاجون إلى تأمل يسير حين ينظرون إلى الأسئلة المسطورة في تلك المجموعة، فكيف يصنع التلاميذ وبينهم وبين أساتذتهم من الفروق ما تعرفون؟

ولو شئت لقلت: إن أسئلة الامتحانات العمومية يضعها رجال مكدودون من بين المفتشين والمراقبين، والعقل يفرض أن يتفرغ لوضعها جماعة من الأساتذة ينقطعون إليها أسبوعاً أو أسبوعين حتى تسلم من العنت والإرهاق.

أحب أن يشعر التلميذ المتوسط بأن من حقه أن ينجح ، أحب أن يشعر التلميذ الضعيف بأنه قد ينجح إذا ضاعف من نشاطه وبذل ما يملك من العافية في الاستعداد للامتحان .

ولكن هذه آمال لا تتحقق إلا إذا غير المتَحنُون ما بأنفسهم فعرفوا أن الشهرةَ بالشدة والعنف مطلبٌ سخيف .

ثم ماذا؟

وتحدثنا عن الصلة بين المدرسة والبيت ، واتفقنا على أن الواقع أننا نتكلم ولا نفعل .

وأين المدرس الذي يجد من الوقت ما يزور فيه بيوت التلاميذ؟

وأين الناظر الذي يجد في جيبه ما يسعفه بأن يقيم للتلاميذ وآبائهم حفلة أو حفلتين؟

لقد حاولت ذلك بنفسي ثم عجزت ، لأني كنت أخرج من المدرسة مكدوداً لا أصلح لشيء .

ولو شئت لصرحت بأن المدرسين يعجزون عن متابعة النشاط المدرسي ، لأن المناهج لا تقيم له أيَّ ميزان ، وهو سُخْرة يقوم بها المدرسون بلا جزاء .

أما بعد : فهذه صورة لساعة لطيفة قضيتها مع الأستاذ رضا بك ، فإن أعجبته هذه الصورة فذلك ما أرجوه ، وإن رآني أذعت ما لا ينبغي أن يذاع فليعرف أن هذا مذهبي ، وعليه أن يعقل لسانه حين يراني .

يا مصر .

إنك تستعدِّين لأخطار عظيمة في بناء الجيل الجديد ، فاعرفي ما تأخذين وما تدعين ، واحذري أن يعتقد أبناؤك الأوفياء أنهم لا يَلْقَوْن منك حسن الجزاء .

وأنتم أيها المدرسون :

ثقوا بأن واجبكم الأول هو التغلب على المصاعب ، المصاعب التي تواجهكم في الحياة المعاشية والحياة المدرسية ، واعرفوا أن الاخلاص للواجب هو الكفيل بأن يرفع عن كواهلكم أثقال العيش وأعباء التعليم .

إن التدريس مهنة لا يعرف فيها الراحة إلا من يُتعب نفسه في تأدية الواجب، ولا يشقَى في هذه المهنة إلا من يؤديها بتهاونٍ واستخفاف.

إن العناية التي تبذلونها في إلقاء الدروس تُعدي تلاميذكم بالجد والنشاط، وتروضهم على النظام، وتغريهم بحب التفهم لما يسمعون وما يقرؤون.

وأنتم القدوة الصحيحة للتلاميذ، فاحذروا أن تُعدُوهم بالضجر واليأس، وتذكَّروا دائماً أن المدرس المنشرح الصدر، المبتهج النفس، هو وحده الذي يقدر على جعل المدرسة أحب إلى التلميذ من كل مكان.

إن في الدنيا متاعب كثيرة تنتظر رجال الغد من تلاميذكم، فأعطوهم من ذخائر الأمل والبهجة ما يدفعون به متاعب الحياة في الأيام المقبلات. والله بالتوفيق كفيل».

* * *

وعاود زكي مبارك الحديث مرة أخرى على صفحات كتاب «ليلى المريضة في العراق» صفحة ٤٢٠ عن التلميذ والمدرس فماذا قال؟

قال: «إن الغيرة على مصر تفرض عليه أن يسجل المشاهد الآتية:

لم أدخل مدرسة في القاهرة أو طنطا أو الإسكندرية أو أسيوط باسم التفتيش إلا حرصت على معرفة ما يقرأ التلاميذ في أوقات الفراغ.

وقد خُيِّل إليّ أن هذا أهم من ملاحظة الحضور والغياب.

فماذا رأيت؟

رأيت أن التلاميذ عندنا لا يقرأون المجلات الجدية، وإنما يكتفون بقراءة المجلات الفكاهية؛ وهذا يخالف تمام المخالفة ما شاهدته يوم كنت في العراق، فالتلاميذ العراقيون يقبلون على المجلات الجدية إقبالاً شديداً، على نحو ما كان يصنع التلاميذ المصريون منذ عشرين سنة.

وأذهب إلى أبعد حدود الصراحة فأقول:

إن مجلاتنا الفكاهية تُقرأ عندنا، أما مجلاتنا الجدية فتقرأ في غير مصر من الأقطار العربية، ولا يقرؤها في مصر غير الخواص.

فما معنى ذلك؟

معناه أننا عجزنا عن رياضة شباننا عجزاً قبيحاً، ولم نستطع أن نقدم إليهم الجِد في صورةٍ مقبولة وأسلوبٍ أخّاذ، وتلك هي المهمة الحقيقية لسِحْرِ البيان.

ومعناه أيضاً أننا لا نفكر في الشبان المصريين حين نكتب، وإنما نفكر في الشبان العراقيين والحجازيين واليمنيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين وفي أمثالهم من شبان تونس والجزائر ومراكش. وهذا غرضٌ شريف، ولكن يجب أن يدخل الشبان المصريون في الحساب، لأنهم قوةٌ هائلةٌ جداً، ولأنهم سيحملون الأمانة العلمية في المستقبل القريب.

وقد جمعتُ المدرسين في إحدى المدارس الأجنبية وصرختُ في وجوههم: لماذا يزهد تلاميذكم في المطالعات؟

فقال قائل منهم: هذا عيب شائع في المدارس المصرية فكيف تُؤَاخَذُ به المدارس الأجنبية؟!

وهذا الجواب أفحمني: لأني أعرف أن أكثر المدرسين عندنا يبخلون على أنفسهم بكتاب ثمنه خمسة قروش، فكيف أنتظر أن يولَع التلاميذ بالمطالعات!

ولكن لا بدَّ من التفكير في الخلاص من هذه القناعة العقلية.

إن متوسط ما يقرأ الشاب الفرنسي في العام الواحد ستون كتاباً.

فكيف يجوز أن يمر العام على الشاب المصري من دون أن يطَّلع على كتاب واحد؟

العيبُ عيب المؤلفين.

وهل ضَعُفَ التأليف في مصر؟ مصر لم يضعف فيها التأليف، ولكنه منحرفٌ بعض الانحراف.

المؤلفون المصريون في هذه الأيام لا يفكرون في غير الخواص: فهم يشتغلون بتحقيق الأدب الجاهلي، والنثر الفني في القرن الرابع، وفلاسفة اليونان، والتصوف الإسلامي، وينسون أن من واجبهم أن يحدِّثوا الشبان عن معضلات العصر الحديث.

ومن المحزن آن أصرح بأن مصر لم ينبُغ فيها كاتب يسيطر على عقول الشبان بعد المنفلوطي، وما كان المنفلوطي بأعلم من العقاد أو طه حسين، ولكنه كان أقدر منا جميعاً على الوصول إلى أفئدة الشباب .

وقد ظفر المنفلوطي بمجد لم يظفر بمثله أعاظم الكتاب في باريس .

جلستُ مع المنفلوطي ساعة في المكتبة التجارية فطلبت كتبه وهو حاضر أكثر من سبعين مرة، فمتى يُخلَق الكاتب الذي تُطلَب كتبه في الساعة الواحدة عشر مرات لا سبعين مرة؟

وقد تعب الدكتور طه حسين في محاربة المنفلوطي، ثم قال يوم مات: يجبُ أن يُخلَق في مصر منفلوطيٌّ جديد .

فمتى يُخلق المنفلوطي الجديد؟» .

* * *

الفصل السابع

الأدب
بين
التصريح والتلميح

التصريح والتلميح

يتساءل الدكتور زكي مبارك: «هل يصح للكاتب أن يفر من التصريح إلى التلميح؟».

حول هذا المعنى كتب على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ٢٧/ ٧/ ١٩٤٢.

يقول تحت عنوان: **أسرار وأسرار**:

«في الحوار الذي دار بين الأستاذ محمود البشبيش وابنه النجيب حسين، مرت إشارة لطيفة إلى كاتب كان يجمجم ولا يفصح، وهو «كاتب من الكتاب».

كان حسين - حرسه الله- كتب إليه يدعوه إلى ترك الإيماء والتلميح فيما يتناول من المعاني والأغراض.

وأتولَّى الإجابة عن ذلك الكاتب فأقول:

لقد نشأنا - يابُنيَّ- في عصر من عصور الانقلاب، وفي مثل هذا العصر تكثُر الأكاذيب والأراجيف، ويقلُّ الفهم لدقائق المعاني، فهل يلام الكاتب إذا فرَّ من التصريح إلى التلميح؟

قد تقول: إن التلميح أحط من التصريح، لأنه يفتح أمام المغرضين أبواب التفسير الخاطىء والتأويل المريب.

وأقول: إني أحب أن يظلمني قومي عن شبهة لا عن يقين، فأنا أساور أهدافي بأسلوب يُعفي ظالميَّ من ربقة الظلم المبين؛ وإلا فمن يتوهم أن أغراضي تخفى على قرائي وهم من أولي الألباب؟».

وعلى صفحات كتابِهِ «ليلى المريضة في العراق» طبعة دار مصر للطباعة وتوزيع مكتبة مصر بالفجالة نقرأ له في الصفحة ٤١٧ وما بعدها قوله:

«أُغْرِمْتُ بالأدب الفرنسي منذ سنة ١٩١٥ فراعني أن أراه يتحدث عن أزمات القلوب والنَفوس والعقول بأساليب لا أجد لها نظائر في الأدب العربي، فقرَّرت أن

أرجع إلى نفسي لأفتش عما فيها من أسرار وغرائب وأعاجيب، عساني أمدُّ الأدب العربي بذخيرة جديدة من ذخائر النفوس والقلوب، ومضيت فدرست طوائف من الغرائز والطباع والميول لأستطيع تأريخ النفس الإنسانية في العصر الحديث، وقد جمعت من ذلك كله محصولاً يعز على من رامه ويطول.

ثم هالني أن أرى الناس ينظرون إليّ نظرات الريبة والاحتراس، وأزعجني أن يصارحني بعض الأصدقاء بالقطيعة لأنه يخاف على أهل بيته من الشاعر الذي يقول:

أصبْاك ما خَلْفَ الستار وإنما
خلف الستائر لؤلؤ مكنون
والناس في غفلاتهم لم يعلموا
أني بكل حسانهم مفتون(١)

* * *

الأدب المكشوف

ثم يقول: «ولما دخلت بغداد وجدت ناساً يرتابون في أمانتي بسبب مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» وفي تلك المقدمة كلام قلته في الدعوة إلى الأدب المكشوف».

ويستطرد قائلاً: «أنا الذي جنيت على نفسي، لأني لم أبين المراد من الأدب المكشوف، وما أردت به إلا الصدق في تصوير العواطف والأهواء، وليكون في ذلك مادة تنفع في دراسة علم النفس.

ومن المستحيل أن أريد الدعوة إلى الفجور والمجون، لأني بحكم أعمالي الرسمية من رجال التربية، ولأني رجل متأهل وله أبناء، ولأني أتسامى إلى أكبر منصب من مناصب الخدمة الوطنية.

---

(١) شعر الدكتور زكي مبارك على صفحات ديوانه الثاني «ألحان الخلود».

وما الذي كان يمنع من تحديد الغرض الذي قصدت إليه حين أثنيت على الأدب المكشوف؟

منع من ذلك أني اعتمدت على عقول بني آدم وفيهم أذكياء.

ومن هنا جاء الغلط: فالجاحظ وابن قتيبة والثعالبي كانوا يعرفون أن مؤلفاتهم لن تصل إلا إلى المياسير من الخواص، أما أنا فأعيش في عصر كثر فيه نقل المؤلفات من أرض إلى أرض، ومؤلفاتي ذائعة ذيوعاً لم أكن أتوقع أن تصل إليه، وقد يكون في القراء من يخفى عليه أني أدعو إلى مبادىء أخلاقية سامية أغشيها بالفتون، كما يصنع الطبيب في تغشية «البرشامة» المرة بغشاء من الحلواء.

وقد يكون لي خصوم يتخذون من أدبي ذريعة إلى إقصائي عما أطمح إليه من المناصب العالية، وهؤلاء الخصوم قد يعرفون في سرائر أنفسهم أني من أهل الصدق، ولكن الخصومة لها طبائع سود، وهي تُحَرِّفُ الكَلِمَ عن مواضعه بلا تهيب ولا استحياء.

والأصدقاء أنفسهم قد يرتابون فيما يقرأون، وهل أنسى ما وقع بيني وبين الأستاذ سعد اللبان؟

إن الأستاذ سعد اللبان صديق حميم، وهو من الذين يعرفون دقائق الرموز والمعاريض، ولكنه مع ذلك أسرَّ إليّ مرة أنه يجب أن يعرف مبلغ الصدق فيما تحدثت به عن نفسي في كتاب «ذكريات باريس».

وقد ضحكت ضحكة أصرحَ من ضحكاته الصريحة، وأكدت له أني صادق في كل ما تحدثت به عن نفسي من غراميات باريس.

كان عليّ أن أعتبر بما رأيت وسمعت، كان عليّ أن أعتبر منذ اليوم الذي أعلن فيه الدكتور طه حسين رأيه في كتاب «مدامع العشاق» بمقال نشره في جريدة السياسة وصرح فيه بأن كتاب «مدامع العشاق» يُحرِّض على الشهوات[1].

ماذا أريد أن أقول؟

(١) مدامع العشاق من تأليف الدكتور زكي مبارك.

أريد أن أقول : إن العقل «يفرض أن نوضِّح أغراضنا فيما ننشر من رسائل ومؤلفات، فلو أني كنت أفصحت عن غرضي منذ أول يوم تصديت فيه للنشر والتأليف لأعفيت نفسي من متاعب القيل والقال» .

ويستطرد قائلاً :

«ولكن تجريح الأفراد غير تجريح الشعوب . فمؤلفاتي حين تُفهم فهما خاطئاً لا تضر أحداً غيري، وأراجيف المفسدين لها نتيجة صغيرة وهي إخراجي من خدمة الحكومة المصرية .

ولكن التجريح حين يوجه إلى أمة تكون له عواقب أفظع وأشنع، فسكوت مصر عما يوجَّه إليها من تهم كواذب قد يعطل رسالتها العلمية في الشرق، فيضرها مرة ويضر الشرق مرتين، لأن الشرق العربي يريد حقيقة أن يثق بأن له إخوانا أشقاء في مصر، وهو يتأذَّى حين يوهمه المفسدون بأن العواطف العربية ليست إلا خداعاً في خداع .

وهذه الأزمة شهدتها بنفسي حين **زرت لبنان وسورية وفلسطين والعراق،** ولعلي أراها حين يوفقني الله لزيارة تونس والجزائر ومراكش، فأهل هذه البلاد الشقيقة يجزعون مرات في كل يوم، لأن صنائع الاستعمار يوهمونهم أن مصر لا تفكر في غير السيطرة والاستعلاء ... ولذلك فالمفهوم عندي أنه لا بد من إنشاء قلم خاص بمصلحة الصحافة لمراجعة ما يكتب عن مصر في سائر الأقطار العربية والإسلامية، ومراقبة ما ينشر في جرائد مصر عن تلك البلاد .

ومن الواجب أن يكون الموظفون بذلك المكتب رجال لهم غيرة ودراية ومعرفة بأقوال الشرق، ومن أهل الغيرة على الأخوَّة العربية، ويجب حتماً أن يكونوا عرفوا الشرق وأن يكونوا في صدق إبراهيم المازني، وعبد الوهاب عزام، ومحمد عبد العزيز سعيد، ومحمد فهيم، وعبد الواحد الوكيل، ومن إليهم من أفاضل الرجال، وإنما ألح في الدعوة إلى إنشاء هذا القلم الخاص لأني أعرف أن الصحافة المصرية معرضة لخطر عظيم : هو محاكاة الصحافة الأوروبية، والصحافة الأوروبية تستبيح ما لا يباح .

ولو شئت لنصصتُ على أن أكثر الصحفيين عندنا شبان تعوزهم التجاريب ...

وبهذه المناسبة أذكر أني قرأت للأستاذ إميل زيدان كلمة حول الاختيار الصحفي بمناسبة تفكير كلية الآداب في إنشاء قسم للصحافة، وهو يرى أن أعظم سؤال يوجه إلى الطالب في قسم الصحافة هو الذي يشهد جوابه بأن الطالب يفهم جميع الظروف التي تظهر بها الجريدة اليومية من وقت إعداد المقالات إلى وقت ظهورها في السوق.

وقد فهمت من كلمة الأستاذ إميل زيدان أن «الخبر» له قيمتان: قيمة حقيقية، وقيمة صحفية.

وهذا حق.

ولكنه سيرٌ في طريق التضليل، ففي جرائد مصر أخبار لها قيمة عظيمة من الوجهة الصحفية، ولكنها مشئومة من الوجهة الوطنية: فكتابة مقال عن دخائل بعض البيوت ينفع نفعاً عظيما من الوجهة الصحفية، ولكنه مؤذ من الوجهة الوطنية. ونشر كلمة مثيرة للخواطر أجدى على الصحفي من الإشادة بكتاب جيد.

ونشر خبر يمزق ما بيننا وبين بعض الأمم العربية من صلات يزيد توزيع الجريدة ألفاً أو ألفين، ولكنه يرجع على مصر بالوبال.

فما الذي ستصنعه كلية الآداب حين تنشىء قسماً للصحافة؟

أنا أرجو أن يكون لذلك القسم المنتظر فوائد غير التمهيد لأكل العيش وتقليل عدد العاطلين.

أنا أرجو أن يكون قسم الصحافة بكلية الآداب نواة لوزارة الدعاية التي سننشئها بعد عام أو عامين، يجب ألا يدخل هذا القسم غير الشبان المزودين بالألقاب الجامعية من الذين ظهرت عليهم أمارات الاستعداد للخدمة الوطنية.

وليس من العيب أن يُفْهَم أننا نكوّن شبانا يصلون بيننا وبين أهل الشرق أو أهل الغرب.

بل العيب كلُّ العيب أن نترك علاقاتنا الخارجية تحت رحمة شبان تعوزهم التجارب من الذين يرون أن الخبر الكاذب أنفع صحفيا من الخبر الصحيح».

بعد أن أوردنا الكلمة الماضية بنصها نتساءل: هل كان الدكتور زكي مبارك يؤمن بتعديل آراء الكتّاب وتطويرها مع الزمن؟

وهل كان صاحب مبدأ؟

نعم، كان صاحب مبدأ، ولكن المبدأ عنده لا يكون بأن تتمسكَ بأي شيء قلته حتى لو ثبت خطؤه.

المبدأ عنده أن تتحرّى الصدق فيما قلتَ وفيما تقول...

المبدأ ألا تجافي الحقيقة... المبدأ أن تقول ما تراه صدقاً اليوم حتى ولو قلت عكسه من قبل.

إنه يؤمن بأن على الكاتب أن يعدّل آراءه ويطورها مع الزمن بحيث لا تجمد ولا تتعارض مع الحياة في تطورها إلى الأمام، ويرى أنه ليس في ذلك عار أو خطأ.

يقول الدكاترة زكي مبارك:

«يجب أن تنظر إلى آرائك كما تنظر إلى أثوابك، فالآراء تبلى كما تبلى الأثواب، والذي يعيش على رأي واحد قد يكون أجهل من الذي يعيش بثوب واحد، فاحذر من العيش وأنت بالي الآراء. وقد يعيِّرك الغافلون بالتنقل من رأي إلى رأي، مع أنهم لا يعيّرون من يلبس ثوبا بعد ثوب، وإنما كان ذلك لأنهم يجهلون أن الآراء من صور الحيوية.

ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأي الواحد من شواهد اليقين. ولو عقلوا لأدركوا أن العين التي تنظر بأسلوب واحد هي عين بليدة لا تدرك الفروق بين دقائق المرئيات. وكذلك يكون العقل البليد، وهو الذي لا يدرك الفروق بين المعنويات والمعقولات».

وأخيراً يقول:

«الأمر الهام أن تكون أنت أنت، في تحوّلك وقرارك، فلا ينبغي أن تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك، أو أن تكون ظلاً لعظيم من العظماء أو حزب من الأحزاب».

* * *

خطر العلانية على الأدب الصحيح(*)

من الآفات التي تعوق الأدب في هذا العصر أن الكتَّاب والشعراء لا يصبرون على طيّ ما يكتبون وما ينظمون، وإنما يبادرون إلى النشر في الجرائد والمجلات، ثم تكون النتيجة أن يُضطروا إلى مراعاة الجماهير المختلفة في أكثر الشؤون، فيخلو أدبهم من الصراحة، ويغلب عليهم ما يُشبه الرّياء من أمراض الكتمان.

أهمّ المصاعب التي يعانيها الأدب أنه صار من الوسائل الشريفة لكسب الرزق الحلال، ومن الخير للأدب أنْ صار كذلك، ليعرف من لم يكن يعرف أن القلم نعمة من النعم السوابغ، وأنه خليقٌ بأن يفتح لحامليه كرائم الافاق.

ولكن من الشر للأدب أنْ صار كذلك، فقد أصبح أهله أسارَى للمجتمع من قُرب أو من بُعد، وأصبح من المحتوم أن يراعوا طوائف من الرقباء، بغض النظر عن الرقيب الذي تفرضه أيامُ الحرب، لأنه رقيبٌ لطيف، لا يثور إلا في أندر الأحايين؛ وأنا بهذا الكلام أترضّاه ليتغافل عني تَغَافُلَ الكرماء قَصرَّ الله عُمر الحرب لأشفي غليلي من ذلك الرقيب اللطيف!!

الرقباء الحقيقيون هم القرَّاء، ومداراة القارىء مرضٌ قديم في الصحافة المصرية، وتلك المداراة هي علة العلل في جسم الأدب الحديث، ونحن نحارب هذه العلة بلا هوادة، ولكن في حدود يغلب فيها الترفق، ومعنى ذلك أننا شجعان جبناء، والعياذ بالذوق!

تلك الدنانير التي يجود بها الأدب على أصحابه ستَحرم الأدب أعظم صفاته من الصراحة والصدق، وقد تورثه عقابيل يعز منها الشفاء.

وهنالك علةٌ أخطر وأفظع، هي علة الأديب الموظف: فالعُرْفُ في الشرق لا يعترف بتعدد الشخصيات للرجل الواحد، ولا يسوغ في ذهن هذا العُرف البليد أن

(*) مجلة الرسالة العدد ٤٧٠ بتاريخ ٦/ ٧/ ١٩٤٢.

يكون للرجل شخصية حين يباشر عمله الرسمي في الديوان، وشخصيات حين يخلو إلى القلم، إن كان من رجال البيان.

وأعجب العجب أن يراني هذا العُرف نفسه بلا تأثّم ولا تحرّج، فهو يشتهي أن تكون في الدنيا أقلام تحدّثه عن سرائره المطوية، وهو مع ذلك يكره أن يكون هذا الفضل من نصيب هذا الكاتب أو ذاك، وذلك عُرف الجمهور الذي نداريه كارهين، ولم يبق من البلايا إلا أن نتقي شر من نخدمهم بنزاهة وإخلاص ... وعند الله، عند الله وحده الجزاء!

أقول هذا وقد مزّقت خمسة أحاديث قبل هذا الحديث، فقد تحدثت فيها عن أشياء لا يجوز نشرها في هذا الوقت، وإن كانت في الصميم من دخائل النفس الإنسانية؛ فقد يقول عاقلٌ أو جاهل: إننا في أيام لا تتسع للحديث عن سرائر النفوس، كأن الضمير الأدبي يخضع لظرف الزمان وظرف المكان، وكأن العبقرية الروحية تعرف الرسوم والحدود، وكأن مخاطر الحرب ومتاعب البؤس ومصاعب التموين تصد الروح الظامىء عن هواه في ورود ينابيع الوجود.

* * *

أين الأمة العربية؟

عند الأمم الأوربية تقاليد أدبية تستأهل التسجيل، فهنالك يؤمن الكاتب بأمته، فيؤلف كتاباً في مئات أو ألوف من الصفحات ليُنشر بعد موته بأعوام طوال.

فما معنى ذلك؟

معناه أن الكاتب يثق بأن الضمير الأدبي في بلاده سيعيش ويعيش إلى أن يُنْصِفَه من زمانه ولو بعد حين.

ومعناه أن الكاتب يؤمن بالخلود.

ومعناه أن الكاتب يشعر بنائرة الحقد بعد أن يموت.

ومعناه أيضاً أن الكاتب يعرف كيف ينتقم وهو في غَيَابةِ الفناء، أو حصانة البقاء.

فأين الأمة العربية لنُودِعَها دفائن صدورنا من أبناء هذا الزمان؟

وأين من يفتش في دفاترنا بعد الموت، ليرى ما سطرناه في أخلاق هذا الجيل؟

جهادنا في خدمة القلم أضيع من الضياع، ولولا الإيمان بأننا نؤدي خدمة قومية لَقَوَّضْنا القلم بلا رحمة ولا إشفاق

وعند الله، عند الله وحده الجزاء.

* * *

خطاب(*)

هو خطاب جميل، ولكنه ليس في جمال الخطابات التي أتلقاها من الشاعر أحمد العجمي، وإنما يرجع جماله إلى أنه يؤكد نظرية أخلاقية يكثُر كلامي عنها في هذه الأحاديث، وأنا لا أَملّ ولن أمل من نقد مسالك الناس في معاملة الأصدقاء.

هو إذن خطاب من صديق لا يعرف أدب الصديق مع الصديق، فقد شاء هواه أن يتوهم أن الصداقة تُبيحهُ أن يخاطبني بما لا أحب، كأن الصداقة تعفيه من رعاية الذوق، وكأن المودّة تمنحه التحرر من قيود الآداب.

إن في الناس من يتهمني بمحاباة أصدقائي، وإن فيهم من يقول: إني أختلق الفرص لأتحدث عن أصدقائي بما يحبون في مقالاتي ومؤلفاتي، وأقول: إن تلك التهمة صحيحة، وإن هذا القول حق: فأنا أتَحَيَّزُ لأصدقائي في السر والعلانية، وأحب من يحبهم، وأعادي من يعاديهم. وأنا أنكر على أهل هذا العصر أن يحبّذوا تغاضي الصديق عن عيوب الصديق، بحجة الحِرْص على سلامة المجتمع من العيوب.

ومن يتعصب لأصدقائنا إذا لم نتعصب لهم؟ وإلى من يطمئنون إذا عرفوا أننا نتعقّب ما يجترحون من هفوات؟

أكتب هذا وقد تلقيت من أحد أصدقائي في بغداد خطاباً يعيب عليّ فيه أن أثبت في كتاب «ملامح المجتمع العراقي» كلمة في الثناء على السيد عبد القادر الكيلاني، فهل يعرف ذلك الصديق لأي غرض أثبتُّ تلك الكلمة الطيبة لوجه الله، ولوجه الحق؟

(*) مجلة الرسالة العدد ٤٧٠ بتاريخ ٦/ ٧/ ١٩٤٢.

أثبتُّها لأني علمت أن السيد عبد القادر الكيلاني سيحاكم أمام المحكمة العسكرية في بغداد، بعد زمن قصير أو طويل، والعراق الذي عرفته وعرفه التاريخ لا يُصدر حكماً إلا بعد سماع أقوال الشهود العدول، وأنا شاهدٌ عدل في قضية هذا الرجل، ومن واجبي أن أسارع إلى كلمة الحق فيه، قبل أن يقف في ساحة القضاء. وكتمان الشهادة حيادٌ يأباه قضاةُ بغداد.

وأقول بصراحة: إني كنت أخشى أن يُمنع كتاب «ملامح المجتمع العراقي» من دخول العراق، لأني تحدثت فيه عن رجال تغيّر فيهم رأي العراقيين، ثم ظهر أن العراق لا يرضيه أن يصادر كتاباً أملاه الصدق والإخلاص، وتنزه مؤلفه عن المداجاة والرياء.

فهل أَتَّهمُ الصديق اللائم الظالم بأن نسبه إلى العراق يحتاج إلى برهان؟

أعزّ الله العراق، وحماه من جميع الأسواء.

* * *

بَلادَةٌ أَدَبيَّة

هي بلادة الأدباء الذين يسألون من وقت إلى وقت عن السبب في خمود نار الخصومة بيني وبين الدكتور طه حسين. وإني لأنظر فأرى لهم غاية من تأريث تلك الخصومة، لأنها تشفي صدوراً يعجز أصحابها عن الوقوف موقف الخصماء.

إن خصومتي للدكتور طه حسين خصومة أدبية لا شخصية، وسأخاصمه كلما لاحت فرصة لنقد ما يصدر عن قلمه من آراء، وهو لا يزال في الميدان، فليس من البعيد أن أرجع إليه بعد أسبوع أو أسابيع.

المهم هو تسجيل هذه الظاهرة الغريبة، ظاهرة البلادة الأدبية عند بعض الأدباء البهاليل، فما الذي يصدّهم عن نقد الدكتور طه بأقلامهم إن كانوا يرون في مذهبه الأدبي شيئاً من الاعوجاج؟

إن الذين يتوهمون أن في مقدورهم أن يثيروني على الدكتور طه حسين بمثل ما توسل به أحدهم من النَّمائم لَفِي ضلال، فما يستطيع قلمي أن يصول بغير الحق، ولو في مناوشة أعدى أعدائي، على فرض أن الدكتور طه من الأعداء، وله في قلبي مكان.

* * *

المعارك القلمية في مصر

لخصت مجلة الصباح الدمشقية ما دار بيني وبين الأستاذ عباس العقاد من صيال، ثم قالت:

«هذا نمط من المعارك القلمية التي تثور في مصر اليوم، وبمثل هذا النقد اللاذع يتراشقون».

والجواب حاضر، فمصاولة الأدباء المصريين بعضهم لبعض لا تغض من النهضة الأدبية في الديار المصرية، وإنما هي شاهد صادق على حيوية الأدباء المصريين.

قلت مرة ومرات: إننا نختلف أقل مما يجب، ويا ويلنا إذا لم نختلف!

فإن شاء رفاقنا في دمشق أن يعدّوا الاختلاف من عيوبنا فهم مخطئون.

ألم أقل لكم: إن السلام ضربٌ من الموت؟

* * *

الطبيعة والناس

في اللحظات التي يتزحزح فيها برد الشتاء من وضع إلى وضع نبدأ الطبيعة بإعداد الخلائق الجديدة في عوالم الشجر والنبات والطير والحيوان.

والأمر كذلك في حياة الناس... ألم تسمعوا بهجوم الربيع في دنيا الحرب؟

كان ذلك لأن الربيع يوقظ القُوى الغافية، قُوى الحب والبغض، والصلح والقتال.

أكتب هذا وقد سمعت ما سمعت وقرأت ما قرأت من أخبار العراك في مجلس النواب. فما دلالة هذا العراك؟ وهل يحط من أقدارنا في أنظار أهل الشرق والغرب، كما قيل؟

الرأي عندي أن مصر غنمت بهذا العراك غنائم لم تكن تخطر في البال، فقد ظهر جليًا أن عندنا خطباء من الطراز الأول في اللغة العربية، وظهر جليًّا أن عندنا رجالاً من أصحاب الأعصاب الحديدية. وهل من القليل أن يكون عندنا وزراء يقضون نهارهم في مكاتبهم على خير حال من النشاط، ثم يقضون صدر الليل في مصاولات برلمانية تفلّ الحديد؟

ماذا يقول الجيل المقبل حين يرى مضابط البرلمان؟ ماذا يقول؟

كل ما أتمناه أن تدوم هذه اليقظة العقلية والروحية على نحو ما رأينا من القُوَّةِ والحيوية، ليعرف الجيل المقبل أن آباءه كانوا أصحاء في الأرواح والعقول، وأنه جدير بأن يخلفهم في ميادين المنطق والفكر والبيان.

أظهرُ ما عِيبتْ به تلك المصاولات هو صدور ألفاظ نابية على ألسنة بعض النواب، فهل تفردنا بخلق تلك الألفاظ، ولها نظائر في جميع اللغات؟ وهل كان مجلس النواب مجلس سَمَر لا يدور فيه غير مصقول الأحاديث؟

إن خصوم الحكومة قالوا فيها ما قالوا، وقالت فيهم ما قالت، وعرف الجمهور عن طريق العلانية كل شيء، ولُجِمَ قيام الأحكام العرفية.

إن موقفي موقف المؤرخ لعهد من عهودنا الأدبية في البلاغة البرلمانية، وهي بلاغة وصلتْ إلى غاية من أرفع غايات البيان، وشهدت بأن للفكر في مصر أقطاباً وأساطين.

مايو / ١٩٤٣

* * *

الفصل الثامن

أدب المعاش

أدب المعاش

اهتم الدكتور زكي مبارك بما أسماه: «أدب المعاش» وألّف كتاباً عن هذا الموضوع، ولكن العمر لم يمهله حتى يرى كتابه النور[1] ... وأدب المعاش يعني فن الحياة ... ويرى أن على الإنسان أن يسوّي حساباته مع نفسه كل عام تماما كما يفعل تجار الورق وغيرهم ... فيجلس مع نفسه ليعرف ماذا ربح وماذا خسر في السنة الماضية ... ويعرف أين هو ممّا فات ومات ... وما الذي يمكن أن يفعله في السنة الجديدة ...

وفن الحياة -كما يراه أيضاً- هو الاعتماد على النفس، لأن ميادين الحياة في كل أرض تتسع للعيش؛ لأن العيش يُطلب بالعمل لا بالسؤال ... وفي ذلك يقول:

«إن الأساس لبناء المستقبل أن تكون روح الشعب وروح الجماعة ممثلةً في كل فرد، فيكون الرجل حاكما ومحكوما في آن واحد، حاكما لهواه ومحكوما في نهاه، ثم تتلاقى قوى الأفراد في القطرات الطاهرة من الغيوث، فتخلق نهراً في مثل عظمة النيل.

فالقوة الفردية هي أساس القوة الاجتماعية.

والمثال الصحيح للأخلاق السليمة هو أن تعرف مالك وما عليك، فتحب لأخيك ما تحب لنفسك، وتبغض لأخيك ما تبغض لنفسك، ويكون رأيك في تقدير المشكلات الاجتماعية هو الميزان».

أيضاً أدب المعاش كما يرى هو الأدب الذي يعلّم الناس كيف يقتصدون وكيف يدّخرون، وكيف يواجهون مطالب الحياة في الشباب والمشيب بجيوب سليمة من مرض الإفلاس، ويقول:

---

(١) كتاب «أدب المعاش» تحت الطبع الآن.

«إن المعلم الحق في نظري هو الذي يروض نفسه ويروض تلاميذه على تدبير المعاش، **فلا يمكن لمدرس يبدد مرتبه في الأسبوع الأول من الشهر أن يجد عقله في الباقي من الأسابيع**».

ويرى أنه علينا أن نبحث عن الأديب المخلوق لدرس الحياة، ويقول(*):

«نحن نرجو أن يكون في أساتذة الأدب من يخرج على الذوق المتكلف والوقار المصنوع، نرجو أن يكون عندنا أساتذة يزورون تلاميذهم في بيوتهم، ويرافقونهم في الحفلات والسهرات، ويطوفون بهم على الأحياء الشعبية ليعلِّموهم كيف تكون الثورة على ما في حياة الشعوب من بؤس وشقاء... نريد أساتذة يربون تلاميذهم على مرافقة العمال والصناع والفلاحين ليكونوا في المستقبل من حملة الأقلام النُّورانية التي تبدد غياهب الجهل والخمول... نريد أدبا يبعث في الشعب روح التمرُّد على الفقر والمسكنة والذل، ويروضه على الطمع الشريف في الغِنَى والكسب والعزة والكبرياء... نريد أدبا يطمعنا في استرجاع ما ضاع من مجد مصر والنيل... نريد أدبا يرفعنا إلى صفوف الجوارح، نريد أدبا يعلّمنا فضل المخلب والناب، نريد أدبا نسيطر به على الدنيا غير باغين ولا عادين».

ويقول على صفحات (جريدة البلاغ) في الثالث من اكتوبر سنة ١٩٥٠ يقول: «أنا أصور المجتمع الذي يقوم بناؤه من جوانب ويتهدم من جوانب، وكما أعبر عن نفسي أعبر عن أنفس قرائي، فهم يلقون في حياتهم ما ألقاه من آمال وآلام، ولو كانوا يكتبون أو ينظمون لقالوا مثل الذي أقول، فَنَثْرُ الكاتب وشِعْرُ الشاعر صورة صحيحة لألوان الحياة في العصر الذي يعيش فيه الكاتب والشاعر».

وفي كثير من مقالاته نلتقي برأيه في أدب المعاش... أو في فن الحياة... ولنبدأ بمقاله على صفحات مجلة الرسالة في الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٤٢ حيث يقول تحت عنوان:

(*) من كتاب «جناية أحمد أمين على الأدب العربي» الطبعة الثانية: دار الجيل بيروت.

أدب المعاش(*)

لا جدال في أن الأدب العربي الحديث قد سما سمواً عظيماً في كثير من الفنون، ولكني مع ذلك أراه تخلّف أقبح التخلف في دعوة الناس إلى تدبير المعاش، وأنا أقترح أن يكون عندنا أدب يسمى «أدب المعاش» وهو الأدب الذي يعلم الناس كيف يقتصدون، وكيف يدّخرون، وكيف يواجهون مطالب الحياة في الشباب والمشيب، بجيوب سليمة من مرض الإفلاس، فما يُذلُّ الرجال غير الفقر، أعاذنا الله وأعاذ جميع الأحرار من رؤية وجهه البغيض.

ولتوضيح هذا النقص في اتجاهاتنا الأدبية أسوق الفكاهتين الآتيتين:

لقيني الشاعر حافظ إبراهيم يوماً فقال:

- هل رأيت ما صنع شوقي؟

- وماذا صنع شوقي؟

- نظم قصيدة في «بنك مصر» مع أنه لو اختلف مع هذا البنك على مليم واحد لَسَاقه إلى ساحة القضاء!

- ومعنى هذا أنك لا ترى أن تقال في «البنوك» قصائد؟

- القصائد لا تقال إلا في الأزهار والرياحين.

ولقيني الشاعر عباس العقاد يوماً فقال:

- قد نفيناك عن فردوس الأدب.

- وما سبب هذا النفي يا حضرة الأستاذ؟

- لأنك بنيت بيتاً في مصر الجديدة، والأدب لا يعرف مثل هذا الثراء.

(*) مجلة الرسالة ٢٨/ ٩/ ١٩٤٢.

وقد اعتذرت للأستاذ العقاد بعبارة لطيفة، عبارة تقول بأن شهرتي بالأدب هددت سمعتي المالية، فكان من واجبي أن أبني بيتاً ولو بالتقسيط، لتَحْسُنَ سمعتي في سنتريس.

والحق أن أدباءنا قد انصرفوا عن تعليم أنفسهم وتعليم قرائهم فكرة المعاش، ولو شئت لقلت: إنهم يتباهون بالتبديد لما يملكون. وهذا خطرٌ يجب التحذير من عواقبه السُّود، وأنا أنبه نفسي وأنبه تلاميذي وقرائي، فلأسمعْ وليسمعوا، ولعل فيهم من يعي كلامي بأكثر مما أعي كلامي.

لا يعاب على الأديب أن يقصَّ بعض وقائعه الغرامية، فمنذ عهد امرىء القيس إلى اليوم والشعراء يتباهون بحوادث الضم والعناق والوصال، والأمر كذلك عند شعراء الأمم الأجنبية، ولكن يعاب على الأديب أن يقصَّ بعض مسالكه في تدبير المعاش، وما وقع من ذلك لم يقابَل بغير السخرية والاستهزاء.

وأخرج على هذا التقليد فأقول: إني جريت منذ أعوام على الادخار في حدود الاعتدال، فلا أحرم نفسي ولا أحرم أبنائي نعمة العيش المقبول، ولكني لا أسمح لنفسي ولا لأبنائي بتبديد ما يسوق الله من الرزق الحلال.

وعند اشتغالي بالتدريس كنت أسأل تلاميذي عما يدَّخرون، ولم يفتني أن ألقي درساً في الادخار على تلاميذي في بغداد، راجياً أن يلقوه على تلاميذهم في جميع أرجاء العراق.

ومهنتي اليوم لا تتسع لأمثال هذه الدروس، ومع ذلك يغلبني حب الخير، فأسأل المدرسين الذين أتشرف بتوجيههم إلى المناهج الصحيحة في التدريس، أسألهم عما يدَّخرون، لأطمئن إلى صلاحيتهم لمهنة التعليم؛ فالمعلم الحق في نظري هو الذي يروض نفسه ويروض تلاميذه على تدبير المعاش. ولا يمكن لمدرس يبدد مرتبه في الأسبوع الأول من الشهر أن يجد عقله في الباقي من الأسابيع.

وتدبير المال في الحدود المعقولة يشهد بالقدرة على ضبط النفس، وضبط النفس هو أوثق صور الأخلاق، وما يجوز لمُبَذِّرٍ أن يتوهم أنه يصلح لشيء من جلائل الأعمال.

أكتب هذا وأنا أعرف أن في بني آدم من يطيب له أن يتهمني بالشح والبخل، لأنهم ألفوا وصف المدّخرين بالشح والبخل؛ ولأن الشعر القديم صوَّر لهم التبذير بصورة السخاء، مع أن أكثر المدائح كانت تمائم أريدَ بها انتهابَ ما يملك الخلفاء والملوك.

ومهما نهيتكم عن الإسراف فلن أنهاكم عن البر بالفقراء والمساكين. ولي هنا غاية تجارية: فقد عرفت بالتجربة أن الله يعوِّض ما ننفقه على المعوزين أضعافاً مضاعفة، ومن الواجب أن نستغل كرم الله أجمل استغلال في حدود ما نطيق.

وأنا بعد هذا أرجو من يؤلفون كتب المطالعة لتلاميذ المدارس أن يكثروا من الحث على الادخار، ليساعدوا على إنشاء جيل جديد، جيل متماسك لا يتباهى أبناؤه بالإسراف، والتبديد، وإنما يتباهون بالبر والإفضال.



القـوة الفـرديـة

هي أساس القوة الاجتماعية

[رسالةمهداة إلى

معالي الأستاذ عبد الحميد

عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية]

في العام الأسبق نشرتُ مقالات عن الفقراء والأغنياء تقوم على أساس القول بأن الفقر مرض ولكل مرض أسباب، وأن الغنَى عافية ولكل عافية أسباب.

وقد قوبلت تلك المقالات بالاستنكار من كل جانب، وعدّها الناس تحاملاً على الفقراء، وتلطفاً مع الأغنياء، مع أني كتبتُها لوجه الله والحق، ولم يكن هناك باعث غير الرغبة الصحيحة في عرض آراء قد اقتنعت بصحتها كل الاقتناع.

ثم مرت شهور طوال وأنا أفكر في أسباب غضب الجمهور على تلك المقالات، فلم أجدها ترجع إلا إلى سبب واحد: هو مجاراة النزعة الموروثة في الترفّق بالفقراء، والغض من أقدار الأغنياء، فقد مرّت أزمان والناس لا يقرؤون غير كلمات معسولة في الدعوة إلى الرأفة والرحمة والبر والحنان فيما يتصل بمعاملة الفقراء، وكلمات مسمومة في إنذار الأغنياء بعواقب الحرص على كنز الأموال.

وأقول: إن هذه الألوان الكلامية كانت تليق بزمان غير هذا الزمان، يوم كانت الكلمة اللطيفة تنفع الفقير بعض النفع لما فيها من المواساة، ويوم كانت الكلمة القاسية تصدُّ الغنيّ عن المبالغة في طلب الجاه والمال.

أما اليوم فقد تغيرت مذاهب الحياة أشدَّ التغير، ولم يبق للكلام المعسول أي قيمة في مواساة الفقراء، ولم يعد للكلام المسموم أي وزن في تقويم الأغنياء.

نحن في زمن الحقائق، وليس للكاتب المرائي في هذا الزمن مكان.

نحن في زمن الحقائق، والحقائق تنطق بأن الفقر مرض، وأن الغنى عافية.
والمريض الذي لا يبحث عن أسباب مرضه ليتجنبها هو مريض في طريق الموت.

يجب أن نُقنع كل فرد بأن الغنى طوع يديه إن أراد.

ويجب أن نُقْنِع كل فرد بأن الوصول إلى الرزق ليس من المشكلات، فجهاد ساعتين اثنتين من كل يوم يكفي للظفر بالزاد الذي يغني عن سؤال الناس.

وميادين الحياة في كل أرض تتسع للعيش، العيش الذي يُطلَب بالعمل لا بالسؤال.

إن الفقر هو انعدام الرزق، والغِنى هو وجود الرزق.

أقول هذا لأدفع وهما من أسخف الأوهام، وهو الوهم الذي يقول كاذباً بأن الأغنياء هم الذين يملكون القصور والبساتين، وأن الفقراء هم الذين لا يملكون قصوراً ولا بساتين.

العامل الذي يكسب خمسة قروش في اليوم ليدخل على أهله في المساء ومعه القوت الحلال من الخبز والبصل والفول هو من كبار الأغنياء.

والخادم الذي يصدُق في بيت مخدومه ويقدِّم لأهله في كل شهر عشرات القروش هو من كبار الأغنياء.

الغِنَى الحق هو انعدام الاحتياج إلى الصدقات، فما تجوز الصدقة إلى على من يُحرَم القدرة على الكسب الشريف.

ومن قال غير هذا القول فهو كاتب يتملق المجتمع ويطمع في شهرةٍ محرّمة، والشهرة كالرزق فيها حرام وحلال.

إن التباكي أو البكاء لن ينفع الفقراء بشيء، ولو جُمعتْ دموع الباكين من الكتّاب والشعراء والخطباء لكانت أقل من أن تملأ كوباً ينقع غلة فقير ظمآن.

أُدباؤنا لن يؤدوا رسالتهم الاجتماعية إلا يوم يستطيعون إقناع الكنّاس بأنه يؤدي مهمة وطنية.

لو كان في مصر أدبٌ اجتماعيٌّ صادق لكان من ثماره أن يتغنى الكنّاس بفضل مكنسته وهي من أظهر شواهد المدَنيَّة.

ولكن الكناس يجد من أدباء مصر من يبكي على مصيره بكاء التماسيح.

الغبار يؤذي الرئتين فيورث السل.

كذلك قال الأطباء.

فهل سمعتم أن كناساً مات بالسل؟

إن الله يحمي الكناسين، لأنهم يؤدون خدمة عمومية، ولم يبق إلا أن يفهم الكناسون هذا المعنى، ليدركوا أنهم جنود جنّدهم الوطن لخدمة الإنسانية.

وقد طال تباكي الأدباء على الفلاحين، فهل في أدبائنا من يفهم أن الفلاحين في غنىً عن تباكيهم المصطنع؟

قالوا: إن الفلاح يبيت مع الجاموسة في حظيرة واحدة، وفاتهم أن المبيت مع الجاموسة أطهر وأشرف من المبيت في غرفة مفروشة بأحد المنازل التي يعرفها المتأنقون من أدباء هذا الجيل الظريف!!

إن حياة الفلاح في صحبة مواشيه حياة تفيض بالروح والوجدان، فهو ينظر إلى مواشيه برفق يعادل نظره إلى أبنائه الأعزاء، وهو يسهر حول حظيرة ثوره حين يمرض، كما يسهر حول فراش ابنه حين يمرض، وهو لا يسمح بذبح ماشية مريضة إلا طاعة لعقيدة توحي إليه أن من الإساءة للحيوان الأليف أن يموت موت «الفطيس» وكذلك تكون المسارعة إلى ذبح الحيوان المريض باباً من التكريم، لا ضرباً من الاستغلال.

على هذا النحو من الفهم كانت الحياة في الريف، فقد رأيت ناساً يسهرون ومعهم مصباح حول ثور مريض، كأنهم يتوهمون أن المصباح يؤنسه بعض الإيناس. وتلك صورة تشهد بصدق الفطرة المصرية في إدراك منافع الطير والحيوان.

والذي يفهم الريف حق الفهم يدرك السبب في عبادة المصريين القدماء للأنعام، وهذه العبادة فُهمت على غير وجهها الصحيح. فما كان الغرض أن يكون البقر آلهة يُعبَدون من دون الله؛ وإنما كان الغرض أن يكون تقديس البقر نوعاً من صيانة النعمة الربانية، على نحو ما يصنع الفلاح المسلم حين يكره ترك فتات الخبز في الطريق، لأنه يرى من كفر النعمة أن تداس بقايا الخبز بالأقدام.

إن البقرة والثور من العناصر الأصيلة في الثروة المصرية، ومن أجل هذا المعنى كانت هاتور وكان أبيس من المعبودات في زمن الفراعين. وعن مصر أُخذت عبادة البقر في الأقطار الهندية، وتلك وثنية تستحق العطف، إذا فكرنا في سببها الصحيح.

وقد حدثني سعادة الأستاذ طه الراوي أن الحَجَّاجَ كان يحرِّم ذبح البقر، وأنشد أبياتاً قالها العراقيون في السخرية من هذا التحريم، فمن أين أخذ الحَجاج ذلك البدع الطريف؟

هل أخذه عن مصر؟ هل أخذه عن الهند؟

لا هذا ولا ذاك، وإنما استوحَى المنافع الحقيقية للبقر في بناء العمران.

ونحن في هذا العهد نسرف في أكل اللحوم إسرافاً يحمل الحكومة على تقييد بيع اللحوم، وإن تمادينا على هذه الحال فستزول المعاني الشعرية التي يحسها الفلاح في رعاية مواشيه، وسيمسي الفلاح وهو آلة في أيدي الجزارين!

فهل يجوز بعد هذا الكلام أن يتمادى الكتّاب المتحذلقون في تعيير الفلاح بأنه ينام في حظائر الأبقار والجواميس؟

إن لله حكمة في أن يجعل لنا أصدقاء نافعين من الطير والحيوان، أصدقاء لا يطالبون بشيء، ولا يثورون على الحرمان!

كان أحد ملوك فرنسا يقول: إن الذي يهمني أن يعم الرخاء بحيث يجد كل فرنسي دجاجة لمائدة يوم الأحد... والرخاء عندي أن يكون في دار كل فلاح بقرة أو جاموسة، فمتى نذيع هذا المعنى بأقلامنا؟ ومتى نترك تعييره بمصاحبة المواشي؟

كانت بيوت المياسير من أهل القاهرة تشتمل على حظيرة للأنعام، وكان هذا يلاحَظ في تخطيط البيوت، فهل ترجع هذه النزعة السليمة، ولو في البيوت التي تقام في الضواحي؟

وكان الفرن ملحوظاً في كل بيت، ثم تمدّنّا فكانت العاقبة أن نعاني ذم الخبازين!

وكانت أكثر البيوت في القاهرة تنتظر زادها «الصابح» من خيرات الريف يوم كان للقاهريين صلات بالريف، وقد انقطعت تلك الصلات بفضل التمدن الحديث.

أما بعد، فأين أنا مما أريد؟

أنا أدعو إلى تقوية الذاتية في كل فرد، وإلى تمجيد كل مهنة، وإلى احترام كل جهاد في سبيل الرزق الحلال.

أنا أدعو العمال الذين ينقلون الأحجار إلى الفرح برؤية المباني الشواهق، لأن لهم يداً في رفع البناء.

وأدعو الكنّاسين إلى الفرح برؤية الأصحاء، لأن لهم يداً في دفع ما يحمل الغبار من أوباء.

وأدعو عمال المطابع إلى الفرح بنهضة مصر العلمية، لأن لهم يداً في إبراز نفائس المؤلفات.

الحياة الطيبة هي الحياة التي يسودها الرضا والابتهاج، وفي مقدور كل فرد أن يحيا هذه الحياة، لو سكت الكتّاب المتحذلقون فلم يبغّضوا الحياة إلى الأحياء.

هل تتوهمون أن السعادة لا تكون إلا من نصيب من يرتادون الملاهي أو يملكون البيوت والسيارات والفدادين؟

لو عرف الفلاح المجاهد في سبيل القوت أنه يُغني أمته قبل أن يغتني لشعر بسعادة تفوق الوصف.

ولو عرف الخادم أنه يساعد بأمانته على تجميل الحياة لأدرك أنه من السعداء.

هل توجد في الدنيا مهنة حقيرة؟ لا، وإنما يوجد في الدنيا حقراء، وهم الذين يريدون أكل العيش بلا جهاد.

ثم أما بعد، فهذا درس في الأخلاق التي نرجو أن تسود في هذا الجيل وهو درسٌ أوحته القصة الآتية:

كنت أسير في أحد البلاد ومعي رجلٌ متعلم له وظيفة ملحوظة في الريف، فرأينا جماعة من الفلاحين يجاهدون في نقل «عدّة وابور» مياه. فتَنَهَّدَ ذلك المتعلم وقال: أُنظرُ كيف يشقى الفلاحون!

ثم بالغ في التنهُّدِ إلى أن خفِت على عينيه من الدمع .

عند ذلك قلت : ومن ينقل هذه«العدّة»إذا تخلى عنها هؤلاء الرجال الأشداء؟

فقال : هذه الحكومة تُسَمِّي نفسها حكومة الشعب ، ومع ذلك لا تحمي هؤلاء المساكين من هذه الأثقال .

فقلت : وهل ترى من واجب حكومة الشعب أن تحمي الشعب من الجهاد في سبيل الحياة؟

وطالت اللجاجة بيني وبين ذلك «المتعلم» ، وانتهى الأمر بأن زاد اقتناعه بأني عدو الفلاحين .

لو كان ذلك المتعلم من أرباب الأذواق لوجد في ذلك المنظر فرصةً لنظم قصيدة يمجّد بها النشاط المصري ، النشاط الموروث عن الآباء والأجداد ، فالفلاحون المصريون هم أقوى الفلاحين في الدنيا بلا استثناء ، ولو اشتركوا في مصارعة دولية لكانوا الفائزين .

ما العيب في أن يعاني الفلاحون عرق الجبين؟

وما العيب في ألا يعرفوا غير الفؤوس والمحاريث؟

وما العيب في أن يمشوا حفاة الأقدام؟

وما العيب في أن يكونوا شُعثاً لا زينة لهم غير كرم النفوس؟

هل تعرفون السعادة التي يشعر بها الفلاح وهو يوصي أهله بأن يوقظوه قبل الشروق ليدرك صلاة الصبح؟

هل تدركون فرح الفلاح بقدوم شهر الصيام؟

كان في مصر فلاحة ، وكان فيها فلاحون ، واليوم عرفتْ مصرُ أو عرف بعض كتّابها أن حياة الفلاَح بؤس في بؤس ، وأن الواجب تنبيهه إلى ما خفي عليه من الشقاء والعناء .

أنا عدوّ الفلاح ، ولكن أي فلاح؟

أنا عدو الفلاح الذي يصدّق ما يسمع أو ما يقرأ في التهوين من شأن الريف .

أنا عدو من يجهل نعمة الله عليه ، والله قد أغدق نعمه على جميع الأحياء ، فمتى نشكر الله على نعمه السوابغ؟ ومتى نعرف أننا لم نوفه حقه من الثناء؟

* * *

الحديث ذو شجون

تجميل القاهرة - قطار بور سعيد - قطار الديزل - القيظ في أسيوط المدينة المهجورة - كلمة صريحة إلى أهل أسيوط

تجميل القاهرة:

المعروف أن رجال الهندسة لا يرون من حق رجال الأدب أن يتحدثوا في شؤون هي في الأصل من أعمال المهندسين، ولكني مع ذلك سأسوق ملاحظة تبين أن تخطيط المدن يقوم على قواعد ذوقية قبل أن يقوم على قواعد هندسية، إن جاز الفصل بين الهندسة والذوق!

هل سمعتم حديث «نَفَق شبرا» وقد انتظرناه عدداً من السنين؟

لا أدري كيف سمحنا بأن ننفق في إنشائه ألوفاً مؤلفة من الدنانير، ثم تكون النتيجة أن يبقى جسر شبرا في حالة لا تريح من يسيرون على الأقدام، لأنهم مضطرون إلى استعمال تلك السلالم المتعبة في الذهاب والإياب، بغض النظر عن المتاعب التي يتعرض لها من يريدُ ركوب ترام شبرا وهو في ميدان باب الحديد.

منشأ هذه المضجرات أننا أردنا أن تكون محطة القاهرة محطة واحدة، وكان يجب أن تكون فيها محطة لقطارات الشمال ومحطة لقطارات الجنوب، ولو فعلنا ذلك لظفرت القاهرة بميدان جديد، ولكان من السهل أن تُرفع متاعب من يتجهون إلى شبرا، وهي اليوم منطقة تموج موجاً بالسكان، وستكون مصدر نشاط صناعي واقتصادي في المستقبل القريب.

(*) مجلة الرسالة، ١٧/ ٥/ ١٩٤٣.

يجب أن نبادر إلى رفع جسر شبرا، وأن نفصل محطة الشمال عن محطة الجنوب، وهذا لا يمنع من بقاء الطريق الذي تمرّ به قطارات البضائع، وهي قليلة العدد، وأغلبها يمرّ بالليل، فلا يعرقل حركة المرور إلا في لحظات لا يُحسب لها حساب.

* * *

لقاء القاهرة:

خطر في البال هذا الخاطر وأنا أمتطي قطار الديزل إلى الصعيد في عصرية الخميس الماضي، ثم خطر في البال أيضاً ما تعاني المنطقة التي يمر فيها قطار الصعيد بين باب الحديد وجسر أمبابة، وهي منطقة لا تقع فيها العين على منظر جميل، لأنها من ذيول بولاق، وكان الظن أن نفهم أنها أول ما يرى القادم على القاهرة من ناحية الصعيد.

منذ ثلاث سنين كتبت كلمة في مجلة الرسالة أدعو فيها إلى تجميل مدخل القاهرة في نظر القادم من الإسكندرية أو بور سعيد، فما استمع مستمع ولا استجاب مستجيب، وأنا اليوم أعجب من أن تبقى منطقة بولاق على ما كانت عليه قبل التمدن الحديث، مع أن لبولاق تاريخاً من أعظم التواريخ، فهي التي أنشأت المدافع لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وفيها أقيمت أول مطبعة لإحياء المؤلفات العربية والإسلامية. وهل في العرب من لا يدين لمطبعة بولاق، ولو كان في أقاصي الصين؟

* * *

قطار بور سعيد:

الواقع أننا لا نفكر في خلق الجاذبية في صدور من يفد على الديار المصرية ... هل تعرفون شيئاً عن قطار بور سعيد؟

وهل تصدقون أن أجرة الباخرة من مارسيليا إلى الإسكندرية أرخص من أجرة المثل في السفر من مارسيليا إلى بور سعيد؟

لذلك أسباب، ولكني أحب أن أجعل قطار بور سعيد من أهم الأسباب.

هو قطار سخيف، وهو لسُخْفِه يجهل أنه يقاسي زوابع الصحراء نحو ساعتين، فليس بالدرجة الثانية ستائر تمنع هجوم الرمل والتراب. أما الدرجة الثالثة فطعام ركابها عَجَاج في عَجاج.. ويا ويل من يركب قطار بور سعيد وهو خفيف الجيب!

وبهذه المناسبة أذكر أن الدرجة الثانية بقطار الصعيد ليس فيها مراوح، فماذا يصنع الركاب في وهج الصيف، إذا كتب عليهم أن يصطلوا القيظ بين الأقصر وأسوان؟

شيئاً من الرحمة، يا مدير سكك الحديد، فقد سمعت أنك من الرحماء؟

وما حال المقصف الذي يوجد في بعض القطارات لا كل القطارات؟

هو محرم على ركاب الدرجة الثالثة تحريماً قاطعاً، وقد يكون فيهم من يحتاج إلى تناول الطعام في مكان مريح ليدفع مشقة السفر وهو قطعة من العذاب.

يا ناس، يا ناس، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء!

* * *

قطار الديزل:

سُمِّيَ باسم المخترع Deisel وهو ألماني الأصل، وليس بقطار الديزل مقصف، مع أنه خاص بركاب الدرجة الأولى والثانية، ومع أنه لا يقف إلا في محطات قليلة، وهو حين يقف لا يتمكث غير دقيقة أو دقيقتين.

بهذا القطار حنفية تجود بالماء لمن يقبل الجود من الأشحاء، وما قيمة الجود بماء لم يسمع بأخبار الثلج، ولا يعرف الطريق إلى تنسُّم الهواء؟

جرّبوا السفر بهذا القطار بعد الظهر في مثل هذه الأيام وفي طريق الصعيد، لتعرفوا كيف يبخل القطار على ضيوفه الأعزاء بكمية من الماء المثلوج لا تتكلف خمسة قروش.

وقف الديزل في محطة بني سويف، فتصايح الركاب يطلبون من الباعة إمدادَهم بأكواب الليمون، ليبتلعوها في مثل ومضة البرق، ويقوم القطار قبل أن يتناول المسافرون ما يخفف وقدة الظمأ، وبعد لحظات يقف القطار، وننظر فنعرف أنه وقف إكراما لصاحب «بوفيه المحطة» وكان بقي في القطار إلى أن يتسلم ما له عند المسافرين من نقود!

فما الذي يمنع من أن يقف القطار بالمحطة نحو ثلاث أو خمس دقائق، ليستغني عن هذا التلطف في معاملة صاحب البوفيه، وليضمن راحة المسافرين من بعض هذا العناء؟

أيكون من الصعب إمداد ثلاجة القطار بزادها من الثلج، ولو بإضافة زيادة على أثمان التذاكر؟

أما بعد، فهذه شؤون تبدو من التوافه في نظر بعض الناس، ولكنها شؤون على جانب من الأهمية، والاهتمام بها قد يغيّر ما درجنا عليه من الغفلة عن تذوق الحياة.

وهل كان البدوي الذي يعاني متاعب السفر في البيداء أشقَى من الحضري الذي يمتطي قطار الديزل، وهو على ما وصفت؟

لقد ظمئت بهذا القطار ظمأ لم أشعر بمثله وأنا أخترق البادية من دمشق إلى بغداد، لأن مطية نيرنْ تفكر فيما لا تفكر فيه مطية ديزل، ولأن الشركات تصنع في ملاطفة الزبائن مالا تصنع الحكومات ... وما أحب أن أزيد!

* * *

القيظ في أسيوط:

دخلتُ أسيوط وقد انتصف الليل أو كاد، فرأيتها في حال من القيظ لا تطاق، فماذا صنعت الأيام بجوّ هذه المدينة الفيحاء؟

إنهابعيدة من النيل بعض البعد، فكيف أنشئت على هذا الوضع، وما كان لمدينة مصرية أن تُنشأ إلا على ضفاف النيل؟

كانت أسيوط في الأصل على شاطىء نهر يجاورها من الغرب، نهر يساير الجبل من الجنوب إلى الشمال، وقد انطمر هذا النهر، ولم يبق ما يدل عليه غير بقايا من قناطر محطمة كان لها شأن فيما سلف من الزمان.

وكان بأسيوط برك واسعة، كالبرك التي كانت بالقاهرة، من أمثال بِرْكَةِ الأزبكية وبركة الرطلي وبركة الفيل.

والبِركة كانت كلمة مقبولة في الأيام الخوالي، ولها في أشعار البحتري مكان، وقد أخذتها اللغة الأسبانية عن اللغة العربية، وابتذال هذه الكلمة جديد في حياتها اللغوية، فهي اليوم ترادف كلمة المستنقع، ومن هنا قيل: «بطينة ولا غسيل البِرك».

البركة قديماً هي اليحيرة، والبحيرة تصغير بحرة مؤنث بحر، والبحر في أصل اللغة هو مجتمع الماء الغزير، بغضٍّ النظر عن العذوبة والملوحة، فما يخطىء المصريون في تسمية النيل بحراً، مع أنه عذبٌ لا أُجاج.

وأقول: إن البرك التي كانت بالقاهرة وأسيوط هي بحيرات، فقد كانت تأخذ مَددها من النيل في أيام الفيضان، ثم يَبرُك فيها الماء بعد انحسار الفيضان، فهي بركة من أجل هذا، إن صح هذا التخريج، وهو صحيح.

كانت بِركُ القاهرة كثيرة المنافع، فقد كانت مجالاً لنزهات الأصيل والعشيات في السفائن اللطيفة، وكانت منادح لتوالد الأسماك، وكتلك كانت برك أسيوط، وإن لم يسجل الأسيوطيون بِركهم في الأشعار كما صنع القاهريون.

والذي يهمني في هذا المقام هو النص على أن برك أسيوط طُمِرت كما طُمر النهر الذي كان يساير الجبل، وهذا من أسباب عنف القيظ في أسيوط.

لقد حاول عبد السلام الشاذلي باشا تحويل تلك البرك إلى حدائق، فتم له ما أراد في بركة واحدة، وبقيت البرك الأخرى في حال من الجفاف تزيد وَقْدَةَ القيظ.

أنا أعرف أن من العسير نقل أسيوط إلى شاطىء النيل في سنة أو سنوات، فلم يبق إلا أن نقترح المبادرة إلى تزويدها بالحدائق الكثيرة ليخف عذابها بلوافح الصيف.

* * *

المدينة المهجورة:

هي مدينة أسيوط، فقد زهد فيها كبار أهليها من المسلمين والأقباط، وكادت تفقد اللقب الذي يجعلها عاصمة الصعيد.

ومن يصدِّق أن أسيوط كانت قبل عشرين سنة أنضر مما هي اليوم؟

ومن غريب ما لاحظت أن أسيوط أقل الحواضر المصرية مسايرةً للحياة الأدبية، ولولا الرعاية لحق هذه المدينة لقلت: إنها لا تعرف من مطبوعات القاهرة بعض ما تعرف دمشق أو بيروت أو بغداد.

هل تتغير هذه الحال بإنشاء الجامعة الثالثة جامعة أسيوط؟

إن الجلال السيوطي وهو أشهر من مَجَّدَ اسم أسيوط في العهد الإسلامي لم يتخذ هذه المدينة دار مقام في الحياة ولا بعد الممات، فهل كان يعرف زهدها في المجد العلمي والأدبي؟

* * *

كلمة صريحة إلى أهل أسيوط:

في أسيوط وحدها يمر يوم وأيام بلا مَدد من الجرائد والمجلات، فكيف يقع ذلك ومدينة أسيوط هي الثالثة أو الرابعة بين كبريات المدائن المصرية؟

اتقوا الأدب في مدينة كان لها في الأدب تاريخ.

عزيز عَلَيَّ أن أقول في أسيوط كلاماً كالذي قلت، ولكن ماذا أصنع وأنا موقن بأنها أقل اهتماماً بالأدب من حواضر السودان، وبيننا وبينه أبعادٌ طوال؟

* * *

الحديث ذو شجون

حياة أسيوط - الدفع مقدما ...

حياة أسيوط:

كان من المنتظر أن يتأذّى قومٌ من الكلمة التي كتبتها عن أسيوط، وفي دفع تلك الكلمة تلقيت خطابين كريمين، أحدهما من الأستاذ أحمد فتحي القاضي المحامي، والثانية من الآنسة «ليلى» فماذا أقول في مناقشة هذين الخطابين؟

أذكر أولاً أن لي غاية من التَّجنِّي على أسيوط، فأنا أريد التنبيه على أن هذه المدينة لا تأخذ حظها من الاهتمام الواجب لمدينة في مثل مكانتها التاريخية. وأنا أريد أيضاً تأييد الرأي الذي يقول بإنشاء جامعة في أسيوط لتسترد المدينة حيويتها العلمية والأدبية. وهل ينكر أحدٌ أن من واجب الكاتب الوطني أن يدعو قومه إلى المبادرة بتزويد الحواضر الكبيرة بأزواد العلوم والآداب والفنون؟

إن أكابر أسيوط يهجرونها طائعين، رغبةً في الحياة القاهرية، حياة السيطرة على المجتمع السياسي، وأنا أحب أن تعيش العصبيات الإقليمية على نحو ما كانت عليه قبل سنين، وأتمنى أن يرى الرجل في بلده من قوة الذاتية ما يغريه بالزهد في صوت القاهرة الصخّاب.

وتقول الآنسة «ليلى»: إني لو درست حياة أسيوط بعناية لأدركتُ أنها أعظم من سنتريس.

وأقول: إن البلاد تحيا بحب أهليها، وأنا أحب بلدي بأكثر مما يحب الأسيوطيون بلدهم الجميل.

(*) ٣١/ ٥/ ٤٣.

حدثني أحد أساتذة الكلية الأمريكية بأسيوط قال: إن الكلية دعت معالي الأستاذ نجيب باشا الهلالي ليكون خطيب الحفلة الختامية في هذه السنة، فتفضل بالقبول ثم اعتذر بعد ذلك.

فقلت: الكلية لم تراع ظروف الخطيب، فإن الهلالي باشا نفسه حدثني أنه لم يَزُرْ أسيوط منذ عشر سنين، ومن المؤكد أن هذه المدة الطويلة مرّت فيها مناسبات تفرض عليه زيارة وطنه الأول، مناسبات عائلية في الأفراح أو الأتراح، فكان يكتفي بالبرقيات في التهنئة أو العزاء، فمن العسير عليه أن يعود في مناسبة وقتية لإلقاء خطاب يستطيع إرساله بالبريد إن أراد.

وأعجب ما في هذه القضية أن للهلالي باشا مصالح في أسيوط تعطلت بسبب انصرافه عن زيارة تلك المدينة، فله دار فخيمة تعرّضت للتصدع بسبب هذا الانصراف.

قلت لصاحبي وأنا أحاوره: هل تعرف أن للديار أرواحاً يؤذيها الجفاء؟

فقال: المعروف أن الديار مجموعة أحجار وأخشاب، فهي جمادات لا تتأثر بالهجران.

قلت: هذا وهمٌ في وهم، فالديار تتأذّى بالهجر كما يتأذّى الأحباب، وليس في الوجود كائنٌ بلا روح، ولو كان في الاصطلاح من الجماد.

يستطيع الهلالي باشا أن يعتذر لداره بالشواغل التي تصدُّه عن زيارة أسيوط، ولكن لي رأياً آخر، هو أن نجعل زيارة دورنا بالأقاليم النائية من شواغلنا الأساسية، فلتلك الديار حقوق، وهي أيضاً من ضمائر الوطن الغالي.

وبماذا يجيب الهلالي باشا لو دعوته إلى بناء دار بأم درمان أو الخرطوم؟

لو التفت هذه الالتفاتة لكان من السهل عليه أن يخلق لمصر صداقات جديدة في السودان.

بإحدى المحاضرات الافتتاحية في الكولليج دي فرانس ألقى علينا المسيو ماسّينيون محاضرة من مشاهداته في إيران، وبعد المحاضرة سألته عن السبب في كثرة أسفاره إلى إيران، فأجاب: ألا تعرف أن لي داراً هنالك؟

وفي مقابل هذا أذكر أن كبيراً من كبرائنا باع أملاكه في بلده لتكون ثروته في القاهرة، عساه يشرف عليها بلا عناء.

ومع هذا يعاب عليّ أن أقول: إن أكابر أسيوط يهجرون أسيوط!

يجب أن نقول ونقول ثم نقول بأن الإقبال على الحياة القاهرية سيؤذي الأقاليم المصرية أشد الإيذاء.

هذا مع أن النيل يرشدنا إلى الواجب في كل لحظة باختياره الموفّق لأطايب البقاع، ولو سايرْنا النيل في هواه لكان عندنا مئات من غُرر البلاد.

وهل ننسى أننا لم ننشىء مدينة جميلة في «القناطر الخيرية» وهي بقعة لا نظير لها في أي أرض؟

وقطار الإسكندرية يمر بنا على مدينة اسمها «كفر الزيات» على موقع من أجمل مواقع النيل، فما تلك المدينة؟ ومتى تخطر في البال؟

والنيل بين زفتَى وميت غمر على جانب من العظَمة الطبيعية والجمال الأصيل، فأين مَنْ فكر في الاستظلال بتلك العظمة وذلك الجمال؟

إن الحمائم والعصافير تعرف من سرائر بلادنا ما لا نعرف. ألم أحدثكم مرة أن لها مغاني في أكثر البقاع المصرية؟

لكل مكان في مصر روح وأرواح، وبلادنا نشأتْ أولَ ما نشأت على فطرة الاستقلال، فقد كان لكل قطر من أقطار مصر سيادة محلية، وكان بكل قطرٍ من أقطار مصر سادة يتعالون باسم الشرف والجود، فكيف نحوّل هذه القُوى إلى بُقعةٍ واحدة هي البقعة القاهرية؟

هل نتعزَّى بأن يقال: إن القاهرة أعظم مدينة في الشرق ونحن نعرف أنها تجني على الحواضر المصرية بغير حق، كما تجني أسيوط على منفلوط؟

وهنا يجيء حديث المناطق في وزارة المعارف، وقد سمعت أن نظام المناطق في طريق الإلغاء.

وأقول بصراحة: إن أول وزارة عرفت نظام المناطق هي وزارة الداخلية، وهي لا تستطيع التخلي عنه بأي حال، لأنه أفضل الأنظمة في صيانة الحياة الداخلية، ولأن المشرفين عليه كانوا السبب في تنظيم حواضر البلاد.

وإذا استطاعت وزارة المعارف أن تمنح ممثليها بالأقاليم قوة تشبه القوة الممنوحة لممثلي وزارة الداخلية فستظفر الأقاليم بإصلاحات قائمة على أساس الفهم والذوق، وقد تفك الحصار المضروب على رجال التعليم، وهم رجال عوّقتهم الظروف عن تحقيق ما يريدون في إصلاح الأقاليم.

هل يعرف أحد كيف يجوز أن يكون ممثل وزارة الداخلية هو الرجلَ الأول في المديرية، ولا يكون مثل هذا الحظ لممثل وزارة المعارف؟

نحن إخوة، فكيف نفترق في الواجبات ولم نفترق في الحقوق؟

ما الذي يمنع من إعطاء مدير التعليم فرصة الإصلاح الممنوحة لمدير المديرية؟

أنا أوجه القول إلى وزير المعارف، وأسأله برفق عن تعطيل مواهب رجال التعليم في الأقاليم، وفي مقدورهم أن يخدموا الإصلاح خدمات عظيمات؟

لقد اقترحت أن يكون وزير المعارف هو الوزيرَ الأول، ليكون المعلم هو الرجلَ الأول، فهل كنت في هذا الاقتراح من المسرفين؟

إن كان ذلك فأنا أطالب معالي وزير الأشغال بأتعابي، وقد وجهت إليه كلاماً عن «نفَق شبرا» يستحق ألوفاً من الجنيهات، فليدفع الأتعاب قبل أن أقاضيه بمحكمة مصر الجديدة... وهل في مصر الجديدة محكمة أهلية؟

هذا إشكالٌ جديد، وسأخاصم فيه وزير العدل بعد حين!

ثم ماذا؟ ثم يبقى القول في رد ما جاء بالخطابين الكريمين، خطاب ابن منفلوط، وخطاب بنت أسيوط، فإلى اللقاء!

* * *

الدفع مقدّماً...!

من العبارات المألوفة في البيع والشراء عبارات: الدفع مقدّماً، والدفع فوراً، والدفع بالتقسيط.

والمفهوم أن الدفع مقدماً أدل على النفاسة من الدفع فوراً، أما العبارة الثالثة فهي شاهدة بهوان المعروض، وكل معروض مهان.

ولكن ما الرأي إذا كان التقسيط من تلطف البائع، لا من هوان المبيع؟

(*) مجلة الرسالة ٣١/ ٥/ ١٩٤٣.

ما الرأي إذا كانت السِّلعة المبذولة غنيمة وجدانية لا تقوَّم بالمال، وإنما تقوّم بقصيدة أو مقالة تؤخذ أقباسها من لهيب الروح؟

ألا يكفي أن تصبح ذمة الكاتب والشاعر في غنى عن الضمان؟

سأرى كيف أصنع في سداد الديون بالتقسيط . ولعلني أسارع ليكون من حقي أن أطمع في غنائم جديدة من غنائم الوجدان، في المدينة التي قال فيها أحد الشعراء:

ولا عيبَ فيها غير أن نسيمَها
يزيد سَعِيرَ القلب وقداً إلى وَقدِ

* * *

الحديث ذو شجون

مقاومة التدخين:

في العام الماضي قام الدكتور شخاخيري بتأليف رابطة لمقاومة التدخين، ومضى يستهدي المفكرين والمؤلفين والوزراء كلماتٍ في استنكار التدخين. ولم يكتف بذلك، وإنما اندفع فنظّم سلسلة محاضرات في «دار الحكمة» دعا إليها أشهر المحاضرين ليقاوم آفة التدخين.

والدكتور شخاخيري رجلٌ مخلص، ودعوته هذه تستحق التأييد، ولكنها معرّضة لأخطار سأنص عليها في هذا الحديث لأهدم الأساس الذي قامت عليه، ولعل الله يتفضل فيكتب لي النفع مما تعلمت، لأنني مع الأسف من المسرفين على أنفسهم بالتدخين.

شاع وذاع أن الدخان يشحذ الفكر، ويوقظ الذهن، ومن أجل هذا كثر المدخنون من الشعراء والكتّاب والسياسيين، حتى صار من المألوف أن نرى صور الساسة والوزراء وفي أفواههم السجائر النحاف أو السمان، وحتى صار من العسير أن نتصور شاعراً أو زعيماً خلت حياته من عبق الدخان.

لن أقف موقف الواعظ في دفع هذه الآفة، ولكني سأقف موقف المؤرخ، ثم أترك الحكم للقراء فيما سأسوقه من البينات.

أول أمة عريقة في التدخين هي أمريكا القديمة، أمريكا الأمريكية، لا أمريكا الأوربية، أعني أمريكا التي سبقت عهد كولمبوس، وسبقت عهد الاتصال بالأوربيين والأسيويين.

(*) مجلة الرسالة: العدد ٥٠ في أول فبراير / ١٩٤٣.

فما الذي استفادت أمريكا القديمة من التدخين؟ هل فتق أذهان أهليها إلى ألوان من الفكر والعقل والبيان؟ هل جعل لأهليها ماضياً في رفع دعائم الحضارة الإنسانية؟

كلا، وإنما تركها التدخين أمةً بلا تاريخ.

وأقدم الأمم في رفع راية العقل هم المصريون والبابليون واليونانيون، فهل عرف هؤلاء التدخين حتى ننسب رقيهم إلى هذا المرض الفظيع؟

وهل عرف العرب التدخين حتى نرد السبب في تفوقهم إلى الدخان؟

هل دخن الجاحظ والغزالي وابن رشد والبحتري والمتنبي وأبو فراس؟

أترك التاريخ القديم، وأذكر شواهد قريبة جداً من تاريخ مصر الحديث:

أعظم كاتب سياسي بإجماع الآراء هو المرحوم عبد القادر باشا حمزة، ولم يكن يدخن أبداً، وما أذكر أني رأيته طلب فنجان قهوة في أي وقت وهو يكتب أصعب المقالات.

ومن عظماء كتابنا الأستاذ الزيات والأستاذ العقاد، وهما لا يعرفان التدخين. وهذا كلام لا يكاد يصدقه القارىء، ولكنه الواقع، ولا حيلة في إنكار الواقع[١].

ولو أن الله أراد أن أنتفع بما تعلمت لتذكرت أني ألفت كتاب «الأخلاق عند الغزالي» وكتاب «النثر الفني» قبل أن أعرف التدخين، فمتى أنتفع بما تعلمت؟

أما بعد! فقد دعاني إلى كتابة هذه الكلمة حوادث أغضبتني، لأن فيها دعاية إلى التدخين، وهو مرض يفتك بشبان هذا الجيل.

الحادث الأول: في الأسبوع الماضي وقف الأستاذ زهير صبري يستجوب الحكومة في مجلس النواب عن تسعير الحاجيات الضرورية، فلما وصل إلى السجائر قال: إن السجائر قد غلت مع أن «كيف» القهوة والشاي لا يحلو إلا بسجارة (؟!) فهل فاته أن في هذا الكلام إيحاء بأهمية السجائر في الحياة اليومية.

الحادث الثاني: في الأسبوع الماضي أيضاً «تفضلت» الإذاعة اللاسلكية فأذاعت أغنية تنطق بفضائل السجائر، أغنية منقولة عن أحد الأفلام السينمائية.

---

(١) عرفت أخيراً أن الزعيم الوطني مصطفى باشا كامل لم يعرف التدخين.

وأنا سأثبت هذه الأغنية في هذا الحديث لغرض واحد: هو تأريخ الحياة الأدبية، فما يجوز لمؤرخ الأدب أن يترك شيئاً بلا تقييد، ولو كان في الدعوة إلى الدخان. وسأدعو الإذاعة اللاسلكية بعد ذلك إلى التفرقة بين جو الرواية وجو الغناء.

عنوان الأغنية «خذ سجارة وهات سجارة» وهي من الشعر الملحون:

السجارة في الحياة زيي أنا

تِتْحرق وتضحّي روحها لأجل غيرها

عمرها في الدنيا ما شافت هنا

تحيا بين النار عشان يرتاح ضميرها

خد سجاره، وهات سجاره

السجاره إن كنت يوم حتْدوق حنانها

تلقى نفسك في حياة غير الحياهْ

تلقى طِيف اللي تحبّه بين دخانها

لما فكرك يبقى سارح في هواه

خد سجارة، وهات سجاره

أنت زعلان؟ خد سجارة، خدها مني

يا لّله ولّعها واطفي الشوق بنارها

أنت تبقى في جوّها عايش مهنِّي

والسجارة تبقَى زيي في مرارها

خد سجاره، وهات سجارة

السـجـارة لما تيـجي وتواسـيك
تنكوي بنارك ومن شـوقك تبـوسـهـا
هي بتْصـون الجـمـيل حـرام عليك
بعـد مـا تحـرقـهـا بالأقـدام تدوسـهـا
خـد سـجـاره، وهات سـجـاره

وهذه القطعة قوية جداً في الإبانة عن الغرض الذي نُظِمَت فيه، ولكن محطة الإذاعة تنسى أن ما يبيحه جو الرواية لتصوير إحدى الحالات النفسية لا يباح عرضه على جماهير بريئة يؤذيها الإيحاء بجمال الدخان.

جو الرواية المسرحية أو السينمائية قد يدعو إلى تجميل إحدى الرذائل، ولكنه قد يسوق بعد ذلك عبرة تقتل السمَّ الذي بثه المنظر الأول، وبهذا يتعادل النضال بين السم والترياق.

فما عذرُ محطة الإذاعة في أن تبثّ داءً بلا دواء؟

الحادث الثالث: رأيت في أحد الأفلام ممثلاً يدخن بإسراف، مع أنه صديق أعرفه منذ سنين، وهو يبْغض الدخان، فلما سألته عن السبب، أجابني بأن الأفلام المصرية تجعل الناس جميعاً مدخنين فما هذا الذي نرى؟

أنُزَوِّرُ الحياة المصرية لتشابه الحياة الأمريكية؟

أنكذب على الواقع في سبيل الفن، مع أن غاية الفن هي أن يُجَسِّمَ المحاسن والعيوب، حين يراد به تهذيب الأخلاق؟

اللهم حوالَينا ولا علينا!!

* * *

(*) الرسالة ١/ ٢/ ٤٣

الفصل التاسع
أدب الشواطىء

أدب الشواطيء

كما اهتم أديبنا الدكتور زكي مبارك بالحديث عما أسماه «أدب المعاش» تحدث أيضاً عما أسماه «أدب الشواطيء»... وقد جمعتُ مادة كتاب «أدب الشواطيء» وتعوزني النقود لطبعه... والآن لنعش مع بعض ما كتبه زكي مبارك عن أدب الشواطيء على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٦/ ٤/ ١٩٤٧ .

يقول :

«البلاد المصرية بلاد بحرية ، لأنها تقع على بحرين عظيمين : البحر الأبيض ، والبحر الأحمر ، وهذا يوجب توجيه قرائح الشعراء إلى وصف البحار وما فيها من جمال يفتن العقول ويشوق القلوب ، ومع ذلك فثروة الشعر المصري قليلة في هذه الناحية ، مع الاعتراف بأن للشاعر علي محمود طه قصائد جيدة في وصف الحياة البحرية ، وكذلك الشاعر عبد اللطيف النشار ، والشاعر عثمان حلمي .

بعد رجوعي من بغداد في سنة ١٩٣٨ ، رأيت أن أقضي أياماً في الإسكندرية أشهد فيها ملاعب الجمال فوق الشواطيء ، وأتذكر العهد الذي قلت فيه قصيدتي بعنوان : «بعد فراق الشاطيء» رداً على قصيدة الشاعر «أحمد زكي أبو شادي» بعنوان «العودة» ... » .

وقد نظمها الدكتور أبو شادي في قطار البحر عائداً من الإسكندرية في صحبة صاحب ديوان «ألحان الخلود» - يقصد نفسه - مساء ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٣ وأهداها إليه .

يقول الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي في قصيدته :

العودة

وداعــاً للرمــال وللمــغــاني ... وداعــاً للمــلاحــة يا صـديقي!

أتذكـر كـيف كـان الموجُ يجـري ... كما يجري الشقيقُ إلى الشقيقِ؟

وقــفنا في جــوارِ اليمِّ سَكرَى ... كـسكْرُ الناظرين إلى الرحـيق

نرى في البــرِّ ألوان التناجي ... وفي البـحرِ المشارفِ والعـميقِ

كــأن الحــسْنَ ذاب بكلِّ لونٍ ... نراه في الميــاهِ وفي الطريقِ

سكرنا سكرة الحـرمــانِ حـتى ... كـلانا كـالأسـيـرِ وكـالطليقِ

وهـذا الجـــــوُّ يملؤه حنانٌ ... ولـو أن الغــروبَ مِن الحـريقِ

وأُبنـا أوبـةَ المهـــــزومِ لكـن ... بنا طربٌ من الأدب الحقيقي!

* * *

وحين مضى القطارُ يقلُّ وجدي ... ووجـدكَ كـالرفـيقِ من الرفـيقِ

رأينا الحــسنَ وثّاباً جــريئــاً ... يحـاصـرُنا كـأحـلام العـشـيقِ

فـعـوَّضنَا من التبـريحِ صـفـواً ... ومِن صُوَرَ الخـشـونةِ بالرقـيقِ

وأضـــحكَنا مِن السَّفَرِ المواتي ... بـألوانِ الأثـاثِ وبـالـزعــيقِ

رمــوْه خنادقــاً وقــلاعَ حَرْبٍ ... فـصـار مَدَى الطريقِ من المضيقِ

وذا طَسْتُ الغسيلِ يُداسُ حتى ... يزمـجــرَ بالـرعـودِ وبالبــروق

وتمضي الغــانيــاتُ على تثنٍّ ... تثنِّي النُّورِ في الجـوِّ الصـفـيقِ

فـسـبـحـانَ المكافيء والمعـزِّي ... ومــا أدنى الرجــاءَ بكلِّ ضـيق

لقــد عُدنا بقــهــقــهــةٍ وأنسٍ ... وأحــلامِ الرَّشــاقــةِ والرشـيق!

أبو شادي

وردّ صاحب ألحان الخلود أي الدكتور زكي مبارك بعد شهر من ذلك التاريخ على الدكتور أبي شادي فقال تحت عنوان :

بعد فراق الشاطىء

أبا شادي، وأنت فتىً طَروبٌ ... أسيرُ العين في قلبٍ طليق
تُذكِّرني؟ وهل أُنسيتُ يوماً ... جَمالَ اسكندريَّةَ يا صديقي؟
وكيف؟ وفوقَ شاطِئها المندَّى ... يحومُ القلبُ مَوصولَ الخفُوق

* * *

رعاه الحبُّ مِن شطٍّ جميلٍ ... خفيفِ الروحِ مصقولٍ أنيق
بهيِّ الرمل تحسبُه سُجُوفاً ... مُطرَّزَةً بحبَّاتِ العقيقِ
أطوفُ به فيغلبني خشُوعي ... كأني طُفتُ بالبيت العتيقِ

* * *

أيا حَرَمَ الظباء أنرتَ روحي ... بمشكاةٍ من الحُسنِ الرفيقِ
يراكَ الأكمهون(١) حِمىً مباحاً ... يذكِّرهم بأسواقِ الرَّقيقِ
ولوْ كُشِفَتْ غِشاوتهم لقالوا ... صبايا الخلدِ تسبح في الرحيقِ!

* * *

رَجَعْتُ إلى الشواطىء بعد شهر ... أَشقُّ إلى الملاحِ بها طريقي
فألفيت الخريفَ جنى عليها ... جنايَتهُ على الدَّوح الوريقِ
وعدْت مروَّعَ الأحلامِ أشكو ... -ولمَّا أصْحُ- صرَعَاتِ المفيقِ

زكي مبارك

---

(١) الأكمهون : مفردها : أكمه، والأكمه، هو من وُلِدَ أعمى.

ويمضي فيقول:

«ثم شرعت في تأليف كتاب اسمه «أدب الشواطىء» وأعلنت عنه في مجلة الرسالة، ولكن الحرب دهمتنا فلم يعد من السهل أن أصطاف بالإسكندرية، وما كنت أزور الإسكندرية في أعوام الحرب إلا في مهمة رسمية يوجبها عملي بوزارة المعارف وتلك مهمات موسمها فصل الشتاء.

ولكن فكرة «أدب الشواطىء» التي أذعتها في مجلة الرسالة سنة ١٩٣٨ وجدت مكانا في صدر أحد الشبان وهو الشاعر مصطفى عبد الرحمن، فقال في الشواطىء عدداً من القصائد الجياد.

تحت يدي ديوان نفيس اسمه «ليالي الشاطىء» والقصائد التي في هذا الديوان ليست جميعاً في الشاطىء، فهي موزعة بين أغراض مختلفة النوازع، ولكن أهمها ما جاء في الشاطىء، ومن هنا كان اسم الديوان، ولنقرأ هذه القطعة الحزينة للشاعر مصطفى عبد الرحمن:

أنكر الشطُّ وجودي حينما سرتُ عليه

وتناسى كل عهد صانه قلبي لديه

أكتفي بهذا وأقول في عبارة صريحة: إن هذه الباكورة تشهد بأن صاحبها من نوابغ الشعراء».

ولشاعرنا زكي مبارك قصائد عديدة عن الإسكندرية عروس البحر المتوسط ... وقد جمعتُ بعضها في ديوان تحت عنوان «شط إسكندرية»، ويضمها مع بقية قصائده عن الإسكندرية كتابه «أدب الشواطىء» ...

كما كتب أديبنا الدكتور زكي مبارك كثيراً عن الإسكندرية وعن ليالي الإسكندرية وبحر إسكندرية ... وعن أدباء وشعراء الإسكندرية ... يقول على صفحات جريدة البلاغ اليومية بتاريخ ٢٢/ ١٠/ ١٩٤٦:

«أول عمل أقوم به حين أدخل الإسكندرية هو شراء الورق ... دخلت المكتبة فقابلني مديرها ومعاونوه بالترحيب، وقالوا: نحن ننتظر مقالاتك في البلاغ بشوق شديد، فقلت: هذا يسرني، وأنا أستمد نشاطي من قرائي، والأدب مطلوب، وهو غذاء الروح. فيقول مدير المكتبة:

«ولكنه مع الأسف مقصور على فئة قليلة» قالها بحرارة.

كان بين الحاضرين رجل إسكندراني لا أعرفه فقال:

أجب يادكتور؟

فقلت: أجاب الشاعر الذي قال قبل أجيال:

أمَا تَرَى صَحْنَهُ صُفَّتْ فواكهُهُ
لِلتِّينِ قومٌ وللجُمَّيْزِ أقوامُ

فقال الأديب السكندراني: هذا هو الجواب.

فقلت: الناس يحتاجون إلى بائع الفول المدمّس قبل أن يحتاجوا إلى كتاب مفيد، فهل ترى أن نشتغل جميعاً ببيع الفول المدمس، وأن نصير جميعاً فوالين؟

كانت أيام الحرب أقسى الأيام التي عانيتها في حياتي، فقد كنت أفتش أكثر من عشر مدارس بالإسكندرية والغارات تثور من ليلة إلى ليلة، وكان يجب أن آوي إلى بيتي قبل الغروب، ولكن كيف أمضي الليل الطويل بالاعتكاف؟ أقضيه في كتابة مقالات لمجلة الرسالة، ولكن أين الورق؟

كان الورق انعدم في الإسكندرية بعد أن كان يباع بتراب الفلوس، وفي إحدى العصريات وأنا أبحث عن الورق الذي أقضي في تسويده تلك الليالي السود وقف أحد الشبان في وجهي ليقول: تعرفني يا دكتور مبارك؟ أنا تلميذك بالليسيه فرانسيه... التلميذ الذي كنت تسجنه في أيام الآحاد لينجز ما قصر في إنجازه من الواجبات.

الآن تذكرتك.

تعال معي.

إلى أين؟

إلى مكتبتي يا دكتور.

ومضيت معه إلى مكتبته، فقدم إليّ كراريس من الورق اللطيف، فقلت: إنك تعرف يا تلميذي العزيز أني لا أقبل شيئاً بالمجان، فما ثمن هذه الكراريس؟

فقال: أنا تاجر ورق، وأنا أقدم عينات إلى الزبائن بالمجان، فأنا لا أهدي إليك شيئا وأنما أقدم عينات.

ثم تفضل فأوصلني بسيارته إلى بيتي ليطمئن على حياتي في أيام كان من يسير فيها بعد الغروب معرضا للموت.

إن أهلنا في سنتريس يقولون: «كله سلف ودين» فوفائي لأساتذتي هو السبب في وفاء تلاميذي، وتلاميذي كلهم أوفياء.

إنهم يحبونني أصدق الحب، والتلميذ له عينان، فإذا كان في الصف ثلاثون تلميذا فهم ستون عينا، وتلك العيون جميعاً تراقب الأستاذ، وهي تحبه إذا كان يتعب في تحضير الدروس، فما في الدنيا تلميذ يطيب له أن يخيب ولو كان من أشقى التلاميذ.

كان رأيي أن سقوط التلميذ عيب في وجه الأستاذ قبل أن يكون عيبا في وجه التلميذ».

أيضاً وعلى صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ٣/ ٦/ ١٩٤٧ يقول زكي مبارك تحت عنوان (أدباء الإسكندرية):

«أنا أعرف كيف ألقاهم وأفرح بلقائهم أضعاف ما يفرحون بلقائي، ولكنني مأخوذ بقول أبي العلاء:

لو اختَصَرْتم من الإحسان زرتكمو
والعذبُ يُهجر للإفراط في الخَصَرِ

فهذا يريد أن أتغدى في داره، وهذا أن أتعشَّى معه، وثالث أن أكونَ ضيفه في البوريڤاج.

إنها مكارم تفوق الوصف، ولكن لي شواغل تشغلني عن نفسي وهي الخلوة إلى قلمي.

آداب الإسكندرية عظيمة جدا، وهم بآدابهم يصورون عظمة الأخلاق العربية الإسلامية.

إن الحزن يعتصر قلبي حين أتذكر أنني أفارق الإسكندرية ولم أسمر مع أصدقائي أمثال خليل شيبوب، وصدّيق شيبوب، وعثمان حلمي، وعبد اللطيف النشار، وعلي البحراوي».

إلى الثغر

تحت هذا العنوان بتاريخ ٢٢/ ٥/ ١٩٥١ كتب زكي مبارك على صفحات جريدة البلاغ يقول:

«مضيت إلى الإسكندرية وفي نفسي أنني ماض لأداء واجب لا للنزهة، مع أن أداء الواجب فيه أنس للنفس، فلا يمكن القول بأنه نفسيًّا أروح من شعور الرجل بأنه سيكون في ضيافة البحر لغرض واحد هو التمتع برؤية اللؤلؤ المنثور فوق الرمال.

قطارات البحر -على أيامها السلام- كانت توحي بمعنى جميل، هو أنك في صحبة ناس جاءوا جميعاً للنزهة، والفرح يعدي كما أن الحزن يعدي، ولقد كان الاقبال على تلك القطارات شديداً جداً، فكنا نحجز التذاكر قبل الميعاد بيومين.

أنا أنتظر أغسطس لأزور البحر، وليس في بالي أني حضرت لأداء واجب.

قضيت ليلة السفر سهران في مراجعات أدبية وفلسفية، فغلبني النوم ولم استيقظ إلا عند الوصول إلى الإسكندرية، ولم يَجُدْ شيطاني بغير هذه الأبيات:

إلى الثغر، عاش الثغر، أركض سابحاً
فبعد ساعات يلوح لنا البحر

وأشربه ملحاً أُجاجاً وإنه
لفرط هيامي بالجمال هو الخمر

غرائب حسن في مغانٍ جميلة
كأن ثراها في تأرُّجه زَهْرُ»

* * *

أدب البحر

تحت هذا العنوان على صفحات ديوانه الثاني «ألحان الخلود» كتب زكي مبارك مقدمة طويلة للقصيدة التي حملت هذا العنوان ، وهي التي سنقدمها بعد لحظات . وكان كعادته في بعض قصائده يكتب مقدمات نثرية ... وقد كتب مقدمة لهذه القصيدة تصل إلى سبع صفحات من الحجم الكبير ، ولهذا سأنقل منها فقط السطور التي تهمنا كمقدمة للقصيدة ...

يقول :

«كانت جامعة أدباء العروبة(*) دعتني إلى إنشاء قصيدة في (مهرجان أدب البحر) فصادفت الدعوة هوى في نفسي ، كالذي وقع يوم دعتني إلى الاشتراك في مهرجان أدب القمر ومهرجان أدب الربيع .

وأنا آخذ أدبي من وحي الحياة لا من وحي الخيال ، ولهذا سافرت إلى الإسكندرية مرتين لأنظم القصيدة وأنا في رحاب الأمواج .

ولكن في القصيدة عنصراً أساسياً لم أهتد إلى مكان الوحي فيه ، وهو البقعة التي عانيت فيها غياهب الاعتقال ، فرجعت إلى الإسكندرية في يوم الأربعاء الماضي لأبحث عن ذلك المكان عساني أبلغ من استيحائه بعض ما أصبو إليه ...

بعد المغرب بساعتين أخذت سيارة ومضيت إلى مواجهة بقعة تجاور مسجد سيدي بشر ... وبعد لحظات رأيت الصخرة المنعزلة عن الشاطىء بمسافة تُعْجِزُ أمهر السابحين عند ثورة العواصف ...

(*) أسس جامعة أدباء العروبة صاحب المعالي المغفور له إبراهيم دسوقي أباظة باشا المشهور بـ: أبو الشعراء ، وكان زكي مبارك من المؤسيسن لجامعة أدباء العروبة

كان الإنجليز سمحوا للمعتقلين بأن يستحمُّوا في البحر مرتين في الأسبوع، فكنت أوغل في البحر إيغالاً شديداً، فيرفع الجنود بنادقهم ويهدّدونني بالرصاص إن لم أرجع إلى الشاطىء، كان الوهم عندهم أنني قد أسبح إلى أن أصل إلى الشاطىء الفرنسي... وقفت في مواجهة هذه الصخرة في هدأة الليل، والقمر يداعبني وأداعبه برفق وحنان... وطاب لي أن أرى مواطن الاعتقال، فلم أر الصحراء التي كنت أعرف، وإنما رأيت منازل جديدة تجهل أنها فوق رمال كنت أصطلي بنارها قبل سنين تزيد على العشرين...».

ثم يقول:

«الذي يهمني هو نظم القصيدة في حدود ما يوحي به تاريخ الاعتقال... القصيدة تنقسم إلى عناصر أصلية وعناصر فرعية، والعناصر جميعا مشتبكة إلى أدق معاني الاشتباك.

وأهم تلك العناصر أن السلطة العسكرية البريطانية أرادت أن تأخذ منّي تعهداً بالتوبة من الوطنية، فكان الجواب، أنني لن أتوب ولن أتوب ولن أتوب.

وفي القصيدة معنى جديد: هو شرح السبب في دهاء الساسةالإنجليز، وبيان ذلك أنهم نشؤوا في جزيرة يحيط بها الماء من جميع الجوانب، فلم يكن لهم زاد غير الصيد، والصيد يوحي إلى الصائدين معاني الغدر والختل والدهاء، وجزيرتهم يكثر فيها الضباب فلا يرون من الطريق غير أشبار في بعض الأحيان، ولهذا تقوم سياستهم على التحسس والتلمس والانتظار.

ومن مجموعة هاتين الصورتين تعرف السبب في انطباع الإنجليز على لطف القول وسوء الفعل:

ملائكٌ في تساميهم إذا نطقوا
وفعلهم مثل بَغْيِ القط بالفار

جنتْ عليهم مع الأيام بيئتهم
إن الضبابَ دخان النار بالقار

الصيد مهنتهم والبحر ساحتهم

ما للمصايد إلا كلُّ ختَّار

وقد أشرت في القصيدة إلى أن الأنهار المصرية تفرّدت بالسمك الرعاد، وهو سمك كهربائي لا يمكن لأحد أن يمسه وهو في الماء، ولكنه يفقد هذه الخصوصية إذا خرج من الماء. فلنحرص أشد الحرص على النيل ومنابع النيل».

ثم يقول:

«والبحر الأبيض المتوسط اسمه في قصيدتي «بحر العرب» وكان ذلك، لأن العرب لم يسموه في كتبهم الجغرافية والتاريخية إلا بحر الشام أو البحر الشامي.

كان موسوليني حين يتحدث عن البحر الأبيض يقول: «بحرنا» وقد رددت عليه يومئذ بخطبة ألقيتها في جمعية الشبان المسيحية بالإسكندرية فقلت فيها: إنما البحر لنا.

أين موسوليني وأين بحره؟ إن الطغاة يسطّرون آمالهم فوق الأثباج[1]، أو فوق الرمال.

أما الجوانب الوجدانية في القصيدة فهي مقبوسة من نيران قلبي، والشعر يأخذ وقودَه من نيران القلوب.

أما بعد! فهذه المقدمة تشرح الأجواء التي أحاطت بالقصيدة في الليالي الثلاث التي قضيتها بين أنين القلب وهدير الأمواج.

وأنا أوصي قرائي بزيارة البحر من حين إلى حين، فهو من أقوى مصادر الإيحاء، وهو الذي فجر ينابيع الشاعرية في صدري، فقد عبرته أربع عشرة مرة في ذهابي وإيابي من القاهرة إلى باريس.

أكتفي بهذا المقدار من التمهيد للقصيدة لأقول، والقول من معانيه الغناء، والقوّالون هم المنشدون في مجالس الصوفية:

---

(١) الأثباج: مفردها: ثبج، وثبج البحر وسطه أو معظمه.

شاعرُ البحرِ إلى البحرِ يعودْ بالهوى المشبوب والروح المَرِيدْ
إن هذا اللحنَ من هذا النشيدْ هو للبحر وجودٌ وخلود

* * *

وطنُ الروم وبحرُ العَرَبِ قد ملكناه بسيف الأدبِ
إن يَقُلْ يوماً هنا كان أبي قلت مجدُ الشعر فوق النسبِ

* * *

أين أيامي برمل اسكندريهْ والهوى يَمْرَح والروح فتيَّهْ
أين أيامي ونار الوطنيهْ تجعل القلب إلى الوادي هديهْ

* * *

لم أَعُدْ أذكر والدنيا صروفْ غيرَ أوهامٍ سَوارٍ وطُيُوفْ
شاب رأسي، أترى الشيب يُخِيفْ فارس الحب وقهّار الحتوفْ

* * *

إن في قلبي بقايا من شبابْ إن في عقلي بقايا من صوابْ
ما على الأيام إن جارت عِتابْ إنها المعصور من ماءِ السَّرابْ

* * *

إن هذا البحرَ رَوحٌ من نعيمْ إن هذا البحر لَفْحٌ من جحيمْ
في ثناياه خفيفٌ من نسيم وأعاصيرُ من الكَرْبِ المقيمْ

* * *

كان لي فيه على عهد شبابي   صَبَوَاتٌ في ذهابي وإيابي
لم أكن أعرف والحظ كتابي   أنه خُطَّ على متن العُبَابِ

* * *

أنا بالشعر وبالنثر أجودْ   ما الذي يابحر في الحب تجودْ
أملُ الحب قريبٌ وبعيدْ   وسرابٌ في هبوطٍ وصعُودْ

* * *

جئت وحدي لا أنيسٌ لا رفيقْ   ما لمحزونٍ إلى الصفو طريقْ
فُسحةُ الأيام ضيِقٌ بعد ضيقْ   وندَى البحر حريقٌ في حريقْ

* * *

أنا يا بحر بأهوائي غريقْ   أشرب الأهواء ريقاً بعد رِيقْ
بالهوى قل لي متى يوماً أفيق   من غرامٍ هو كأسٌ من رحيقْ

* * *

جنّيَّةَ البحر ماذا أنت صانعةٌ   يَادُمْيَةً صغْتُها من وَحْيِ أحلامي
لا تُنكري كيف كنا والهوى شَرَفٌ   أصوغه من غواياتي وآثامي

* * *

قصائدٌ هي أمواجٌ مؤجّجةٌ   وأبحرٌ من صبابات وأشجان
جنِّيةُ البحر لو أصغت لنا برزت   وأسلمت خدَّها للشاعر الجاني
شيطانةٌ لو بدتْ يوماً لكان لها   من وحي روحي وقلبي ألف شيطان
تبيت تلعب تحت الموج لاهيةً   بما هنالك من دُرٍّ ومَرجان

إلى الفضاء تعالي واسمعي وَتَراً   قد أسكر الخلق من إنسٍ ومن جان
إذا تغنَّى وقال الشعر متقداً   أصغى له من جواه كل مِرنان

* * *

جِنِّيَّةَ البحر عودي   وباللَّمَى العَذْب جودي
لا تنفري من صعود الشطِّ خائفةً   من شاعر فاتكٍ بالحسن هَيْمان
بَلْقيسُ أنت وعرش المجد تحت يدي   ورثته أنا عن جدي سليمان

* * *

أيها البحر سلامٌ وسلامْ   أيها البحر غناءٌ وغناءْ
أيها البحر غرامٌ وغرامْ   أيها البحر لقاءٌ ولقاءْ

* * *

تعالَ يا بحر عندي   إني بروحيَ عندكْ
فضحتُ بالشعر وجدي   فافضح بقربك وجدك

* * *

ما كان عهد تلاقينا سوى زمن   مضرج بنجيع السيف والنار
رأيت شطَّك والأهواءُ تعصف بي   عصف الإسار بليث الغابة الضاري
كان الحديدسياجاً أستظلُّ به   ظُهراً وكان نديمي عند أسحاري
إن أنسَ لا أنس والأيام ذاهبة   أني سُجِنتُ مع الأحرار في داري

كان اصطخاب هدير الموج يؤنسني ... كأنما هو من صحبي وسُمَّاري

الإنجليز رموني ها هنا سَحَراً ... والدهر يضرب أحجاراً بأحجار

كانوا يخالون لا صَحَّتْ مخايلهم ... أني أقلّم عند السجن أظفاري

قد استتابوا رجالاً كان أشجعُهم ... عند الكريهة مأموراً لأمَّار

تعهَّدوا أن يتوبوا من غوايتهم ... والتَّوبُ في بعض معناه من العار

بقيتُ وحدي وأجنادٌ مدجَّجة ... حوارسٌ هالهم عَمَدي وإصراري

عني عفَوْا لا عفتْ عنهم جرائمهم ... من حانثين بصدق الوعد غدَّار

ملائكٌ في تساميهم إذا نطقوا ... وفعلهم مثل بغي القط بالفار

جنت عليهم مع الأيام بيئتُهم ... إن الضبابَ دُخَانُ النار بالقار

الصيدُ مهنتهم والبحرُ ساحتهم ... ما للمصايد إلا كلُّ ختَّارِ[1]

في نهرنا الرعادْ ... في نهرنا وحْدَهْ

لا تخدعوا الصيادْ ... لا تُخلفُوا وعدَهْ

إني بشعري سأطويكم وأنشركم ... يا جاهلين بإيماني وتبياني

عُدْتُ للبحر وما عاد الفؤادْ ... إنه من محنة الوجد يُعادْ

بجميل الوجه واللحنِ يُصادْ ... إنه المأسور من صوت سعُادْ

أغسطس سنة ١٩٤٦

---

(١) الختال: الماكر المخاتل بخبث شديد.

الفصل العاشر
من أقوال زكي مبارك

من أقوال زكي مبارك

من مقالات المفكر التربوي الأديب الناقد الدكتور زكي مبارك المنشورة هنا وهناك على صفحات الكتب والجرائد والمجلات نعيش مع بعض أقواله، ورأينا أن يضمها هذا الكتاب لأنها تدور حول رسالة الأديب:

* يطالب زكي مبارك الكتّاب بأن يكونوا باحثين عن الحقيقة وسائرين إليها عن طريق العلم... وعلى صفحات كتابه «حب ابن أبي ربيعة وشعره» صفحة ١١ يقول:

«إن أنواع العلوم تتطلب ألوانا من النفوس، بل الفن الواحد يتطلب أرواحاً مختلفة لفهم أدواره المختلفة، فليس الذي يفهم نسيب الأمراء ويطرب له لأنه يساكن من يهوى ويختلف إلى من يحب، بقادر على أن يفهم نسيب المشردين في الآفاق ممن أُهْدِرَت دماؤهم وصودرت ميولهم».

* وفي كتاب «جناية أحمد أمين على الأدب العربي» الطبعة الثانية لدار الجيل بيروت على صفحة ٣٩ يقول:

«أنا أومن بأن الأدب العربي أصيل، وأعتقد أن من الواجب أن ندعو جميع أبناء العروبة إلى الاعتزاز بذلك الأدب الأصيل، لأنه يستحق ذلك لقيمته الذاتية، ولأن الإيمان بأصالته يزيد من قوتنا المعنوية، ويرفع أنفسنا حين ننظر فنرى أن أسلافنا كانوا من المبتكرين في عالم الفكر والبيان».

* سئل مرة عن أسباب النجاح الذي ظفر به في حياته الأدبية فقال:

«إن زكي مبارك نجح في حياته الأدبية لأنه رجل يؤمن بأن رزقه بيد الله لا بيد الناس.

ونجح في حياته الأدبية لأنه يعشق الصدق ويبغض الرياء، ولأنه يبذل دمه في سبيل الوفاء، ولأنه لم يقدِّم أي إساءة إلى أي مخلوق، وكان أصدقاؤه يكتبون له بأيديهم صحيفة الاتهام.

إن زكي مبارك نجح في حياته لأنه أحب كل بلد عاش فيه.

لم أدخل بلداً إلا أحببته أصدق الحب، لأني أرى بضميري وجه الله في كل مكان.

* المهم عندي أن يعرف أبناء العروبة أن الجمال غير مقصور على من أنجبت لندن أو باريس أو برلين، وأن في بغداد ودمشق ومكة والمدينة وصنعاء والقاهرة والاسكندرية والمنصورة ودمياط وتونس ومراكش والقدس وما شاء الهوى من الحواضر العربية أرواحاً فيها جمال وصفاء.

* يجب النظر إلى الجمال؛ فالنظر إليه يوقظ الروح والوجدان.

* قال أحمد زكي «باشا»:

«إن زكي مبارك عاش في باريس ما عاش وظل مع ذلك فلاحاً من سنتريس».

وأجاب في رده على أحمد زكي باشا:

«نعم: فلاح ثم فلاح، فإن شاء أبنائي أن يثوروا على أبيهم الفلاح فليحملوا إن استطاعوا رذائل المجتمع. أما أنا فقد نجوت ولله الحمد، ويسرني أن أسجل اعترافي بالجميل لزوجتي الفلاحة التي سارت سيرة أمها وجداتها، فحفظت قلبي سليماً من الهموم التي تزلزل عزائم الرجال.

نشأت في حداثتي فلاحا ولا تزال في يدي آثار الفأس والمحراث، ولم أعرف السعادة في ظلال العواطف إلا بفضل ذلك العهد.

الناس يعرفون أني في جميع الأحوال جندي من جنود الأدب وخادم من خدام العروبة، وحارس من حراس لغة القرآن.

* أنا أشرب المر من عصير الحيَاة لأحيله إلى شراب سائغ للشاربين.

* إن استقلال إرادتي حال بيني وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات أو حزب من الأحزاب.

* يقولون: إن زكي مبارك لا يزال يحافظ على مصريته، وهذا حق، أتشبث بمصر في سبيل اللغة العربية؛ فاللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي سيكون في المستقبل أساس ما سيقرّب الشرق العربي من قوة البنيان.

* أنا أشتهي أن أزور الحجاز لأكتب عن وطن الرسول كتابا لا يعرف الزور ولا الرياء.

* ربّاه أنت تعلم أني لا أداري المنافقين فنجِّني من شر المنافقين.

* مضت أعوام وأنا أكافح في بحر الظلمات، فما رحمني راحم ولا أغاثني مغيث.

* إن أعصابي تعبت من جو مصر الجديدة، ولا بد من تغيير المكان والوجوه لأجد ما دة جديدة لأدبي.

* الماء الذي يستقر في مكان واحد يضر بصحة من يسبح فيه، وهذا خطر المستنقعات.

* أنا أومن بأن كل سطر يُقرأ هو سهم موجه إلى صدر الجهل.

* لقد جنت عليَّ الشجاعة ما جنت فلم أتهيّب ولم أتوجع، وتركت الجبناء يتمتعون بمناصب كنت بها أحق.

* ما أذكر قط أني حقدت على إنسان، وما أذكر أبداً أني عرفت معاني الحسد والضغن.

* زكي مبارك أضاع نفسه في مصر بفضل حرصه على مبادئه الوطنية وانعزاله عن الأحزاب التي تملك مصاير الأمور في أكثر الشؤون.

* لقد غَنَّيْتُ أهل زماني أناشيد أيقظت بها صدورهم من أحلام غافيات، وأحييت بها ما كان في قلوبهم من موات، فأين من يسعدني بكلمة صدق أدفع بها عدوان زماني؟

* درست نفسي مرات كثيرة حين أتصل بالناس فرأيتُني لا أستفيد ولا أفيد إلا في قليل من الأحايين، وكان ذلك لأني حين ألقى الناس أظل وحدي محبوسا بين أحزاني وأشجاني.

* إن الدكتور زكي مبارك لو أنفق نشاطه في الاتّجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء، ولكنه بلا أسف سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي. والأدب العربي خليق بأن يكون له شهداء، وأنا في طليعة أولئك الشهداء.

* اذكروني بالشعر يوم أموت، وما أريد شعر القوافي وإنما أريد شعر الأرواح.

* الأمم لا تسبق الحكومات إلا حين تكتمل فيها الحيوية الروحية والعقلية.

* يجب أن نحدد الغرض من اتصالنا بالأمم العربية، فهذا الاتصال ليست له صبغة استعمارية بالتأكيد.

المنفعة الحقيقية لمصر هي أن تشترك في إحياء النهضة العلمية بالبلاد العربية، وهذا الاشتراك ليست له منافع ترجع إلى الجيوب، ولكن منافعه المعنوية أعظم مما يتصور الشعراء حين يستوحون الخيال، ومن الشرف لمصر أن تكون دولة لها مطامح معنوية؛ فهذه المطامح تزيد ثقة المصريين بأنفسهم، وتسوقهم إلى ميادين المجد، وتقهرهم على الإكثار من تزويد عقولهم بزاد العلم الحديث.

إن لم يكن بد من النص على المغانم العاجلة فإني أقول: إن اتصال مصر بالأمم العربية اتصال ثقافة ومودة وأخوة تخوف أعداءها أخطر تخويف، لأن الأمم العربية فيها نخوة وشهامة، وحرصها على مودة مصر يدخل في صدور أعدائها الرعب، وسلاح العطف ليس بالسلاح المفلول، فمن المؤكد أن إنجلتر لا تُلايِنُ مصر إلا وهي تعرف أن لها قوتين: قوتها الذاتية، وقوتها المكسوبة من عطف الأمم العربية.

وهذه الأمم التي نشترك في إنهاض حياتها الأدبية والعلمية والاجتماعية سيكون لها بإذن الله شأن وشؤون، وإذا صح أن ننتفع بعطفها وهي ضعيفة فسننتفع بعطفها وهي قوية، وإذا جاز أن تنافسنا هذه الأمم فستكون المنافسة المنتظرة حافزاً يدعونا إلى مضاعفة الجد والنشاط، ولا يخاف المنافسة إلا الضعيف، ولسنا ضعفاء.

وخلاصة القول: إن مصر لا تسود بغير الإخلاص ونكران الذات.

* من حق مصر أن تتغطرس حين تنظر إلى الغرب، ولكن من واجبها أن تتلطف حين تنظر إلى الشرق.

* إن أعظم مجد مصر هو أن تستطيع التفاهم مع الأمم العربية والإسلامية في الشرق لتخلق منهم درعا حصينة تقي اللغة العربية من عدوان اللغات الأجنبية ؛ وذلك لا يتمّ إلا بشرط واحد: هو أن تسلم مصر من الاتهام بالغرض.

ومصر خالية خلواً تاماً من الغرض، ولو عرفتُ منها غير ذلك لفضحتها بقلمي، لأن الحق عندي أعز وأشرف، ولكنها مع الأسف تسكت عن الدسائس والوشايات، وتمنح الفرص السوانح لمن يتجرون بالخوض في أعراض الشعوب.

* يجب أن يذهب لحاله كل من يحترف السياسة أو الدين في سبيل الرزق.

* يجب أن نكون من أمثلة النزاهة والإخلاص لنضع الحجر الأول في بناء الشرق الجديد.

* إن مصر شريفة الأغراض إلى أبعد الحدود، وفيها أريحية تفرض عليها التضحية في كثير من الأحوال، ولكنها تعمل ولا تتكلم في زمن لا يغني فيه العمل عن الكلام، لأنه يقوم مع الأسف على الدعايات.

ومن عيوب مصر أنها تسكت حين يجب الكلام، وقد تتكلم حين يجب السكوت ... فيابني آدم من أهل مصر علموا أبناءكم سياسة الصمت وسياسة القول.

* إن مصر في هذه الأعوام تسكت سكوت المريب، فتفتح الطريق للدساسين من أهل الشرق والغرب.

* آه ثم آه من أخطار السكوت ؛ سكوت مصر عن تصحيح مركزها أمام الأمم العربية.

* يا مصر، إنك تستعدين لأخطار عظيمة في بناء الجيل الجديد، فاعرفي ما تأخذين وما تدعين، واحذري أن يعتقد أبناؤك الأوفياء أنهم لا يلقون منك حسن الجزاء.

* إن مصر تشعر بأنها مسؤولة أمام الضمير العربي، وهي من أجل ذلك تبذل ملايين الدنانير في كل عام لتقوية الثقافة العربية، ومن واجب العرب أن يشجعوا هذه الحماسة، وأن يفهموا أن تحاملهم على مصر قد يخلق أحقاداً في بعض الصدور التي لا تدرك جيداً قيمة الأخوّة العربية.

* إلى الأدب العربي يرجع الفضل في تأريث البطولة العربية .

* يجب أن يكون مفهوماً أن العرب يتعرضون اليوم لأزمة شديدة : هي اختيار ما يقرأون وما يسمعون ، فإن نجحوا في هذا الامتحان فسيكونون من السعداء .

* إن أهل السودان من عيون العروبة ... وفيهم شمائل من النبل والكرم والذوق ...

سأذهب إلى قومي في السودان ... سأذهب إلى البلاد التي فيها منابع النيل ؛ سأذهب إلى الخرطوم التي خلدها صاحب «ليالي سطيح» ، الخرطوم التي تنسم هواءها حافظ إبراهيم أظرف رجل رأته عيناي ، سأذهب إلى الخرطوم التي عزّ عليها أن أقصر هواي على القاهرة وباريس وبغداد .

سأزور الأماجد من أهل السودان الذين كانوا ولا يزالون أصدق الحافظين لعهد القرآن .

سأبني بيتاً في دار فور لأستطيع أن أقول : إنني وفيت بالعهد للعروبة المصرية ، وسأكتوي بقيظ السودان كما اكتويت بقيظ العراق .

* رباه أنت تعلم ما نعاني في سبيل الحقائق الأدبية والذوقية والفلسفية ، وتعلم أن الناس لا يجزوننا بغير العقوق ، فاغمرني واكتبني عندك من الصادقين .

* نحن نبتدع الحياة بأفكارنا وأحلامنا لنجد ما نصوره بأقلامنا .

* وراء كل إنسان حي إنسان ميت يسوقه بعنف إلى مصاير فيها المقبول والمردود ، تبعاً لما يملك الميت من آراء وأهواء .

ومن غرائب ما يقع في القدوة الفكرية أن الناس في الأغلب لا يحترمون رأي المفكر إلا بعد أن يموت .

هل التفت الناس إلى رأي الشيخ محمد عبده إلا بعد أن مات؟

إن الشيخ محمد عبده كان يتندّر بمعاصريه فيقول : إنهم لا يحترمون غير الرأي المنصوص عليه في كتاب قديم بَعُدَ عهد صاحبه بالحياة والأحياء .

والقديم في الأدب هو الأصل ، فقد مرت أزمان والناس يعتقدون أن أشعار الجاهليين أقوى وأبرع من أشعار الأمويين والعباسيين .

القديم في عرف بني آدم يمنح صاحبه قدسية تفوق الوصف، وهو شارة من شارات النضج العبقري في الأشخاص وفي المعاني بسبب ما دُرج عليه من احترام الأموات.

أي العبارتين أقوى: عبارة «قال القدماء» أو عبارة «قال المعاصرون؟».

وازنوا بين هاتين العبارتين من الوجهة النفسية لتصدقوني.

إن الأموات يسيطرون على الجماهير سيطرة روحية وعقلية لا يرتاب فيها إنسان، ولو كان من أكابر الحكماء.

للموت قدسية رائعة فهو يرفع الأموات إلى آفاق لم تخطر لهم في بال، ألم تسمعوا أن كلمة الموت أصبحت مرادفة لكلمة الخلود!

* لم أر الطاووس وهو ينشر جناحيه زهوا واختيالا إلا منذ يومين ... ولقد أحيا في نفسي هذا المشهد حسرة قديمة طالما عذبتني بصنوف الآلام لتقصيري في دراسة الطير والحيوان، ثم سكنت قليلاً حين تذكرت أنني لم تفتني في دراسة الحيوان جملة واحدة، فقد اهتممت بدراسة الحيوان الناطق الذي اسمه الإنسان.

على أن الأدب الذي شغلت بدَرْسه، وقضيت فيه أنفس أعوام شبابي ليس شيئاً آخر غير دراسة أوهام الحيوان الناطق وأحلامه وتصوراته، وكيف يحب وكيف يحقد، وكيف يخطىء وكيف يصيب.

وقد ابتلاني الله بطوائف كثيرة من الدساسين والكائدين واللئام، فكانت فرصة عظيمة لفهم غرائز هذا الحيوان وطباعه وميوله وأطماعه.

*الصدق ينفع الناس، ولكن فضله على الصادق أعظم وأجزل، لأنه يقدم إلى صاحبه ذخائر من الثقة والأمانة والشرف، وثقة المرء بقدرته على كرم الخصال تسوقه إلى ميادين المجد، وترفع رأسه في السر والعلانية، وتؤهله للمنازل الكريمة بين الرجال.

* أكثر من درسوا الأخلاق يتوهمون أنها ترجع إلى غايات نفعية هي الصلاحية للحياة السعيدة بين الناس، ولو تأملوا لعرفوا أن الأخلاق منفعة نفسية؛ فهي ترسل الأشعة الكريمة على آفاق النفس وتحيط القلب الطيب بأرواح الفراديس.

* حـدثني قلبي بأن الشـرق لم ينحط من قلة القلوب، وإنما انحط من قلة العزائم، وتذكرت أن الأمم العظيمة هي التي يوجد فيها رجال شجعان يقولون كلمة الحق حين تخرس ألسنة الجبناء.

* ماقيمة هذه المخلوقات وأنت لا تعادي من تعادي وتصادق من تصادق إلا على حذر؟

وما فضل هذه الملايين وليس فيهم من يعصمه الحياء من الزور، أو يصده الدين عن البهتان؟

خاصمْ رجلاً واحداً على سبيل التجربة، ثم انظر كيف يقع في عرضك، وكيف يلغ في دمك، وكيف ينسى أنه مسؤول أمام الله عما يقترف لسانه النجس الخبيث!

إنك لا تستطيع اليوم أن تعادي أحداً في سبيل الحق، لأن الدنيا انقلبت إلى مطامع يترفع عنها الحيوان.

أترونني أظلم قومي؟ أنا لا أظلمهم، وإنما أشرح بلية اجتماعية يشكو منها أحرار الرجال.

حدثْني بربك ما هذه الملايين؟

وما قيمة هذه الملايين وأنت لا تستطيع الأخذ والعطاء إلا بسند مكتوب؟

اذهب إلى أي محكمة واحضر جلسة أو جلستين، فإن فعلت فسترى القاضي ينفق أربعة أخماس جهده في فحص المستندات واستجواب الشهود!

أكان القاضي يحتاج إلى ذلك كله لو كان للناس وازع من خلق أو دين؟

الله أكبر

لا يزال من تقاليد القضاة أن يقولوا للشاهد: قل: «والله العظيم أشهد بالحق».

كم رأينا ناسا يحلفون بالله العظيم ثم لا يشهدون بالحق.

ما قيمة هذه المخلوقات؟ وما الذي يفرحنا حين نعدهم كل خمس سنين فنراهم زادوا مليونا أو مليونين؟

*إن الأخلاق الدينية في بناء الأمة تذكرنا بالجراثيم النافعة التي يقوم عليها جسم الإنسان، ألم تسمعوا أن هناك جراثيم في داخل الجسم تثب دفعة واحدة في وجه الجراثيم الضارة التي تفد مع الطعام أو الشراب؟

كذلك تفعل الأخلاق الدينية، فإن الأمة حين تصح في دينها تظل قوية متينة لا يفد عليها واغل إلا دفعته عنها بقوة وجبروت.

* إن الدين من أهم القوى في خلق التماسك الاجتماعي.

والحرص على التقاليد يعد بابا من الحرص على التراث القومي، لأن التقاليد الصوالح لم تكن إلا ثمرات لجهود الألوف من المصلحين في مختلف الأجيال، وما نراعيه من الآداب في غدواتنا وروحاتنا وأفراحنا وأحزاننا ليس إلا دروساً تعب في نشرها الأسلاف، والعاقل يحرص دائماً على الأساس السليم الذي تركه الأجداد ويبني عليه في اطمئنان، ولا يفكر في زعزعة التقاليد إلا من يجهل ما سيحتاج إليه من الجهد في تعويض الأدب المفقود.

فرعاية التقاليد تنفع في وجهين: تنفع لأنها سناد حيوي في صيانة المجتمع. وتنفع لأنها توفر علينا جهوداً كثيرة حين نفكر في تعويضها بآداب جديدة. وليذكر القارىء دائماً أنني أعني التقاليد الصوالح، أما التقاليد الفواسد فحربها من أهم ما يعنى به المصلحون.

* أضاع الله من ينسى أن رجال السياسة يدينون لرجال القلم أثقل الدين، فبفضل الأقلام صار عندنا سياسة وسياسيون، ولو كَرِه بعض الجاحدين.

* إن الكاتب لا يعرف أين هو ولا حاضره وماضيه، لأنه مشدود إلى قافلة الوجود.

* إن الشاعر لا يفكر في إرضاء الناقدين، وإنما يفكر في تأدية الرسالة الموحاة إليه من عالم الغيب، أو عالم الطبع، ولا يهمه بعد ذلك أن يقال: إنه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء.

* وهل سيطرت مصر على الحياة الأدبية من الشرق إلا بفضل ما في أبنائها من شراسة وعرامةٍ واستطالة واستعلاء؟

* إن الكاتب الحق لا يخطر في باله حين يكتب أنه من أصحاب الأساليب، لأن الكاتب العظيم تصبح عنده الكتابة من وحي الفطرة والطبع، بحيث لا يشعر أن التأنق غرض مقصود؛ وإن أضافه الفن الجميل إلى طوائف المتأنقين.

* الكاتب الحق هو الذي يشغلك بنفسك، ويوجهك إلى مصيرك المنشود، ويفرض عليك درس غرائزك وأهوائك، من دون أن يفكر في حملك على الإعجاب بخصائصه الإنشائية.

* أنا بصريح العبارة أتهم أهل التكلف وأراهم أطفالاً في دولة البيان.

* إن الكتابة قلب يفصح وعقل يُبِين، وليست ألفاظاً تضم إلى ألفاظ.

الكتابة قوة روحانية لا تتفق للكاتب إلا بموهبة سماوية، فمن أراد أن يكون كاتباً فليرحل من طبقات الأرض إلى أجواء السماء.

والشاعر الإنساني يجد لعواطفه صدىً في جميع البلاد، أما الشاعر «المحلي» فأفقه ضيق محدود، وما أريد الغَضَّ من العواطف التي توحيها الأطوار المحلية، وإنما أريد أن يتغلغل الشاعر والكاتب في أعماق الأرواح والقلوب، بحيث يحدّث قراءه عن آفاق روحية وعقلية لا يهتدون إليها إلا بوحي من العقل الملهم والقلم البليغ.

* ومن أقواله:

أنقل هذه السطور من على صفحات كتاب: «زكي مبارك بقلم زكي مبارك» إعداد وتقديم كريمة زكي مبارك وتوزيع مكتبة مصر بالفجالة صفحة ٢٣٥، وقد نشرت من قبل على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ٢٧/ ٣/ ١٩٥١ أي قبل رحيل زكي مبارك إلى عالم البقاء بعدة أشهر، فقد رحل عن عالمنا في الثالث والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢.

يقول تحت عنوان: عمر الشقي بقي:

الشقي هو أنا، وبقي على وزن فعلٰ، طويل البقاء... وبالأمس مشى المترو يتلكأ كأنه شيخ أثقلته السنون، وعلى حين غفلة اشتعلت فيه النار فوثبتُ من الشباك لأنجو، وفي أذني صراخ النساء والأطفال.

وأخذت سيارة وطرت إلى القهوة مفكراً فيما كان يقع لو انتهت حياتي.

الجرائد المصرية والسورية والعراقية ستنعاني، وفكرت في الصفحة الأدبية والمحصول الذي أحب أن أطبع منه مجلدات، وفكرت في أبنائي وفي بكائهم لموتي....

ولم أفكر في مصيري بعد الموت، فأنا صائر إلى الجنة، لأن جهنم امتلأت بأدعياء الأدب والفن.

وسأتحسّر يوم أموت على ضياع الثروة الشعرية التي تموج في قلبي ووجداني، ولن يكون لي إلا عزاء واحد هو أن الله شاء أن يحرم العالم من رجل كله قلب ووجدان، لأن العالَم لا يستحق أن يحيا فيه قلب مثل قلبي، ولا يستأهل أن يعيش فيه رجل يملك ما أملك من عظمة النفس وقوة الروح، والعالَم من بعدي هباء في هباء.

وما هو الموت؟ وما هو تكريم الأموات؟ إن كان الموت أن يتهدّم جسمي يوما فهذا سيقع، وإن كان الموت أن آرائي ستموت فذلك أكذوبة من أظرف الأكاذيب، فآرائي ستسيطر على الناس إلى آخر الزمان.

أنا أموت! إنكم مخطئون... لن يذهب من الوجود غير هذا الهيكل الذي يذرع الأرض من «سنتريس إلى باريس» أما زكي مبارك الكاتب والشاعر فلن يذهب أبدا... وستبقى أفكاري.

* لي مؤلفات كثيرة لم تنشر، وقد أصبحت أرى أن من الواجب أن أنفق عليها كما أنفق على أطفالي لتستطيع التنفس في جو الحياة الأدبية.

فيا مؤلفاتي ويا أطفالي: رزقي ورزقكم على الله... وإن بقيتُ لكم فسترون بإذن الله كيف يكون كرم الآباء.

* مع الاعتراف بأن القلم في يد الكاتب نعمة لا يماثلها شيء من نفائس الوجود، فأنا كثير الضجر مما يجني عليَّ قلمي، لأنه يتيح الفرص لمن يسرهم إيذائي، ولأنه يجعلني دائماً على بال الناس، ويا ويح من يُشْغَل به الناس.

* * *

وبعد... وعلى صفحات مجلة الرسالة وفي العدد ٧١ يقول زكي مبارك:
«في مكان يستبق إليه ضياء الشمس، ونور القمر، وهدير الأمواج وقفت أنتظر وفاء بميعاد هو الميعاد».

* * *

والآن أجدني على صفحات هذا الكتاب أنتظر وفاء بميعاد... ميعاد من قالوا: إنهم سيدرسون كتابات زكي مبارك... وأنا لفي انتظار الوفاء... ووَعْدُ الحُرِّ دَيْن.

كريمة زكي مبارك

الفهارس

الأعلام

* * *

– ب –

* * *

– ت –

* * *

– ن –

البلدان والأماكن وما في بابها

* * *

* * *

– خ –

* * *

– د –

* * *

– ر –

* * *

– ز –

* * *

– س –

* * *

—ن—

* * *

— هـ —

* * *

— و —

* * *

— ي —

* * *

الأقوام والجماعات وما في بابها

* * *

– ن –

* * *

– هـ –

* * *

– ي –

* * *

أسامي الكتب والدوريات

* * *

- ن -

* * *

- و -

* * *

- ي -

* * *

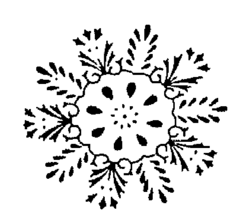
موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة

* * *

* * *

٣٠٠٠ ط ١/١٢/١٩٩٩



الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر

١٧٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٣٥٠ ل.س